روائع
الأدَب
التركي
مكتبة
Telegram Network
دورالي يلماز
المُسْتَلَبُون
DONUKLAR
ترجمة د.جمال سعيد عبد الغني
عصير الكتب

دورالي يلماز

المُسْتَلَبُون

DONUKLAR

«مكتبة ♔ النخبة»

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Donuklar
- العنوان العربي: المُستَلَبون
- طُبِع بواسطة: Yediveren Yayinlari
- طُبِع بواسطة: يديفيرين ياينلاري.
- حُقوق النشر: 2016، يديفيرين ياينلاري.
copyrights: 2016, Yediveren Yayinlari
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: د. جمال سعيد عبدالغني
- تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أكتوبر/ 2021م
- رقم الإيداع: 2021/21159م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-42-8

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

روائـع الأدَب التركي

دورالي يلماز

المُسْتلَبُون

DONUKLAR

ترجمة د.جمال سعيد عبد الغني

عَصيرُ الكُتبْ

أهمية الرواية

حظيت هذه الرواية بشهرة واسعة بسبب جرأة مضمونها وما تتضمنه من إسقاطات مختلفة على الواقع، مما جعلها من أكثر الروايات التركية توزيعًا وقراءة خلال عامي 2010 و2011، وقد تناولتها عشرات المقالات في الصحف والمجلات التركية.

وفي رأيي -بصفتي متخصصًا في الرواية التركية الحديثة- إن هذه الرواية تُعد من روائع الأدب التركي الحديث، وإنها لجديرة بالترجمة إلى اللغة العربية لإثراء مكتبتها برواية بالغة الأهمية، عالمية الرسالة، تتجاوز البعد الإقليمي إلى البعد الإنساني والعالمي، إذ تحكي معاناة إنسانية لا يخلو منها مجتمع خاصة في مجتمعات العالم الثالث، فمناقشة الكاتب لقضية الاستبداد من خلال الرمز أعطاها شيئًا من المرونة بحيث يمكن أن تنطبق على مجتمعات أخرى؛ حيث إن الإنسان هو قضيته وليست تركيا وحدها، فالكاتب في روايته هذه ليس كاتبًا إقليميًّا ضيق الأفق، وإنما يفكر في الإنسانية على نطاق أرحب جعله يصوغ هذا العمل لكي ينتقد واقعه الخاص، وكل واقع يماثله على امتداد الأزمان واختلاف البيئات.

المترجم

توضيح مهمّ

عند صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، تلقيت خطابًا يحمل توقيع «أحمد عاصم جز». وكان هذا الخطاب حافلًا بالحنق والسباب، يتوعدني فيه مرسله قائلًا: «إذا لم تنشر توضيحًا في طبعة جديدة للكتاب، فسأفضحك وأجعلك جُرسة بين الخلائق كافة. أنت سارق! وسأجعلك تدفع ثمن سرقتك هذه فادحًا».

نعم. أعترف بأن هذا العمل كان سرقة! كنتُ قد سطوت على دفتر مذكرات «أحمد عاصم جز»، وقمت بنشره بعد أن أجريت عليه بعض التعديلات. ولما كان المذكور شخصًا هرمًا بلغ أقصى مراحل الكِبَر، فقد توهمت أنه لن يعلم بذلك ما لم يخبره أحد. ومن جهة أخرى كنت قد رجَّحتُ أنه في أغلب الظن يعيش اللحظات الأخيرة من عمره، لذا فسوف يوافيه الأجل قبل انكشاف هذا الأمر، وتُطوى المسألة نهائيًّا وإلى الأبد، ويبقى الأمر سرًّا لا يعلمه أحد سواي.

أطاح الخطاب الذي تلقيته بكافة أوهامي وتصوراتي، وبدلًا من أخطو بقدمي نحو عتبات المجد والشهرة، انزلقت إلى مستنقع مترع بالأوحال. تحركتُ على الفور، وعثرتُ على المدعو أحمد عاصم، وتوسلت إليه واستعطفته، ووعدته بأنني سوف أقوم بجمع نسخ الكتاب فورًا لكي يتم إتلافها. بيد أنه لم يرضَ بذلك، ومد إلي دفترًا آخر، وقال: - اذهب فورًا وانشر هذا أيضًا.

فأخذتُ الدفتر، وغادرته تغمرني السعادة.

مرت سبع سنوات على ذلك، وكان اسمي قد بدأ يتردد في الأوساط الأدبية، ورحتُ أرتقي سلم المجد والشهرة، والفضل الأعظم في هذا كان راجعًا إلى الرواية التي أسميتها «**المنازل ذات الستائر السوداء**»، تلك التي سرقتها من «أحمد عاصم جز». وكان كل شخص يفسر هذا العمل وفق ما يوحي إليه هواه. ومن الناس من كان يعتبره نقطة تحوّل في الرواية التركية. وكنت قد نسيتُ دفتر المذكرات الذي منحني إياه أحمد عاصم، وانكببت على الكتابة، وكنت آنذاك بصدد كتابة رواية جديدة تمامًا، كنت سأنقش بها اسمي بأحرف من الذهب في عالم الأدب، وأخرق فيها كل مألوف ومتعارف عليه من القواعد وأقلبها رأسًا على عقب.

وإذا بـ «أحمد عاصم جز» أمامي من جديد... انهارت معنوياتي. جاءني بنفسه هذه المرة، وكأن أحدًا ما قد جاء به وغرسه أمامي، على الرغم من أن عثوره عليّ كان يُعَدُّ مستحيلًا، كما بدا لي موفورَ الصحة والحيوية أكثر من المرة السابقة. قال: - كفاك أيها الفتى. انشر دفتر المذكرات هذا أولًا، ثم عاود خلطك وخبطك خبطًا عشوائيًّا كيفما تشاء.

ولما رآني مبهوتًا ومتجمدًا، أردف يقول: - إن شئت يمكنني أن أعلن أنك سارق.
حاولتُ أن أستجمع شتات نفسي، وجاهدتُ لكي أتذكر ما كان مدونًا في دفتر مذكراته الذي أعطاني إياه، وكان السبيل الوحيد إلى الخلاص هو محاولة التنصل من الأمر كليةً، بزعم أن ما ورد في دفتر مذكراته محض سخف وهراء.
قلتُ: - أتزعم أن ما ورد في هذا الدفتر مذكراتك أنت؟ إنك تتحدث فيها عن وفاتك، في حين أنك تقف الآن أمامي حيًّا ترزق. هاك دفتر مذكراتك، تفضل خذه، وافعل ما تشاء، لستُ أبالي! ومن ذا الذي يصدقك بعد الآن؟
وأمام رد الفعل ذاك، الذي لم يكن يتوقعه قط، استحال وجهه سريعًا لوجه طفل بريء، وقال بنبرة باكية: - مساكين.. مساكين!
ازدرد ريقه ونظر في عيني، ثم قال:
- إنكم في وضع لا يسعكم فيه حتى أن تميزوا الميت من الحي.
فقلت:
- تتضمن مذكراتك رموزًا مثل: (الدجال)[1] و(المهدي)[2] و(عيسى)... إلخ، قد يُساء تأويلها، وتجر عليك كوارث وويلات.
أثارت هذه الكلمات حنقه مجددًا، فقال بنبرة الواثق من نفسه: - لكل عصر ولكل أمة ثمة (دجال) و(مهدي) و(عيسى).
قلت:
- على حد علمي أنهم من أشراط الساعة التي خبرتنا بها الكتب المقدسة.
فقال:
- أتعرف كم قيامة يشهدها شخص على مدار حياته؟ وكم قيامة تشهدها أمة من الأمم؟!
لم يكن هناك طائل من وراء المزيد من الحديث؛ إذ بلغ اقتناعه بصحة ما ورد في مذكراته حد العقيدة، فقررت أن أجيب هذا الهَرِم المدعو «جز» إلى مطلبه الوحيد في هذه الدنيا، مستهينًا بما قد ينالني من مصائب جراء هذا. وها أنا ذا الآن أنشر دفتر مذكرات «أحمد عاصم جز» تحت عنوان «**المستلبون**»، بحذافيره دون أن أغير ولو لفظة واحدة منه.

دورالي يلماز

الدجال: رجل يظهر في آخر الزمان. يُعد ظهوره من علامات الساعة الكبرى. يَدّعي الألوهية ويقوم بأمور خارقة ليست من قدرات البشر، فيغوي الناس ويضلّهم، ويقود قوى الشر ضد قوى الخير. يقتله عيسى عليه السلام بأرض فلسطين. (المترجم).

المهدي: من هداه الله. وهو أيضًا من علامات القيامة، حيث ورد في الكتب القديمة أنه إذا اقتربت القيامة وجاءت أشراطها وعمّ الفساد أرسل الله رجلًا يُقال له المهدي من عترة النبي صلى الله عليه وسلم، يخلّص الناس، ويملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلئت جورًا وظلمًا. (المترجم)

1

مرهق مكدود، يسري الخدر في رأسي ويسيطر الإعياء الشديد على جسدي. لفترة طويلة لم أستطع أن أجد في نفسي القدرة الكافية على أن أهب من فراشي وأنهض. ظلت نظراتي شاردة حائرة بين جدران غرفتي وسقفها وغطائي، وللحظة تمنيت لو أن هناك بحيرة أو بركة ألقي بنفسي فيها علّني أستكمل يقظتي. جاهدتُ لكي أستفيق وأستجمع همتي بالتنقل لفترة بين تصورات وأفكار مشابهة. في النهاية نفضتُ الغطاء من فوقي بمجمع قوتي، ونهضتُ.

تركتُ فراشي، ورحتُ أتحرك بعفوية غير منظمة، انتابتني نوبة تثاؤب استسغتها وارتحت لها. وسرعان ما وقعت عيناي على الفراش المبسوط أمامي بشكل غير مرتب. لقد كان فراشًا أرضيًّا عبارة عن بساط وغطاء من الصوف. ضممتُ البساط والغطاء إلى صدري ودلفتُ إلى خزانة الملابس التي تغطي جدار الحجرة المواجه لبابها من أوله إلى آخره، والمصنوعة من خشب الصنوبر؛ حيث موضع تخزين أشيائي وحاجياتي. ولقد تدلتْ على هذه الخزانة ستارة بنفسجية اللون، طويتها، ووضعتُ الأشياء التي في حضني.

خرجتُ إلى الردهة دون أن أدري أكان باب الغرفة مفتوحًا أما أنني الذي فتحته.. لم أستطع أن أقطع بذلك على أي حال. شعرتُ بسخونة الأرضية الخشبية للردهة في قدميّ، ما يعني أن الشمس قد غطَّت سطح المنزل تمامًا، ثم أخذت تلعق وتلعق ردهته. كان من الواضح أن وقت الضحى قد شارف على نهايته.. ساقني خواء معدتي إلى المائدة الموجودة في أحد أركان الردهة. دسستُ شطيرة من الجبن في فمي وازدرتها في عجالة دون أن أمضغها جيدًا، ثم عاودت الدخول إلى غرفتي، وقصدتُ طاولتي الخشبية الصغيرة أمام النافذة، وجلست.

فتحتُ زجاج النافذة، شعرت بحزن يُطبق على قلبي، وكأن عاصفة من كآبة تعصف بي من كل اتجاه. وقعتْ عيناي على كتب الشعر الموجودة على حافة الطاولة، فالتقطتُ أحدها فيما يحدوني الأمل في أن تخفف كلماته من حدة الحزن، فتحت إحدى صفحاته بطريقة عشوائية، لكنني لم أستطع قراءته! فركتُ عينيّ، وعاودتُ النظر إلى صفحة الكتاب الذي بيدي، فإذا ببقع سوداء تملأ جنباتها، رحتُ أقلب صفحاته باضطراب وخوف ولم أستطع أن أفهم ولو شطرًا واحدًا منها. قلتُ في نفسي: لعلّه حلم!! وعضضتُ على أصبعي فشعرتُ بالألم، إذ لم أكن أحلم ولا أي شيء، لكن ما هذا الذي يحدث؟! فتحتُ صفحة أخرى من كتاب آخر، وانكفأتُ عليها مستمسكًا بأمل أخير، فإذا بالبقع السوداء مرة أخرى... شعرتُ وكأن إعصارًا من الخوف يضربُ كياني، فبتُّ لا

أشعر بذاتي بل لا أجدها من الأساس، فخشيتُ من نفسي. فجأة، توقف إعصار الخوف، وساد صمت رهيب.

انتفضتُ من مكاني خائفًا مرتاعًا، ورنوتُ ببصري إلى الطريق. كان الطريق خاليًا تمامًا... فاندفعتُ إلى الردهة بلا وعي مني. تصطف البيوت صفًّا وراء صف، أغلبها من طابق واحد، مزيج من اللبِن والأخشاب... تلهث الأسقف المغطاة بالقرميد الأحمر في إعياء شديد تحت أُوار شمس الضحى. ما من حركة في المشهد. نظرتُ حولي مرة، ثم مرة أخرى؛ صمت الموت يتدفق من البيوت إلى الشوارع. أين أنا؟ أنا في الطابق العلوي لمنزل من طابقين. إلى الأمام رأيتُ سلمًا خشبيًّا، اندفعتُ إليه في التو، عليّ أن ألوذ من هذا المنزل هربًا، ومن هذا الحي الذي أراه لأول مرة.

لو استطعتُ أن أتذكر مجيئي إلى هنا لكان ممكنًا أن أعثرُ على ذاتي، فلا تعود هناك ضرورة للفرار، شعرتُ بنبض في رأسي، إنني في مأزق؛ خوفي ينبعثُ من داخلي إلى ما حولي، يدفعني إلى طريق الخروج الوحيد من هنا، وهو السلم. زادني الصرير الذي يصدر عن درجاته الخشبية خوفًا على خوفي. شعرتُ للحظة بأن قدميّ تلامسا الأرض، فأحسستُ بارتياح نسبي وبدأتُ أسير.

لاحظتُ لأول مرة أن ملامسة الأرض هي مبعث هذا القدر من الشجاعة والأمل. توقفتُ في ضوء بروق الشجاعة التي لمعَت في عقلي، وتلفتُّ حولي، ما زلتُ أمام المنزل نفسه. أخذتُ أعدو وأعدو... منازل مهجورة، وشوارع مختنقة. أعدو وأعدو دون توقف، ومن ورائي وقع أقدام الخوف مضجرة لا تُحتمل...

دخلتُ أحد المنازل على أمل الخلاص من مطاردة الخوف، صعدتُ إلى أعلى سلم يشبه ذلك السلم الخشبي الذي هبطتُ عليه قبل قليل. لم يكن هنالك في هذا المكان الموحش من صديق سوى الأرض، ولا ثمة ملاذ إلا البيوت، داهمني هذه المرة شعور بالعطش زاد من قسوته قيظ الشمس التي ظلتْ معلقة فوق رأسي لساعات. سعدتُ بهذا؛ فعلى أي حال شعرت بذاتي. وحينما خرجتُ إلى الردهة هرعتُ إلى جرّة من الفخار الأحمر في أحد الأركان. فرفعتها إلى فمي، ونهلتُ من مائها حتى ارتويت.

ولما أنزلتُ الجرة على الأرض، اكتشفتُ أن هذا هو نفس المنزل الذي سبق أن فررتُ منه قبل قليل. عادت الشكوك والهواجس تساورني من جديد. فبنايات هذا المكان متشابهة... ربما أكون مخطئًا. دخلت الغرفة التي أمامي. غمرني شعور بالسرور حين وقعتْ عيناي على الطاولة الخشبية الموجودة أمام النافذة التي تعلوها كتب الشعر، إذن لستُ مخطئًا، فهذا المكان هو بالفعل منزلي.

جلستُ إلى الطاولة. أسندتُ ذقني إلى راحتيّ، ورحتُ أطيلُ النظر فيما حولي وأفتشُ في ذاكرتي. تذكرتُ مغادرتي الفراش وطيبّ له، والطعام الذي ازدردته والشوارع التي عدوتُ فيها. ولأن ذاكرتي كانت قد احتفظتْ ببعض الأشياء، فقد كان بمقدوري أن أعثر على مخرج من الأحداث التي سوف تتطور بعد ذلك. وانكببتُ من جديد على كتاب الشعر الموجود أمامي بأمل متجدد. لكن بلا جدوى... ليتني أستطيع أن أفهم هذه الحروف ولو لمرة...

يمكنني القول إنني بدأت شيئًا فشيئًا آلف الوحشة والخوف. فأنا على الأقل أدركُ نفسي وأعيها. اعتدلتُ في جلستي فرحًا، وأسندتُ ظهري. وتنفستُ بعمق. على الأقل كنتُ موجودًا، ومدركًا لوجودي. ربما يكون حلمًا، وربما حقيقة. ما الفارق؟ ألست أنا من سيقاسي الوحدة والوحشة نهاية الأمر؟!

لم أستطع أن أقرأ كتب الشعر الموجودة أمامي، ولم أستطع أن أتذكر ولو شطرًا منها، ومن ثم جربتُ أن أنظم أشعارًا بنفسي وأقرأها بصوت عالٍ. غير أني لم أفلح في ذلك أيضًا. وردتْ على خاطري مفردات كثيرة مثل منزل، وخبز، وماء، وأرض، وشارع. إلا أنني لم أستطع أن أؤلف بينها، وأكوّن منها جملًا مفيدة. اعتصرتُ ذهني قدر المستطاع في محاولة لتذكر بعض الأشياء. وراودني هاجس أن شخصًا ما سوف يباغتني ويظهرُ لي من مكان ما بداخل الغرفة. لقد كان هذا الهاجس في الحقيقة يبعثُ الأمل، لا الخوف. وفي النهاية رحتُ أنتظر بكل كياني متشبثًا بذلك الأمل. وبعدما انتظرتُ مليًّا نهضتُ من جديد وخرجتُ إلى الردهة. بتُّ أعرف هذا المكان، وكان ذلك أيضًا يشعرني بالارتياح، ويجعلني أتشبث أكثر بالحياة.

مددتُ بصري إلى البعيد. لقد كان المكان الذي أُوجَدُ فيه مرتفعًا نوعًا ما، لذلك كنت أستطيع أن ألتقط بعيني مساحة واسعة. بعد انتهاء البيوت المبنية بالطوب اللبن والخشب والمغطاة بالقرميد الأحمر المحيطة بي، ترتفع دور مبنية بالآجر، ومن بعدها مجموعات من البنايات المرتفعة. تبدو أنها مدينة. ويبدو أنني في حي معزول من هذه المدينة. لكن أين البشر؟ وأين السيارات المزمجرة؟ وأين المآذن التي ترتفع إلى عنان السماء في أماكن متفرقة... وأين هديل الحمام؟ وأين وأين...

تحسستُ نفسي لمرة أخيرة، وفتحتُ عيناي وأغمضتها. ما رأيته لا يتغير ولا يتبدل. لم يعد يساورني شك في أنني على حافة مدينة كبيرة.

استحال الصمت خوفًا زادته هواجسي حدة واضطرابًا. يعملُ ذهني بكامل سرعته. أشعر باحتكاك تلافيفه. سأجنُّ. هل هذه غرفتي؟ متى وكيف أتيتُ هنا؟ هل أمضيتُ حياتي هنا يا تُرى؟ مع من عشتْ؟ هل هذه المدينة مدينتي؟ ألا يحتمل وجود آلاف البشر هنا؟ ألا يحتمل أني أعرف الكثيرين منهم؟ تساؤلات واستفسارات تصول وتجول في خاطري. بيد أنني لا أستطيع أن أظفر بإجابة

واحدة. الشيء الوحيد الذي أتذكره الآن، هو ما وقع لي من أحداث بعد استيقاظي.

عدتُ أدراجي إلى الغرفة التي وجدتُني فيها عند استيقاظي، أملًا في أن أستطيع الإمساك بطرف الخيط، حتى يستبين لي ما قد يصلني بحياتي السابقة. ورحتُ أتفحص محتويات الغرفة. أزحتُ ستار خزانة الملابس، فوجدتُ بساطي وغطائي حيث وضعتهما. وقعت عيناي على مصباح غاز معلق على أحد جدران الغرفة، يكسو زجاجه الضباب، دُس ثقاب بين مرآته وزجاجه. أخذت الثقاب وأشعلته. وأوقدت به فتيل المصباح. وأعدتُ زجاج المصباح إلى مكانه. شعرت برائحة الغاز تفغم أنفي. فنفخت في المصباح وأطفأته. كانت رائحة الغاز هذه المرة أكثر حدة... ربطتني هذه التجربة بالحياة بدرجة أكبر، وشعرت بها بكل كياني. ورحتُ أتفحص الغرفة مجددًا.

أرضية الغرفة مفروشة بالسجاد، مسقوفة بألواح خشبية متعرجة، تتدلى من بين ثناياها أوحال متجمدة رمادية اللون لها أشكال غريبة، أمعنتُ النظر فيها، وفي هذه الأثناء وقعت عيناي على غطاء موجود تحت خزانة الملابس. ذهبتُ من فوري، وأمطتُ الغطاء علّني أعثر على شيء يفتح لي نافذة على ماضيَّ. فعثرت على حقيبة سفر جذبتُها وأخرجتُها فرحًا، ورفعتُ غطاءها لأجد داخلها بعض القمصان والسراويل والسترات متنوعة الألوان، وكذلك حذاءً وقبعة أسودين.

تركتُ حقيبة السفر واعتدلت. وفكرت في تلك اللحظة أن أنظر لنفسي؛ إذ إنني تفحصتُ كل شيء حولي دون أن يخطر لذهني أن أنظر لنفسي. وعندما أحنيت رأسي، ونظرت لنفسي نظرة عابرة، ظللت مبهوتًا متجمدًا: إنني عارٍ تمامًا! لقد استمررت أتجول في المكان لساعات عاريًا كما ولدتني أمي، دون أن أتنبه لذلك! غمرني الخجل، ووجدتُني أرمق باب الغرفة ونافذتها دون إرادة مني. كانا مفتوحين. وطفقَتْ الهواجس والآمال والمخاوف والشكوك تحوم حولي كسرب بعوض. بيد أن وابل الخجل يبللهم جميعًا ويسقطهم أرضًا. هرعتُ أولًا إلى النافذة، ثم إلى الباب. لكن لسبب ما لم أتمكن من إغلاقهما. انحنيت على حقيبة السفر بغية ارتداء ما فيها. توقفتُ وابتسمتُ، فلم يكن في المكان شخص أشعر بالخجل في وجوده. غمرني شعور بالارتياح هذه المرة، نظرًا لوجودي في مكان خالٍ من البشر. بيد أنه كان عليّ أن أرتدي الملابس من جديد، لعلّي ألتقي بأحدٍ ما في أي لحظة. رحتُ أرتدي ما في الحقيبة بالترتيب. الآن صرتُ أرتدي قميصًا أزرق، وسروالًا أسود، وحذاءً أسود كذلك. استكملتُ ارتداء باقي القطع واعتمرتُ القبعة السوداء.

مرَّت تلك الأحداث التي عشتها في خاطري بسرعة البرق، وكأن ما عشته عمر طويل مديد. لم أشقّ على نفسي أكثر من ذلك، فقد كان ماضيّ القصير يزيح الستائر التي أمامي، وثمة مستقبل يمتد ويتسع ويتعمق باستمرار. كنتُ

كمن يغرق في خضم ذلك المستقبل، وقد وجدتُ الخلاص في الذهاب والجلوس أمام النافذة، وأوليتُ الطريقَ كل انتباهي. بدا من هيئته وكأنه شارع رئيسي. لم أكن قد يئستُ بعد من لقاء البشر، لو كان في هذه المدينة بشر يتنفسون. حتمًا سيمر أحدهم عبر هذا الطريق. رحتُ أترقَّب. نحَّيت كتب الشعر الموجودة أمامي جانبًا. كيف لي أن أعرف بأنها كُتبُ شعرٍ؟ لا أستطيع أن أجزم بشيء. لكن كما قلت: تهوي الكلمات على ذهني، لكنني أعي الآن أنها نجوم تهوي على المستقبل لا على الماضي.

أسندتُ ذقني لراحتيّ، ومرفقيّ إلى الطاولة، وتطلعتُ إلى الطريق بجُل اهتمامي وانتباهي. مرَّت عليّ لحظة استشعرتُ فيها الخوف من أن أصرف عينيّ عن الطريق. كان الخوف يحاصرني ويلفّ المكان من حولي... الطريق هو الأمل. الطريق هو الخلاص. لذلك لم أستطع أن أصرف عينيّ عنه خشية أن يسحقني الخوف بين أنيابه، توقف ذهني عن العمل، ولم يعد هناك سوانا... الطريق وأنا. بل لقد تلاشيتُ فيه، وتوحدتُ معه فلم يبق سواه. انتابَتني سعادة غامضة، صرتُ وكأنني طريق ينتظر المارة والمسافرين، وفقدتُ الشعور بالزمن، لا أمس ولا غد، إنما هذه اللحظة: هذه اللحظة فقط، وصرتُ أرجو ألا تنتهي.

***

ستائر نافذتي مفتوحة، بوسعي أن أرى الطريق بكافة تفاصيله ومفرداته، يتغير منظر الطريق باستمرار، يميل أوله للاصفرار، ثم تكسوه ظلال غير واضحة المعالم، يعقبها غبار رمادي، سرعان ما يستحيل إلى لون الرصاص. وفيما كنت أرقب هذا التغير تذكرتُ الشمس، التي ظلت مُعلَّقة فوق رأسي حتى الظهيرة كجمرة نار؛ حاولتُ التلطيف من حرها بشرب جرعات كبيرة من الماء، غابت دون أن أفطن لها، غير أنني أدركتُ ذلك من الطريق الذي توحدتُ معه قبل ساعات. كانت صورة المنزل ومناظر الطريق تخفف من وحشة نفسي، وراح الليل يرخي سدوله، ويمحو الهدوء الرطب وحشة الظلمة وقسوة النهار، وتراقصَت داخلي مشاعر السرور والبهجة. راودتني الرغبة في الصفير؛ علّ صفيري يوقظ الليل.

لا الصفير ولا الصياح؛ كلاهما بلا معنى في تلك اللحظة ووسط هذا الظلام المغلَّف للطريق: ظلام مثقل بأصوات تخفي خلفها نغمات وموسيقى الحياة المتناغمة.. عليّ إذًا أن أصفّر، لكي تولد الحياة من رحم الظلمة، ومن ناحية أخرى فإن الصفير نداء. لكن هل سيكون صفيري نداء على من هم في جوف الليل؟ أم تراه نداء على ذاتي؟ لم أعد أخشى من التفكير في نفسي والنظر إليها. إذ إن الصفير ضرب من السخف؛ إنني أنتظر نداءً، وعليّ الانتظار حتى النهاية.

هنا التقط أنفي رائحة غبار. تجذبني هذه الرائحة إلى عوالم لا أستطيع تذكّرها على الإطلاق، أنظر باهتياج إلى الجهة التي تفوح منها الرائحة. هناك ظل مبهم متموج يلامس الطريق، لا بد أن زجاج النافذة مفتوح، بل ربما لا يوجد زجاج قط، وكلما تكاثفت رائحة الغبار، بان الظل بدوره أكثر فأكثر. صار قلبي مثل غابة كثيفة تعصف الرياح بأغصانها، وتداعب أشجارها.

ارتفع الغبار حتى عنان السماء، وتداخلت أصوات الطريق وتشابكت. عصفت بذاتي وصارت كل الطرق بداخلي معوجة مضطربة، ولم أعد أدري أيها سلكت، ومن أيها خرجت، وإلى أيها توجهت. أي طريق أخذني وأتى بي إلى هنا؟ أهي الطرق المعوجة التي بداخلي؟ أم الطرق ذات الانعطافات التي في الخارج؟ فلتهدأ يا قلب وتسكن يا عقل! وأسرع أيها الزمن وزد في خطوك؛ إلى الخلف.... إلى الأمام، لا يهم، الطريق هو الأمل... الطريق هو الخلاص. ها هي ذي المشاهد... آلاف المشاهد التي تبعث ذلك الغبار. أفتح عيني عن آخرهما، وأحيطُ الطريق كله بأحداقي، فأراهم يقتربون؛ إنهم بشر مثلي لكنهم كُثر... تغص جميع الجهات بهم.. وها هي ذي المنازل المهجورة الموحشة، وتلك الشوارع الشاغرة التي رأيتها في الصباح؛ إنها المدينة التي فقدتْ صوتها... أي زمن هذا الذي نحياه؟ يتوافد البشر –كل البشر– أمام نافذتي.

أنظر إليهم بابتهاج. أود أن أهرع إليهم. لكن ما هذه القبعات السوداء التي يرتدونها جميعًا؟ ولماذا يخفون أعينهم خلفها هكذا؟! وهل هناك معنى للبشر من دون عيونهم؟! فركتُ عينيّ وأمعنتُ النظر، فإذا بغابة من القبعات تموج أمامي. تحسستُ رأسي براحتي فإذا بي أنا كذلك أضع قبعة. يسير الجميع وسط غابة من القبعات السوداء. تنحي أيتها القبعات وابتعدي؛ أود رؤية عيون إخواني البشر. فلا وجود ولا كيان عندي لامرئ لا تلتقي عيناي بعينيه. لكن عليّ أنا أولًا أن أنزع عني هذه القبعة السوداء، لأكشف عن عينيّ. لسبب ما لم أستطِع ذلك، غير أنني نحيتُ طرفها جانبًا، وكشفتُ عن عينيّ. امتدت يدي إلى الزجاج وطرقتُه في محاولة مني لجذب انتباه المتدفقين والمارين على طول الطريق. ليتني أستطيع أن ألتقي بهم وجهًا لوجه؛ فمتى تمكنت من تحقيق ذلك سوف تأتي البقية، فالعيون هي كل شيء، فيها الماضي والمستقبل.

أجذب يدي، ينتابني شعور بالخوف؛ خوف جديد بدايته ونهايته غامضة. يتهوّل شيئًا فشيئًا حتى يجتاح كل كياني. يتدفق السيل البشري دونما توقف أو انقطاع. هل هؤلاء الذاهبون أهل مدينة فقط أم أهل بلد بأكمله؟ يسرّع السيل البشري خطواته باضطراد؛ يتعاظم، وكأنهم يريدون بلوغ مكان ما. يشعرون بأنهم تأخروا، فينتابهم توتر... يحثون الخطى، يسرعون. كل منهم جواد ليل، كل منهم لا يشغله سوى همّه، كل في وحدته. ثمة شعور باليأس والانكسار، وكأن البشر قد ذهبوا، مخلفين وراءهم ظلالهم. تتثاقل جفوني. يرتعش من في الطريق؛ إنهم ظلال. بالطبع ظلال. يغالبني شعور بالنعاس. أشعر وكأن أشياء

تحول بيني وبين الطريق. يتبدى المسافرون حينًا، ويختفون حينًا آخر. أوشكُ أن أفقد البشر بعدما ظننت أني قد وجدتهم.

أطرق على الزجاج. يموج سيل البشر الذي أمامي، ثم يتوقف. أبصر القبعات تتهادى في البحر البشري والعيون تنصرف تلقائي. وفجأة، يُهتك حجاب الوحشة. وتهدأ عاصفة الخوف. وتبدو آلاف العيون وكأنها تتبسم لي. لا أخاف. العيون بنية وخضراء وزرقاء وسوداء. يسري إلى عيني ينبوع حب ومعانٍ نبيلة أسمع له خريرًا، وتضيء الجباه في ضوء القمر. يقع ظل القبعات على الخلف. إنني بشر، وكل من ينظر إلىّ بشر. كان الطريق قد توحد معي قبل ذلك. أما الآن فقد تحول برمته إلى بشر: البشر الذين انتظرتهم منذ الصباح، والعيون التي لم أستطع رؤيتها منذ المساء... نور أي العوالم تعكسه هذه الجباه؟ يدور بيننا حديث هادئ. يقولون:

- هلم.. ننطلق معًا.

أبدي امتناني، وأبتسم قائلًا:

- تساورني الشكوك وتخالجني الظنون..

يقولون:

- لا تسل عن شيء قط والحق بنا، فالسير في الطرق خير من النظر إليها.

هل يتحدثون جميعًا هكذا وكأنهم جوقة تُردِّد نفس العبارات؟ أم أن هناك فردًا بعينه يتحدث؟! اندفعتُ فرحًا مهتاجًا صائحًا:

- انتظروني، انتظروني... أنا قادم في التو.

توقفوا وراحوا يرمقونني بنظراتهم، وأنا أجاهد للحاق بهم، لكني لم أستطع، شعرتُ وكأن ثقلًا يزن أطنانًا معلقًا بكاهلي، وأن هناك آلاف الأيدي تمسك بي فلا أستطيع منها فكاكًا. وفي هذه اللحظات عاودَت أطراف قبعاتهم تحجُب أعينهم، فصرختُ فيهم:

- أيها المسافرون، أيها المسافرون! توقفوا، تريثوا قليلًا، إنني قادم، قادم في الحال.

لم أدرِ كيف تفوهت بهذه الكلمات؟ وهل نطق بها لساني أم أنه قلبي؟! ولم أعد أرى كل تلك العيون... أين هي؟! وأين ذهبت؟! لقد حالت تلك القبعات اللعينة دونها. يمضي المسافرون في سبيلهم، وتخلو الطرقات من المارة، يبقى البكاء والنواح؛ هو السبيل الوحيد للخلاص. بإمكاني أن أخلق عالمًا من الدموع. بيد أني لا أجد بداخلي رغبة في البكاء، تتهاوى رأسي على الطاولة ككتلة من معدن.

فركت عيني، فإذا بالبشر ينصرفون مسرعين. ظننتُ أن الطريق قد خلا قبل قليل، فلم يعد يرمقني المارة بأعينهم خلال غابات قبعاتهم، فشعرتُ بالبرد،

وساورتني الحيرة في كل ما رأيته؛ أحلمًا كان أم حقيقة؟ نومًا أم يقظة؟! أم تراه شيئًا بين الحالين؟! أم تراني أُصبتُ بالفصام؟!

نظرت إلى الغرفة، فإذا بالظلام يلفها. برحتُ الطاولة التي ظللتُ جالسًا عليها لساعات، وتقدمتُ نحو المصباح. غمرني السرور حين أشعلتُه ورأيت كل شيء في موضعه. فأنا لا أزال في المكان الذي أعرفه. وحينما تقدمتُ وعاودتُ الوقوف أمام النافذة، التقيتُ نفسي وجهًا إلى وجه في عمق الزجاج؛ أرتدي قبعة سوداء وقميصًا أزرق وسروالًا أسود، وأنتعل حذاءً أسود اللون. تلك كانت هيئتي. أغلقتُ النافذة جيدًا بامتعاض مترع بالخوف. أسدلتُ الستائر، والتقطتُ فراشي من خزانة الملابس، وبسطته في مكانه القديم، وألقيتُ بنفسي فيه.

وجدتني في حاجة إلى النوم. حاولتُ كثيرًا، لكني لم أستطع. أخشى اليقظة، فربما أستيقظ في الصباح على عالم جديد. النوم هو ما يبدد الليل والنهار. ليت سِنة من النوم تأخذني ولو لمرة واحدة. تترامى إلى مسامعي أصوات متداخلة. أدخل رأسي تحت الغطاء. عندئذٍ أنتبه إلى أن القبعة على رأسي؛ معنى ذلك أنني نمت مرتديًا ملابسي. تتردد أصوات وجلبة وضجيج. أُخرج رأسي من تحت الغطاء وأُنصت: إنها وقع أقدام. إذًا لا يزال الكثير من البشر يمرون في الطريق. تهوي رأسي مجددًا على الوسادة، وأستلقي على ظهري. أود هتك حجب الخوف من وحشة التفكير في الناس. يبدد ضوء المصباح المشتعل مخاوفي ويزيحها بعيدًا. يزداد وقع الأقدام وضوحًا بالتدريج. ثمة بشر يمرون، ماضين إلى مكان ما. لست وحدي. عليَّ أن أنام حتى يترسخ هذا الاعتقاد لديّ. يتردد وقع الأقدام في أذني، يتسلط النعاس على عينيّ، وأنا لا أزال مستلقيًا على ظهري في الفراش لا أحرك ساكنًا.

تنهار الجدران فوقي ويتهاوى السقف. هل هذه غرفة أم قبر؟ أحيّ أنا أم ميت؟! أنَوم هذا أم إغماء؟! يدور كل شيء بداخل الغرفة، يدور. يتمرد قلبي، يوشك أن ينخلع من مكانه، تسري في جسدي قشعريرة، وترتعد فرائصي. تدب الروح في كل شيء، تسري الحركة في كل مكان. لكن لا يزال الصمت مخيمًا كما هو. لا أستطيع أن أرفع رأسي من على الوسادة. ينقطع وقع الأقدام. يحاصرني الخوف بضراوة من كل جانب. أحس بخدر يسري في مخي. يتفاقم الخوف في قلبي، وتتشنج أوصالي. ظلام وصمت مطبق. متى انطفأ المصباح؟ أفتح عينيّ وأنظر إلى الظلام الدامس. خواء لا متناهٍ يمتد في جميع الجهات؛ ربما يكون ذلك امتلاء. تارة يقترب النوم والظلام معًا، وتارة يبتعدان.

رائحة غاز تفغم أنفي. أفتح عيني. السقف فوقي، وأنا مستلقٍ على ظهري. تتسع فتحتا أنفي وتضيق؛ أشتم رائحة غاز أو احتراق. أقبع في فراشي، وأتلفت حولي. تتفاقم رائحة الغاز والاحتراق باستمرار. الغرفة مضاءة وحارة، والمصباح في مكانه على الجدار، ليس منطفئًا ولا مشتعلًا؛ لا يستطيع حتى

إضاءة محيطه. أجد أوراقًا قرب رأسي؛ أتمدد وألتقط واحدة منها، سطور قصيرة بنفس الطول تصطف فوق بعضها، إنني أعرف هذه الكتابة؛ إنها كتابتي. أصبح بوسعي قراءتها.

تلوح لعيني بارقة أمل بمجرد تعرفي على كتابتي. أقرّب الورقة إلى عينيّ باهتياج؛ لا، لا، إنني لا أستطيع القراءة. أعرف أنها كتابتي. قبل قليل ظننتُ بأنني سيمكنني قراءتها، بيد أني الآن لا أستطيع، لِمَ؟ أين قلمي! أتلفّت حولي، إلا أنني لا أستطيع أن أرى شيئًا يشبه القلم. تظل نظراتي حائرة تروح من النافذة إلى الباب، ومن الباب إلى النافذة. كلاهما مغلق. أنحني على الورقة التي أمسك بها، لا أستطيع فهم حرف واحد منها هذه المرة. يساورني الشك. أنتفض من الفراش، وأهرع إلى النافذة. أفتح الستائر، يمتد أمامي طريق شاغر تمامًا.

يسود صمت تام. خرجتُ إلى الردهة. تنام البيوت المحيطة بي صامتةً في وضح النهار. لقد استيقظتُ على يوم جديد، لكن ما من شيء قد تغير. إنه المشهد ذاته منذ استيقاظي أمس وحتى الآن. ليس ثمة تغير يحدث. لا أستطيع أن أدرك الزمن أيضًا. تختلط رائحة الاحتراق ورائحة الغاز التي كانت تفغم أنفي بالهواء النظيف في الردهة. أدلف إلى الغرفة مجددًا. ما من شيء سوى الفتيل المرتعش بين الاشتعال وعدمه. أطفئه بنفخة. تتفاقم رائحة الغاز والاحتراق لوهلة، ثم تضعف شيئًا فشيئًا وتتبدد داخل الهواء الداخل من الباب المفتوح. تزداد الكلمات الموجودة في ذاكرتي. تزداد، وتصطف كأنها تصوغ أفكارًا. مرة أخرى أجدني في الردهة. تنظر إليّ الأسقف ذات القرميد الأحمر فيما تصدر أزيزًا تحت الشمس اللّاهِبَة.

هل يمكنني اليوم أن أعيش في هذه المدينة المهجورة التي أمضيتُ فيها يوم أمس! هل من حيلة للخلاص منها! أفكر في أن أكرر نفس ما قمت به من أشياء في البارحة. أطوي فراشي وأضعه في خزانة الملابس، ماذا لو توجَّهتُ إلى الطاولة، وقلّبتُ صفحات كتب الشعر، عساي أجد فيها بصيصًا من الأمل. الطريق؛ أعرفه، وعليّ أن أنتظر حلول ظلام المساء حتى أستطيع رؤية المسافرين.

لعل الحيلة الوحيدة هي انتظار حلول المساء، واللحاق بأول ركب للمسافرين ومغادرة هذه المدينة. يخيل إليّ أن الانسياق وراء المجهول أفضل بكثير من العيش في هذه المدينة المكونة من مئات البيوت الشاغرة. بيد أني مضطر اليوم لأن أعيش هنا. لم أكن أنتوي الخروج قط من الدار، والمضي إلى وسط المدينة والبحث عن شخص ما. أعلم علم اليقين أن هذا البحث لن يجدي في شيء. فأنا أعرف البشر، لا وجود لسواهم من الأحياء هنا من الأصل. لو كان هناك شيء لكشف عن نفسه وما انتظر حتى الآن. معلوم هو الموعد الذي سيجيء فيه البشر، ومعلوم الطريق الذي سيمرون منه.

أنتظر.. أنتظر حلول المساء، لكن كيف؟ والزمان يطول ويطول، ولا تزال الشمس معلقة فوق سطح المنزل منذ ساعات. وكأن الزمن قد توقف. هل سُكُون الشمس إشارة على توقف الزمن! ليت الشمس تذهب وليت الظلام يهبط كي يأتي المسافرون. بمجرد أن أرى المسافرين، سوف أرمي نفسي بينهم. أراني الآن أبالغ في التركيز على هذه الفكرة علّني أنجح في تحقيقها. أركز أفكاري على المسافرين. إذا ما خالطتُهم فربما أعرف واحدًا منهم، فتفتح في ذهني نافذة على الماضي. يبدو أن البشر في هذه المدينة رحلوا في غابر الأيام، وشادوا لأنفسهم مدنًا أخرى. فيما يمر الآن من هذا الطريق القادمون من مدن مختلفة.

أهذه هجرة؟ إلى أين وما سببها؟ أهو هروب متواصل أم انتقال مؤقت؟ هل هناك عودة أم لا؟ ما الفرق إذًا؟! لو ظفرت بإجابة على كل هذا فما الذي سيتغير؟! المدن الجديدة والمدن القديمة... لا معنى لانشغالي بهذا الأمر. عليّ أن أفكر في الانخراط في صفوف المسافرين ليس إلا. إنّ ما يسوقني إلى الجنون هو أنني لا أستطيع أن أهتك ستر الماضي. أعلم كل المفردات، أعرف الأشياء، لكن لا يمكنني أن أقيم علاقة بين المفردات المتناثرة في عقلي. فضلًا لا أستطيع أن أعي دلالاتها، وأظل متحيرًا أمام مفردات جوفاء مجردة.

أدرك أن هذا تغيير واضح كل الوضوح، يطوقني ويحاوط محيطي. أهي قوى خفية؟ هل هناك ثمة أشياء لا تُرى؟ وما هي الأشياء المرئية؟ وتلك الأشياء غير المرئية؟ هل تتداخل المتناقضات؟ حينما تتحد المتناقضات، تُرى أي عاصفة تغيير تهب؟ عليّ أن أذهب وأجلس إلى الطاولة، وأنتظر قدوم المسافرين. وإلا فقد أسقط في مأزق آخر.

2

جالِسٌ إلى طاولتي، لا أشعر بالجوع ولا أخشى الوحدة. أناضلُ من أجل حياة ضارية، كل ما أبغيه أن أبلغَ المساء وأرى المسافرين، أشعر بنسمة لطيفة تداعِبُ وجهي. لا بد أن الشمس قد غابت وراء الأفق. نظرت إلى الطريق؛ كان ظليلًا. أشعر بهياج يخالطه فرح: فرح الحياة والتوق للقاء البشر الذين يغذونها.

رائحة غبار، أركّز! وقع أقدام، يتملكني خوف؛ أهو خوف؟ أم فرح؟ لا أدري. أقف على قدمي وأنحني على الطريق ساندًا يديّ على الطاولة. لا بد أنها إعادة لمساء أمس. نعم نعم! ها هم المسافرون. ها هم البشر قادمون على طول الطريق. إنهم يقتربون أسفل نافذتي. العيون والجباه في ظلام القبعات من جديد. يبلغ اهتياجي ذروته. لا وقت عندي لانتظارهم حتى ينتبهوا إليّ. عليّ أن أنطلق في التو واللحظة وأنخرط في صفوف المسافرين دون تردد ولا تقاعس، فقد عزمتُ على القيام بذلك. أنطلق إلى خارج الغرفة. كان آخر صوت سمعته هو صرير درج السلم الخشبي. ألوذُ بالفرار من المنزل. أهرب من هذه المدينة. سوف أنضم إلى المسافرين. وأهرب من الوحشة. وفوق هذا أهرب من ذاكرتي التي فقدتها سعيًا وراء تكوين ماض جديد. إنني أفرُّ من نفسي أملًا في العثور على نفس جديدة.

أقف عند حافة الطريق تمامًا. يتدفق تيار المسافرين أمامي. لا ينظرون إليّ. أنحني كي أستطيع رؤية أعينهم التي يحجبونها تحت قبعاتهم. ينتابني الهياج من توقع رؤية شخص أعرفه بين هؤلاء. أدققُ النظر فيهم؛ كلهم متشابهون، وكأن كومة من جذوع قد خُلعت عليها الملابس، وأخذَت تمضي منجرفةً مع السيل الجامح. أنظر إلى البيوت الموجودة حولي؛ لا ضوء ولا صوت... إن قضاء يوم واحد في مدينة كهذه من شأنه أن يصيب المرء بالجنون. من الممكن العيش لأيام في مكان مهجور، أما المستحيل فهو العيش في مدينة خالية تمامًا كهذه. لا أودُّ التفكير في هذا الأمر. عليّ أن أمتزج فورًا مع السيل البشري الذي يتدفق أمامي. للحظة يساورني الشعور بأنني على وشك الانجراف في سيل جامح. ولكي أتخلص من هذا الشعور أسدل بدوري القبعة على عيني شأني شأن هؤلاء، وأصيح:

- من أين جئتم؟

صمت.

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

لا إجابة.

- هل أنتم من أهل هذه المدينة؟

وقع أقدام. صمت كالموت مع وقع أقدام رتيب. أنصت فيما أحبس أنفاسي؛ صمت وسكون. الرؤوس محنية دومًا إلى الأمام، والعيون مغطاة بالقبعات. يمضون ويمضون. يتحركون وكأن كل الأقدام قدم واحدة، حتى ظننتُ أنهم لا يدركون وجود الآخرين. عيونهم على الطريق، ينساقون وراء قوة ما، وكأنهم منوَّمون مغناطيسيًّا. يوشكون أن يرتطموا بي. أقترب منهم أكثر، أحاول أن ألمسهم. تُرى هل هم جيش من الأشباح! أمدّ يدي إليهم بخوف، أتحسسهم. أجل.. إنهم بشر حقيقيون. يمكنني سماع أنفاسهم. لكن لِمَ لا ينظرون إليّ؟! يشتد غيظي ولا أستطيع كظمه، أنفثُ تجاههم أنفاسي الحارقة. أصرخ بجماع[3] قوتي:

- من أنتم؟ أي قوة تسوقكم بهذا الشكل؟

لا يمكنني الظفر بإجابة. رغم أن مسافري أمس كانوا قد نظروا إليّ، حتى إنه قد دار بيننا حديث هادئ. ورغم أنني لمست هؤلاء وصرخت في وجوههم، لم أظفر بأي رد. أي رد؟! إنهم لا يحركون ساكنًا من الأساس. هل أنا من تغير؟ أم المسافرون؟ قد يكون كل شيء يبدأ وينتهي لديّ. أمسِ فيما كنت أتحدث مع المسافرين أحسستُ بأنني بين النوم واليقظة. ربما كان ما رأيته أضغاث أحلام، أو خيالات. أنا الآن بكامل حيويتي، وها أنا ذا أستطيع أن أتحسس المسافرين بيدي. أدرك وجودهم وأشعر بحرارة أنفاسهم. يعتريني هذه المرة حنق متعاظم بسبب هذا الحادث، لا سبيل إلى التملص منه. ويظل يصطرع بداخلي حتى يفتر بعد قليل.

لا طاقة لي بتحمل العيش ليوم آخر في هذه المدينة الموحشة الخالية من البشر، بل الخالية من أي كائن حي. لا معنى للتردد. إن القرار الأول دومًا هو الصواب. إنني مضطر للانضمام إلى هؤلاء المسافرين ومشاطرتهم الحال نفسها. طالما بقيت هنا من الممكن أن أفقد ذاتي. لو أنني مع البشر لدى زوال ستر الليل، أستطيع أن أراهم من كثب، ويتأتى لي أن أستنبط شيئًا من بريق أعينهم. وهكذا أستطيع الخلاص من المأزق الذي وقعتُ فيه وأكبح كل الهواجس والمخاوف. وبهذه الأفكار رحتُ أسير دون وعي إلى جوار المسافرين. وبعد فترة تركت نفسي داخل هذا السيل البشري.

وقع أقدام، ورائحة غبار، وبشر. أستطيع أن أسمع أنفاسهم. خبأتُ عيني بطرف قبعتي، إذ لا أريد أن يروها. عيوني باستمرار على الطريق. أتوحد معه مجددًا. وبعد فترة أحس بداخلي بنزوع لا يُطاق؛ هو رؤية وجوه من يتدفقون من جميع الجهات من حولي. أوَلَا يشبهونني؟ أتحلى بالشجاعة، وأنظر يمنة ويسرة وإلى الأمام. ألا ليتني أستعيد ذاكرتي المفقودة حتى أستطيع رؤية ذلك المنزل الذي أمضيت فيه يومين مضطربين قلقين. أتراني لم أتحرر منه حتى الآن؟! إنني ألمح في الأفق بصيص أمل يلوح أمام ناظريَّ، وآلاف الأشياء والذكريات من ماض بعيد. أجل، في الخلف وحدة، وفي الأمام زحام. أرغب

مجددًا في أن أتحسس السائرين إلى جانبي. ألست بقادر على لمسهم! لمستهم، لكن دون أن أخالطهم؛ إن أعزائي البشر أناس حقيقيون. ماذا لو تحدثتُ معهم. لكنهم لن يفهموني! لعلنا لا نتحدث اللغة نفسها. يغمرني شعور مفاجئ بالارتياح. ثم يتملكني الخوف من جديد؛ هل هم صم! وما أهمية هذا. ألا يكفي أنهم بشر؟ لكن عليّ أن أجرّب. أقول بصوتٍ عالٍ في جميع الجهات:

- متى نصل إلى المنزل؟ متى بدأ المسافرون الأُوَل الرحلة؟ وما ترتيبكم بين القوافل؟ متى ستنتهي هذه الرحلة؟ وهل أتاكم خبر أسلافكم؟ هل ثمة عودة من هذه الرحلة؟

أصمتُ وأنصت، لكن لا رد من أحد. رحتُ أتحدث من جديد:

- لِمَ لا تردون؟ ألا تفهمونني؟ أم إنني لا أستطيع سماع ردكم؟ أم أن الصمت والسكون سمة هذه الرحلة؟! أين بداية هذا الطريق؟ هل أنتم من نفس المدينة التي انضممتُ إليكم فيها، أم إنكم قادمون من مدن أخرى؟ هل يوجد أمامنا مدن أخرى خاوية؟ وهل تفرغ المدن كي تتمكن من تغذية نهر المسافرين؟ لو كان الأمر كذلك، فهل يمحو هذا الطريق كل مدينة يمر بها؟ هل تزدادون عددًا فيمَ أنتم قادمون؟ أم تزدادون بينما ترحلون؟ هل تطيقون تحمل ما تحملته خلال هذه الرحلة؟ هل سافر أهل البلد جميعًا أثناء نومي؟

يسود الصمت. أنا المتحدث الوحيد، وأنا المستمع. يكفي هذا القدر من أجل العيش. يستحسن أن أواصل الحديث؛ فربما يتظاهرون بعدم الفهم. هل يصح هذا القدر من الجمود والتبلد؟! لا تزال الكلمات تنصَبُّ من ذاكرتي فوق المسافرين. بعد فترة يصيبني التعب من كثرة الحديث.

صرت غير عابئ بمن هم بجانبي. أسير صامتًا مثل الجميع. يملأ وقع الأقدام والأنفاس دنياي. لا أنظر حولي ولا أتطلع إلى السماء. تعودت بدوري على قواعد وأصول السير. نسير في بطء وصمت كأننا في موكب جنائزي، يُثقِل كاهلنا نعش، كأنما نحمل فوق كواهلنا جثمان السنين الخوالي. نحمل في هذه النعوش ذكريات نسيناها، وكتابات عجزنا عن فك طلاسمها، والمدن الخالية تمامًا. أعلم أن جميع المسافرين سواء. إننا حتى لا نفهم بعضنا. ربما أيضًا لا يرى بعضنا الآخر. هل سنبدأ حياة جديدة تمامًا حين ندفن هذه التوابيت في مكان ما؛ حياة ليس لها ماض! حياة تلتفت دومًا نحو المستقبل لا الماضي؟! هل سيتبدل الخوف والوحشة واليأس إلى أمن وزحام وأمل؟ هل ستتحول المدن الخالية تمامًا إلى مقابر، وتصير المقابر مزدحمة نابضةً بالحياة؟ ثمة أسوار حجرية تعترض أفكاري دومًا؛ أحجار صلبة تشتت كلماتي.

أيتها الكلمات! عبّري عن مكنون عقلي. فُكّي القفل المعلق بذهني. أود مواصلة هذه الرحلة حتى منتهاها. وسأتحمل كل شيء. تريد التساؤلات والشكوك أن تحطم قوة احتمالي. سأقاوم. المسافرون والطريق وأنا؛ كلنا متماثلون، لا فارق بيننا. ولا نستطيع أن نفترق عن بعضنا.

أنظر إلى الطريق: إنه يظلم تدريجيًّا، ويطول باستمرار. إنه ليس طريقًا، إنما مجرى سيل يحمل البشر. قبعات سوداء، ووجوه مكفهرة، وجه الأرض يلفه الظلام شيئًا فشيئًا. تداعب برودة الليل وجهي. أصوات وجلبة تملأ أذني. يهبط الظلام علينا من جانبي الطريق. لا يمكنني فهم أي شيء على الإطلاق، كأننا نسير أعلى جبل تحيط به هاوية.

تتضوع رائحة أشجار الصنوبر في جنبات المكان.. أمِن غابة نمُرُّ؟ يترامى إلى مسامعي جلبة أسمعها لأول مرة بدلًا من أصوات الطيور وأنات الحشرات. أشعر كأن فروع الصنوبر تحتك بأكتافي، لكنني لا أستطيع أن أرى شيئًا قط. يخطر ببالي أن أرفع رأسي وأنظر. لكني لا أستطيع. لقد استحوذ الطريق على عيني. أود ألا ينتهي. أود ألا تعترض الغابات طريقنا. ما زال البشر بجانبي. لو انتهى الطريق وفقدتهم، ربما تكون العاقبة وخيمة؛ طريق بلا نهاية ورحلة أبدية، لا بد أن تكون أفضل بالنسبة إليّ.

يهوي نعش أمامي، ها هو ذا جثماني. لا أرفعه من الأرض، أتركه حتى يسحقه المسافرون تحت أقدامهم. أتسمَّر عند رأسه. وكأن الحِمْل الملقى على كاهلي قد انزاح بسقوطه على الأرض؛ سُحق تحت أقدام المسافرين هذه المرة، هل يمكن أن ينزاح ذلك الحجاب الذي يخفي ماضيّ؟ يراودني الأمل. تتساقط النعوش على الطريق واحدًا فواحد؛ حتى البشر لا ينظرون، إنما يقفزون من فوقها ويمرون. أما أنا فأنتظر عند رأس جثماني. تراودني رغبة في البكاء، لكن أين عاطفة البكاء؟ لا أستطيع أن أتذكرها. ليتني أستطيع أن أفرغ الوحشة التي بأعماقي على الطريق في وابل من الدموع، وأغسل البشر بمطر الرحمة.

أيها المسافرون، اسحقوني! اسحقوني! اسحقوني! أتوسل إليكم أن تلمسوا جثماني ولو بأقدامكم. أليس هذا الجثمان جثماني؟! أود أن أفهم. لكن لا أحد يعيرني اهتمامه. أنكبُّ فوق جثماني؛ يمضي البشر على جانبيّ مسرعين.

وقفتُ على قدمي ونظرتُ، ما زال جثماني يتمدد بطوله. أما أنا فأتسمر عند رأسه. جثماني لا يرتدي قبعة، وقميصه مفتوح حتى المنتصف. شعره مشتت. يستلقي أمامي على ظهره. عيناه جاحظتان كأنهما ستنطلقان من محجريهما. أنظر إلى أعماق عينيه، ترتسم ابتسامة فوق شفتيه. أبتسم بدوري. طاش صوابي للحظة، فانقضضت على جثماني، وانهلتُ عليه ركلًا بجنون! يبتسم دومًا دون أن يطرف بعينيه. أوسعه ركلًا، لكنني لا أتألم. أهذا جثماني؟ ربما نعم! وربما لا! أركلُ صدر جثماني على أمل أن أحس بالألم، لكن لا يحدث شيء. إذًا ما حدث هذا، يخيل إليَّ أنني أستطيع التحدث مع نفسي. حينئذٍ أستطيع أن أتخلص من ارتباطي بالطريق والمسافرين. على الأقل يمكن أن أوجّه نفسي، وأجد معنى لذاتي. المسافرون والطريق وأنا؛ يتمدد جثماني

أمامي. إذا كان هذا جثماني، فإنني أستطيع أن أحمله على التحدث. سأسأله عن أيامي السابقة على الوفاة: أي سوف أحمله على أن يحدثني عن ماضيَّ.
بصيص أمل يلامس قلبي، أبذل ما في وسعي كي لا أخمد بصيص الأمل هذا. يجب ألا يخمد هذا البصيص، بل يجب أن يتعاظم. تحدث أيها الجثمان الذي لا يرتدي قبعة تحدث! أيّ منّا الحقيقة؛ أنت، أم أنا؟
أخيرًا أسفرتْ مساعيَّ عن نتيجة. نجحتُ في مسعاي، نجحتُ؛ ورحنا نتجاذب أطراف الحديث. يقول جثماني:
- لِمَ لا يعبأ بنا هؤلاء؟
أقول:
- ما دخلهم بنا. يكفينا نحن أن يفهم واحدنا الآخر.
- هل نواصل طريقنا؟
عندئذٍ أحاول القيام، وأطأه بقدمي، وأقول:
- أي طريق؟ لو أطلنا الحديث أكثر سيمكننا أن نحل بعض الألغاز، لو لبثنا للصباح وطلعت علينا الشمس فقد ينقلب كل شيء رأسًا على عقب.
- هل تريد أن تقول إنه طريق خالٍ تمامًا؟ يشبه تمامًا المدينة التي هربتُ منها؟
- أجل أجل، لا طاقة لي بتحمل هذا الشعور بالوحشة مجددًا.
- الأمر بالضبط كما تقول... لن تستطيع أن تحتمل معايشة تلك الوحشة... ليتني أبدأ في الحديث الآن!
- هلا تحدثتَ؟ خبرني، خبرني بالمزيد.
- لا يمكنني أن أخبرك بأكثر من ذلك، لأنني أنا أيضًا لا يمكنني معرفة شيء. والشيء الوحيد الذي أعرفه هو الرحيل فورًا. انظر، ها هم أولاء المسافرون يتناقصون، والحمرة بادية في الأفق.
رفعت عيني؛ حمرة في الأفق... صحتُ والخوف يتملكني:
- الشمس!
فقال جثماني:
- الأرض تجهز عليّ.
وأردف:
- وتضربك أنت أيضًا بشدة.
فجأة ينهض جثماني، ويأخذ بذراعي ويجذبني. نسير الآن مع المسافرين بذات الإيقاع، ويتحدث جثماني فيقول:
- اسمعني الآن جيدًا، ولا تسلني عن أي شيء قط. ولا تشغل بالك بما أقوله حتى تفهم. اسمعني فحسب، وانقش ما سأقوله في ذاكرتك.

وتوقف فترة، وتلفت حوله. تطلع مليًّا إلى السماء وأنا أكتفي بمراقبته. تنهد تنهيدة عميقة، وواصل حديثه:

- في قديم الزمان وغابر الأيام كان ثمة وَلِيٌّ يعيش هنا في هذه البقاع. ولم يكن يترك فرصة إلا ويؤكد ويشدد على أن أقدس مكسب بالنسبة إلى الإنسان هو كد يمينه. وكان كذلك ينصح من حوله بألا يكونوا عالة على غيرهم. وكان يوضح أن الإنسان الحق يجب أن يكون صاحب يد تمنح لا يد تأخذ، وأن اليد التي تمنح تكون دومًا هي العُليا، وأن الإيمان إنما يكتمل بهذا فحسب، لأن اليد التي تمنح فقط هي التي تستطيع أداء ركن الزكاة في الإسلام. وحدث أن مرض هذا الولي، وتحلق حوله مريدوه، فتبسم في وجوههم وطلب إليهم أن يتركوه بمفرده فترة. وأومأ إلى الدرويش الذي كان يراه الأقرب إليه حتى يبقى. ولما خرج الجميع أجلسه إلى جواره وقال له:

- سأوصيك بوصية. إنني سأموت بعد قليل. إياك أن يبكيني أحد. ولا تمسحوا بأيديكم على جثماني، وانتظروا، فسوف يأتي فارس فوق جواد أبيض. إياكم أن تسألوه عن أي شيء قط. سوف يغسلني ذلك الفارس ذو الجواد الأبيض، ويكفنني، ثم يقيم عليّ صلاة الجنازة، فاصطفوا خلفه أمام نعشي بلا تردد. وسوف يواري هذا الشخص جثماني التراب، ثم يمضي لحاله. وأكرر: إياكم أن تسألوا ذلك الفارس ذا الجواد الأبيض عن أي شيء.

ظل الدرويش واجمًا مذهولًا. وحينما استفاق أوشك أن يسأل عن شيء ما، لكن سرعان ما أسلم شيخه الحبيب الروح، فأنبأ الدرويش الحاضرين بالخارج بما حدث. وتحلق الناس حول جثمان الولي، وأذعنوا جميعًا للوصية؛ لا بكاء ولا نحيب قط. وسرعان ما حضر الفارس ذو الجواد الأبيض، ونفذ ما قاله الولي بحذافيره، وبعد أن أودع الولي القبر وأهيل عليه التراب، امتطى الرجل صهوة جواده دون أن يتفوه بكلمة لأي شخص، وعاد من حيث أتى. وتذكر الدرويش الذي كان قريبًا من الولي أنه لم ير وجه الفارس ذي الجواد الأبيض، فأسرع يتعقبه. وكان يود أن يعرف على الأقل من يكون ذلك الفارس. وأخيرًا لحق به. ورأى الفارسُ ذو الجواد الأبيض الدرويشَ يجري وراءه، فهدّأ من سرعته حتى يسمح له باللحاق به. وحينما دنا الدرويش منه قال الفارس:

- أين وصية الولي؟

تعجب الدرويش إزاء هذا الصوت الذي يعرفه من كثب، وقال متلعثمًا:

- أردت فقط أن أرى وجهك.

فتبسم الفارس ذو الجواد الأبيض وقال:

- حسنًا، ما دام الأمر كذلك فانظر إلى وجهي.

حينما نظر الدرويش إلى وجهه، اكتشف أنه الولي الذي أودعوه القبر قبل قليل. فذُهل وتسمر في مكانه. وحينما عاد له صوابه التمس الصفح، ومسح

وجهه على قدميه. فرمق الولي الدرويش بابتسامته المعهودة وقال له بعد أن تحرر من دهشته وحيرته:

- ألم أقل لك دومًا إن على المرء ألا يكون عبئًا على الآخرين. ها أنت ذا قد رأيتَ بنفسك أنني لم أكن عبئًا على أحد منكم قط.

ثم أسرع يسوق جواده، وغاب عن النظر.

رأى جثماني أنني أدقق النظر في وجهه، فداعب وجهي. أكانت اليد التي لامست وجهي هي يدي أنا؟ أم كانت شيئًا آخر؟ حقًّا لم أستطع أن أفهم هذا. وواصل جثماني حديثه قائلًا:

- ها نحن أولاء نسلك معًا الطرق التي سلكها ذلك الولي. الفارق بيننا أن الولي كان قد وجّه جثمانه بنفسه. أما أنت فلا يمكنك السير إلا بمساعدتي. وفوق هذا يمكنك أن تواصل وجودك بيّ.

وقفت مذهولًا هذه المرة بدرجة فاقت ذهول الدرويش. ونظرت إلى وجه جثماني الذي ساقني وجاء بي. نعم إنه وجهي أنا. تبادل وجهانا الابتسام، وأردف:

- لا تسلني الآن عن أي شيء، فلستُ أطيق أن أخبرك أنك سوف تقوم على خدمتي ذات يوم.

توقفتُ، لكن جثماني ظل يسوقني. نظرت إلى وجهه. نعم، إنه وجهي، إنه يتبسم لي. للحظة رأيت نفسي بين ذراعي جثماني، وشعرت بحرارته. وفيما أهُمُّ بمعانقته، إذا بذراعي تعانق الخواء. لقد رحل جثماني، لكن إلى أين وكيف رحل؟ هذا ما لم أستطع أن أراه. استعر الخوف والفزع في قلبي فجأة. أدركت أن جثماني قد استقر في قلبي.

أمضي يجرفني السيل البشري بداخله، دون أن أتبين ما يحدث. الآن، لا أرى إلا بشرًا ليس إلا. لا وجود لنعوش، ولا جثامين... ولا وجود أيضًا لأفرع شجر الصنوبر المحنيّ فوقنا على الجانبين، والذي كان يلامس أكتافنا. نتقدم في سهب لا حدود له. ينبلج الصبح وتنير جنبات المكان شيئًا فشيئًا، وتبدأ كل الأشياء تنجلي وتتضح. كأنني رأيت حمرة الشفق قبل قليل. حمرة سرعان ما تتحول إلى بياض، ثم ضياء. نمضي نحو الضياء الذي يتكشف ويتضح بالتدريج.

هذا اللفظ استخدمه كثيرًا نجيب محفوظ.

3

اكتمل انبلاج الصبح في المكان أو كاد. يمكنني الآن أن أرى الطريق والمسافرين بوضوح بالغ. الطريق هو نفس الطريق. الطريق الترابي الذي جهدت إلى رؤيته بكافة تفاصيله على مدى ليلة ويومين. ينصب انتباهي على المسافرين الذين لم أستطع أن أراهم من قبل خلال النهار: إنهم يرتدون جميعًا قبعات وسراويل وينتعلون أحذية سوداء. ألوان قمصانهم فحسب هي المختلفة. إنها، بقدر ما أرى، يغلب عليها اللون الأزرق. لذا فإن زرقة القميص الذي أرتديه هي مبعث سرور لي. ولما كان الأمر كذلك فإنني أمضي وسطهم بمشاعر جياشة. لا أحد يفطن لوجودي. مع ذلك لن يظهر جثماني بعد الآن. فلو لم تكن هذه الملابس عليّ لكنت عاريًا تمامًا. ولأنني لم أستطع أن أتذكر ذلك من قبل، فإن الملابس الوحيدة التي أعرفها هي تلك التي ارتديتها الآن. أعي الآن فقط أنني قد أكون قبلت القيام بالرحلة يوم اخترت هذه الملابس. في الحقيقة، لست أنا من اختار هذه الملابس؛ إنما وجدتها أمامي حينما استيقظت.

تموج الأجساد أمامي وحولي. رأيت أننا توقفنا. لم أكن أتوقع هذا التوقف المفاجئ. لقد حدث بغتة. انتهى النهر إلى بحر عظيم. هل هناك أنهار أخرى من البشر تصب في هذا البحر المترامي الأنحاء؟ ربما، لكنني لا يمكنني رؤيته. لبثتُ في هذا الخضم البشري شأني شأن الآخرين. وكأن الثرى فخ، كأن الأقدام انغرست في الرمال الموجودة في قعر البحر البشري. استحال الموج إلى سكون، لا حركة قط. لم تكن هذه الحال جراء التعب؛ فأنا لا أستطيع أن أرى علامات إرهاق بادية عليّ أو على هؤلاء المحيطين بي. يطول الصمت. ينتشر البشر في كل مكان. لكن يطبق عليهم الصمت ويلفهم السكون. وكأن قدميّ قد توحدتا مع الأرض. أنتظر وكلي آذان مصغية. يسود صمت تام؛ انقطع وقع الأقدام منذ زمن. حُبست الأنفاس أو كادت. ربما ستنقطع الأنفاس كليةً. أرهف السمع أكثر وأنا أحبس أنفاسي، صمت تام. حيرة وذهول. جلبة وضجيج، يتعالى ويزداد شيئًا فشيئًا. يخرج نفس حارق من رئتي يختلط بالهواء. يخيفني كون نفسي حارقًا بهذا القدر، ويهبط صدري ويرتفع سريعًا. أخشى أن أسمع أنفاس من حولي وخفقات قلوبهم. أنظر بخوف وقلق؛ لا تغير قط يطرأ على المحيطين بي، إنهم يتسمرون في أماكنهم بلا صوت ولا حركة.

أرفع طرف قبعتي، وأسعى لتمشيط محيطي بمزيد من الدقة. أرى المشهد أمامي: سهلًا مستويًا يملؤه آلاف البشر. جلبة وضجيج، يتعالى تدريجيًّا. ألا يمكنني التمييز بين الأصوات؟ أم أنني فقدت القدرة على الإدراك؟ ومَنْ حولي دومًا بلا صوت بلا حراك. تتعالى الجلبة والضجيج شيئًا فشيئًا. أقترب من

الجنون. أبحث عن عيون البشر حتى لا أسقط في هوة الوحشة التي توشك أن تطوّقني. إنني أكثر الناس شعورًا بالوحدة. من أين تبادرت هذه الكلمة إلى ذاكرتي؟ أتململ لكي أحفز المزيد من التراكيب المشابهة؛ إذ ربما تنفرج حينئذ الستائر التي تحجب ماضيّ. العيون! ليتني أراها ولو لمرة واحدة. أُسدلت أطراف القبعات السوداء فوقها كستار سميك. رفعتُ طرف قبعتي عن عيني. ها هي ذي ظاهرة. قبعتي منزلقة على قفاي، ونظراتي مصوبة على البشر. فجأة، تنسدل ستائر سود على عينيّ؛ أرتاع، ويطبق عليّ الصمت. هل كُفَّ بصري؟ أعاود النظر، أرى ستائر سودًا. انتهى الطريق إلى بحر بشري؛ وانتهى البحر بستائر سود، تحتل ما بين السماء والأرض.

أين الأفق الذي انبلج فيه النور! أين الشمس المتبسمة! أين كل هذا! كأني أرى هذا كله عند نهاية الطريق. حجبَت الستائر السوداء كل شيء. وحتى ولو تخلصت العيون من أطراف القبعات، فإنها لا تستطيع أن تنفذ من الستائر السوداء. هناك منازل فيما وراء الستائر. أستشعر هذا. ربما شاهدته، أو كدتُ. والآن يتردد صدى كلمات في عقلي: **المنازل ذات الستائر السوداء**.

مئات البشر بيني وبين المنازل. أعينهم جميعًا مصوبة نحو الستائر السوداء. قبل قليل لم يكن أحد قط بيني وبين الستائر. أين المنازل ذات الستائر السوداء! هل هي في قمة! أم في سهل! أم في قاع هاوية؟! رفع البشر أبصارهم ينظرون إلى المنازل ذات الستائر السوداء وكأنهم ينظرون إلى نجم أو قمر. أين أنا! أبعيوني أم بأفكاري أتطلع إلى المنازل ذات الستائر السوداء! أهي خيال أم حقيقة! يتغشاني شعور بالراحة؛ لعلها راحة ما بعد الموت. انقطعت الأنفاس، وجحظت العيون من محاجرها، وسقطت القبعات على مؤخرات الأعناق، فغرت الأفواه، امتدت الألسن وتدلت... هذا البحر البشري ميت أم حي! كل واحد من هؤلاء تمثال يرتدي ملابس... تماثيل رخامية جاحظة الأعين، فاغرة الأفواه. تحولت من جذوع مهندمة إلى تماثيل رخامية. هل تُغيّر التماثيل لونها من آن إلى آخر! هل أنا من يتغير! أم ما أراه وأشاهده! هل تحولت من جثامين تسير، إلى جثامين واقفة ومتحجرة الآن! جثماني.. أين هو جثماني! أين أولئك البشر الذين قدموا معي وملأوا هذا البحر البشري. كنت قد لمست السائرين، وشعرت بوجودهم؛ أذكر هذا جيدًا، غير أنني أخشى أن ألمس هذه التماثيل. أشعر ببرودة الرخام في أعماقي. يساورني الخوف، ويقشعر بدني. وقفت وسط التماثيل الباردة، أتطلع إلى الستائر السوداء. العيون التي تخلصت من رفارف القبعات متسمرة هذه المرة على الستائر السوداء. ليتني أراها ولو لمرة، ليتني ألتقي وجهًا لوجه ولو مع عين واحدة منها. ضوء النهار ساطع في كل مكان. أما أمامي فليل حالك الظلام. أشعر بأنني مرهق ومكدود. يسري هذا الشعور من مخي وحتى قدميّ. إنني متعب نفسيًّا وبدنيًّا. أرى الموت بداخلي. بينما كنت قاب قوسين أو أدنى من أن أظفر

بالخلود، إذا بي أضيعه من بين يدي. أريد أن أعيش. الآن أعي أنني أعيش. أتشبث بشدة بهذا الوعي. تثاقل رأسي، واحتقنت عيناي. أود أن أنظر إلى كل الجهات، وأطالع ما سيحدث. أقاوم. أتململ من أجل أن أرى ما أنظر إليه.

عيناي مصوبتان إلى حشد التماثيل الذي يملأ الساحة. أترقب حركة أو همسة. لو حدث شيء كهذا سأدرك أنني حي، وأنني لست بمفردي. وفي النقطة التي اختنقَت فيها آمالي بالمخاوف، تحرك أحد التماثيل الموجودة أمامي. أنظر إليه بدهشة وفضول وقد فتحت عيني عن آخرها. يبدأ التمثال في السير. وفيما أتأهب لأن أخطو خطوة نحوه، إذا به يسارع بالتوقف. نظرات جميع التماثيل، وعلى رأسها التمثال الذي سار منذ قليل، مسلطة على الستائر السوداء. أعرف أن هناك منازل خلف الستائر، ولكن كيف الوصول إليها؟! لا تسمح التماثيل التي تصطف حولي في كل الجهات بالمرور. وفيما كنت أفكر في هذا كله، وأبني الآمال للوصول إلى المنازل، عاد التمثال الذي سار منذ قليل إلى الحركة، وبدأ يسير. وفيما كان يساورني الفضول في كيفية مروره من بين التماثيل المصطفة في طريقه، بدأ يدفع بيده من هم أمامه. فتهاوت التماثيل التي لمسها وانقلبت على بعضها وأفسحت له الطريق لينطلق فيه.

أمعنُ النظر، فتغمرني السعادة والانفعال لرؤية واحد من بين الكثيرين الذين تحجروا وتحولوا إلى تماثيل وهو يخلص نفسه ويعود إلى الحياة ويتحول إلى إنسان مجددًا. ولا ينغلق الطريق الذي فتحه. إنه يفسح الطريق لنفسه ويتقدم نحو الستائر السوداء. وتقف التماثيل التي استندت إلى بعضها على جانبي الطريق.

وبعد فترة يصل الشخص الذي سار أمام الستائر السوداء، ثم يتوقف. خفقت الستائر، واختفى الشخص. ونظرًا لأن واحدًا من بيننا قد تحول مجددًا إلى إنسان وسار، وبلغ المنازل على الأرجح، فإنني أستطيع أنا أيضًا أن أفعل ذلك. حرّكت قدمي. وحينما رأيت أنني أستطيع الحركة، ملأت السعادة قلبي، وانطلقتُ صوب الطريق الذي انفتح أمامي. فأنا لم أكن قد تحولت، ولم أكن لأتحول إلى تمثال. إنني في كامل الوعي، لتكن لي ذاكرة، أو لا تكون لا يهم. تلاحقت أنفاسي وتسارعت دقات قلبي. لم يكن بمقدوري البقاء أكثر من هذا في هذا المكان. وفيما كان الطريق المهيأ مفتوحًا، كان عليّ السير فورًا. وكانت كل ثانية تأخير كفيلة بأن تقربني من التحول إلى تمثال. تمثال جامد بلا روح! جهدت في النظر إلى الطريق الذي جئت منه، وقد حولت رأسي إلى الخلف بخوف: في كل الجهات على مرمى البصر بحر من التماثيل. فجأة، يجول بخاطري أن أنتظر حتى يجن الليل، وأرى مسافرين جددًا يصبون هنا. كان هذا أمرًا بلا معنى ولا طائل من ورائه. فها هم من جاءوا من قبلي، ومن جاءوا معي، ما دخلي أنا بمن سيأتون فيما بعد.

قبل قليل رأيت واحدًا يتخلص من الجمود، ويعبر إلى ما وراء الستائر. لم يكن يساورني شك في ذلك، فقد رأيته بكل وضوح. يحدوني أمل واهتياج، خطوت خطوة بلا وعي، وتمسكت بالتمثال الذي أمامي وأنا أترنح. تنحى التمثال جانبًا على الفور، وأفسح لي الطريق. هل دفعته، أم أنه هو الذي تنحى من تلقاء نفسه! أكان ما لمسته رخامًا صلبًا وباردًا، أم بشرًا لينًا وحارًا! خطوتُ خطوة أخرى، فوجدت طريقًا قد انفتح أمامي. ضربت بما يصطرع بداخلي من هواجس وأفكار مريبة عرض الحائط، ورحت أسير في الطريق. كنت في هذه المرة أتقدم في الطريق بين التماثيل، وربما البشر الذين تجمدوا. وكان الهدف واضحًا هذه المرة: هو بلوغ المنازل الكائنة خلف الستائر السوداء. وكانت الرحلة بهذه الكيفية تشعرني بمزيد من الاهتياج.

أتقدم في الطريق الذي لا أستطيع الجزم بمن فتحه. كل مَن مر بهذا الطريق قبلي ساهم في فتحه، وقد أسهمت بدوري في فتحه حين أطحتُ بالتمثال، أو ربما بأكثر من تمثال. أسير في الطريق –الذي لم أستطع فك شفرته– قاصدًا هدفًا أنظر إليه ولا أستطيع رؤيته ولا تبيُّنه. تتقلص أسوار الخوف تدريجيًّا. تُرى علامَ يدل دفعي بنفسي خارج بحر التماثيل في هذا الوقت بالتحديد؛ حيث تحول الجميع إلى تماثيل ولبثوا في مكانهم! لكن أحدهم نجا من هذا البحر؛ رأيت ذلك بعيني. وربما هناك أيضًا من خرج من هذا البحر ومضى دون أن أشاهده. لو أستطيع المرور إلى وراء الستائر، لكان بإمكاني أن ألتقي هناك بأناس نجوا من بحر التماثيل ذاك، وبذلك يتأتّى لي أن أتجاوز الوحشة والخوف الذي ظللت أتخبط فيه منذ استيقظت. لا يمكنني أن أترك نفسي لأتحول إلى تمثال وأنا واعٍ بذلك. عليّ أن أرحل. هذا أفضل لي كثيرًا. فعلى الأقل، سيكون شعوري بأنيٍ بشر أفضل لي، حتى لو كانت عاقبته يسِمُها الخوف والظلام. ومن جهة أخرى، يداخلني شعور بأن جثماني كان سيخرج عليّ سريعًا.

أسير –وعلى غير إرادة مني– أتحسس التماثيل المصطفة على الجانبين. يستبد بقلبي فزع من تلك الآلاف من التماثيل الرخامية الباردة. أسير مرتجفًا في برودة رخام القرون الغابرة، والقرون اللاحقة. لا أستطيع النظر عن يميني ولا يساري ولا خلفي بالطبع. عيوني مصوبة على الستائر لا تفارقها. كأن أحدًا بداخلي يجعلني على استعداد لأن أطير، ويضبط سرعة خطواتي. يتراءى أمام عيني ما تراكم في ذاكرتي، منذ استيقظت في تلك المدينة المهجورة؛ ذكريات لا تتوقف، بل تزداد باستمرار. لا تزال الذكريات تنقسم وتتكاثر، تتوحد وتتعمق. من أين تبدأ الذكريات وأين تنتهي! يخيم الصمت والسكون على الدنيا. أشعر بارتعاشة في مخي؛ أفكار مذراة وذكريات مشتتة، ينسكب فيما بينها كل ما يصطرع في أعماقي من هموم، فتخف عني ويلاتها بالتدريج. وأمامي طريق تومض فيه بروق الأمل والشجاعة من آن إلى آخر. تتسارع خطواتي من تلقاء نفسها في هذا الطريق. وبعد فترة أجدُني وجهًا إلى وجهه مع الستائر السوداء،

فأتوقف. إنها ليست ستائر، إنما كائنات حية تتنفس وترتجف. وبمجرد أن أمد يديّ تنفجر سريعًا.

وحينما أنظر حولي ألاحظ أنني قد طُوّقت بالستائر السوداء. هل انتهيت إلى نقطة مسدودة! فركت عيني، وعاودت النظر؛ وجدتني مطوقًا من كل الجهات بالستائر السوداء. لكنني أستطيع رؤية جدار خرساني موجود أمامي. يقع بصري على باب مفتوح يتسع لمرور شخص واحد. يتوسط هذا الباب جدار خراساني عظيم، ويشبه تجويفًا يخترق الجدار. اقتربت من الباب؛ فداعبَت وجهي نسمة باردة وندية. تفغم أنفي رائحة رطوبة وعظام نتنة. هل أنا في مدخل مقبرة تحت سطح الأرض! من أين يخطر ببالي هذا الوصف! أهي مقابر أسفل سطح الأرض، أم أن النعوش التي سقطت من فوق أكتافنا على طول الطريق ليلة أمس، وجثامين الأيام الخوالي المحفوظة بداخلها، حملتها قوى خفية وتركتها هنا نهبًا للنسيان والعفن! لعلها تضم جثامين المسافرين. أم أن من ساروا إلى ما وراء الستائر وسقطوا في شرك الموت قد أُلقوا هنا. أم وُضع مكانهم تماثيل رخامية! الوجه المخيف للستائر السوداء يحاصرني بإحكام من الخلف، وفي الأمام نَفَس الخوف الرطب والمعفِن الذي يفوح برائحة الموت. سرعان ما جذبَتني إلى الداخل خطوتان خطَوتُهما على غير إرادة مني.

يسود ظلام دامس جنبات المكان. أنظر خلفي مرتاعًا، أرى ظلامًا كثيفًا مرتعشًا للستائر السوداء. ليلة خوف ظلماء حالكة السواد أتردى بداخلها في منتصف النهار. آلاف التماثيل أتركهم ورائي! لا يمكنني العودة من حيث أتيت، فهذا أفضل من التحول إلى تمثال. عليّ أن أذهب، عليّ أن أتقدم نحو المجهول وسط هذه المخاوف، فهذا أكثر جاذبية، أو –على الأقل– من الممكن أن يوجد هناك باب مفتوح على الحياة. فكرت في جثماني الذي سحقتُه في الطريق، والذي استمعتُ لأحاديثه الطويلة. حاولتُ أن أتخيل الشخص الذي قص عليّ خبره. سرت إلى الظلام الذي يكتنفه المجهول متحلّيًا بالشجاعة التي تبثها هذه الذكريات التي أدخرها بداخل قلبي.

أسير، وكلما تقدمت كان الظلام يسود أكثر فأكثر، لذا أمد يديّ في الظلام كيلا أرتطم بشيء ما. يداي هما كل شيء بالنسبة لي: عيناي، وأذناي، وإرادتي. بها أسمع الآن، وبها أمشي، وبها أفسح الطريق لنفسي. بت أؤمن بيديّ وأثق فيهما لا في غيرهما. تسري شجاعة من يديّ لأعماقي. شرارة صغيرة تبرق أمامي قد تغير كل شيء، ويمكنها أن تحولني إلى تمثال الشجاعة. تمثال! من أين خطرت ببالي هذه الكلمة أيضًا! كلا كلا، ليس التمثال وإنما الإنسان.. أتوق إلى الوصول إلى البشر لا التماثيل.

تحسستُ الأرض بقدمي، إنها تراب.. أسير في أرض ترابية. التراب لا يخدع، التراب هو الضمان الوحيد. من أين لي بمعرفة هذا أيضًا! فأنا من تراب. أتقدم. تزداد رائحة الرطوبة والعظام المنتنة تدريجيًّا. لو أشم رائحة التراب ولو لمرة،

فسوف أشعر بطمأنينة ما. أحس بضيق في رئتي، وتقلص في معدتي. وكأني كلما شعرتُ بأعضائي أستجمع شتات نفسي وأعود إلى صوابي. ترتعد فرائصي، تنشدُّ عضلاتي. أنا مضطر لأن أتقدم برغم كل شيء. تتبدى الآلام في يميني وفي شمالي. أشعر بسعادة لذلك؛ فكل الدلائل تناديني إلى الحياة. ينفتح أمامي باب جديد على الحياة أو يكاد. يعتلج في أعماقي الأمل والتوتر. تصارع يداي الظلام في الخواء، وتستمد قدماي الشجاعة من التراب. تستمر رحلتي على أرض ترابية لم أستطع رؤيتها ولا إدراكها.

شعاع من الضوء... يضيء أمامي. أنزل يديّ، وأتوقف. أخرج من الظلمات إلى النور. هل هو شعور جديد بالوحشة! أجد نفسي وقد بقيت وحيدًا من جديد. أستطيع أن أحطم طوق الوحشة الذي يطوقني في مكان مختلف كليًّا، وفي ظل ظروف مغايرة تمامًا وغير متوقعة. أجد في نفسي القدرة على ذلك، وتملؤني رغبة مفرطة في العيش منذ فترة.

أرفع رأسي، وأنظر إلى الناحية التي يجيء منها الضوء، حينئذٍ أستطيع أن ألمحَ مصباح غاز. إنه ذات المصباح الموجود في المنزل الذي استيقظتُ فيه! أعدو تجاهه وكأنني قد عثرتُ على شخص أعرفه. إنني في نقطة يمكنني فيها التعرف على الأشياء، ويمكنها أن تخلّص الإنسان من الوحشة. أعدو إلى مصباح الغاز الذي أعرفه. وكلما عدوت ابتعد المصباح. أهي مباراة في العدو ستدوم إلى ما لا نهاية! أتوقف لكي أنظر، المصباح في مكانه. حسنًا، لكن لِمَ لا يمكنني الوصول إليه! هل أنا ثابت وأحسب فقط أنني أعدو! هل هذا شَرَك! أعدو من جديد. تُرى هل أنا في المنزل الذي استيقظتُ فيه! أهذا شَرَك جديد! لا أستطيع تحديد الزمان والمكان. أعدو نحو مصباح الغاز الذي أعرفه، بيد أن المسافة التي بيني وبين المصباح لا تقصر. أعاود الكرّة، أعدو بجامع قوتي وعيوني على المصباح لا تفارقه. أخشى أن أفقده. هذا المصباح هو ملاذي الوحيد.

***

وجدتُ نفسي أمام سلم وقد تصببت عرقًا على نحو غزير. أشعر وكأن قلبي سيقفز من مكانه. تلاحقَتْ أنفاسي لدرجة بات معها واضحًا أنني لم أتنفس نفسًا واحدًا، لا شهيقًا ولا زفيرًا. أرخيت عضلاتي، وحاولت تنظيم أنفاسي حتى تجاوزت خطر الاختناق. وبعد لحظة استراحة لم تطُلْ، رفعت رأسي ونظرت. هل السلم خشبي، أم خرساني، أم رخامي؟ المصباح معلق على رأس السلم. حاولتُ أن أقيس المسافة التي تبدو قصيرة للغاية لكنني لم أستطع أن أقطعها بأي حال من الأحوال. كنت قد اعتقدت أنني لا أستطيع الوصول إلى المصباح. كان الوصول إلى المصباح الذي صرت قاب قوسين أو أدني منه هو شاغلي الشاغل هذه اللحظة. صعدت بضع درجات، وها أنا ذا بجانب المصباح. حتى إنني أستطيع سماع أزيز فتيله المشتعل. تفوح رائحة احتراق ممتزجة

برائحة رطوبة وعظام نتنة. وثمة رائحة غاز تزداد شيئًا فشيئًا. إن رائحة الغاز هذه مألوفة لي. أملأ بها رئتي وأفعمها بها.

أتسمرُ في مكاني وعيوني مسلطة على المصباح، أستنشق رائحة الغاز. أشعر ببرودة حبات العرق التي تنضح بها جبهتي. وبنزول العرق على عينيَّ منسابًا من أعلى حاجبيّ، تلتهب عيناي بلهيب ملحه. أفرك مقلتي وجفوني الملتهبة بيديّ. جسدي مبتل تمامًا. وكأني قد أنهيت سباقًا طويلًا، وقد كُلِّلت في نهايته بالنجاح.

أشعر ببرودة تسري من رأسي إلى قدميّ. لا بد أن يبرد عرقي. يتناقص الظمأ الذي يحرق جوفي تدريجيًّا بفعل برودة عرقي. أتنفس وأحاول أن أكتسب القوة من جديد. لم يعد هناك معنى للسباق مع الزمن. ليوجَد الزمن خارجي وليفعل فعله. فقد ظفرت بالمكان على أي حال. وهكذا مددت يدي بين الزمان والمكان. مسحت بظاهر يدي –لا بل بكُم قميصي– حبات العرق الأخيرة المتراكمة على تجاعيد جبهتي، ونظرت إلى السلم. الآن أستطيع أن أدرك بشكل أفضل؛ درجات السلم الخرسانية المعتمة تلتمع في ضوء مصباح الغاز الأصفر.

تباطأتْ أنفاسي، وتباعدتْ دقات قلبي. تنفست بعمق لكي أنفض من داخلي آخر بقايا التعب. جلتُ بناظريّ للمرة الأخيرة في السلم من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل. كان بمقدوري أن أصعد هذا السلم في ثلاث قفزات. بيد أني وددتُ هذه المرة أن أتحرك ببطء وتؤدة، فكرت في أن أصعد وأستريح على كل درجة، وسرعان ما هممتُ بالصعود. وعندما وصلتُ أمام مصباح الغاز، نظرت خلفي بدافع من الفضول إلى معرفة إن كان هناك من يلاحقني. ثمة ظل يمتد على المساحة التي يُضيئها المصباح. نظرت فزعًا: إنه ظلي. ابتهجت؛ إذ كنت أرى ظلي للمرة الأولى. كان جثماني قد ضاع فيّ. ولكن ماذا سيكون ظلي! وراء ظلي ظلام دامس. عبرتُ من داخل هذا الظلام وجئتُ إلى هنا. لا يزال الصمت والسكون يخيمان على أرجاء هذا المكان. يتردد صوت في أعماقي: تقدم إلى الأمام، دومًا: تَقَدَّمْ إلى الأمام. هل سيمكنني رؤية الشخص الذي فتح لي الطريق. أظن أنه هو الآخر وصل هنا، مارًّا بالكثير من الاختبارات العسيرة مثلي. لكن أين هو الآن! أظن أنه وصل إلى المكان الذي ينشده. لا أود أن يساورني أدنى شك في هذا الخصوص؛ أمضي في السير، يحدوني الأمل واليقين، في الضوء الأصفر لمصباح الغاز. أتقدم بخطوات واثقة هذه المرة، فلم يعد هناك خطر السقوط والارتطام بشيء ما.

أجد نفسي أمام باب جديد. ينعكس ضوء مصباح الغاز على وجهي، لكنه هذه المرة ضوء أصفر يغطي كل الأرجاء. اقتربتُ قدر الكفاية من الباب، وجهدتُ لرؤية ما ورائه. كان الباب مواربًا. ثمة ظلال سوداء ترتعش بالداخل على الضوء الأصفر. لا بد أن ظلِّي ليس بين هذه الظلال. كان يُفهَم من تقوساتها

وانحناءاتها وأشكالها أنها ظلال بشر. عظيم. لكن أين أصحاب الظلال! ظلال البشر موجودة، أما هم أنفسهم فغير موجودين. لا بد أنهم في مكان ما هنا. أنظر إلى الداخل بتمعن أكبر. لا تزال الظلال كما هي. أنظر إلى الداخل فيما أقف على عتبة الباب. أستطيع أن أعرف السبب. لكنني أحاذر من أن أطأ العتبة. تزداد الظلال التي بالغرفة شيئًا فشيئًا. أنظر خلفي كي أستطيع رؤية ظلي لمرة جديدة. لو نجحتُ في ذلك لاستطعتُ أن أعقد مقارنة بين ظلي وهذه الظلال. خلفي مصباح وأمامي مصباح. تتقاطع الأضواء الصفراء، لكن أين ظلي أنا؟ كلا، كلا، لا يمكن أن أكون قد فقدت وجودي. ها أنا ذا هنا، ويمكنني أن أرى نفسي.

أتوجس خيفة من الدخول. لقد استطعت في الخارج أن أنقذ نفسي من التحول إلى تمثال. لكن هل سيمكنني في الداخل أن أنقذ نفسي من التحول إلى ظل. وكلما ازدادت الظلال ماجت بالحركة. تقترب بعض هذه الظلال من المصباح، وتتفحص أجسامًا مستديرة يحملونها بأيديهم. يمضي بعضها الآخر ويجيء من هذا الركن إلى ذاك، وأيديهم خلف ظهورهم. ثمة ستائر سوداء على الجدار المواجه مباشرة للباب. فجأة، يتوقف المتجولون أمام الستائر، ولا يلبثون أن يلتفتوا ويمضوا في الاتجاه الآخر. لا علاقة لهؤلاء لا بالمصباح ولا بمن يتفحصون الأشياء على ضوء المصباح.

هل ثمة في الخارج تماثيل ثابتة، وفي الداخل ظلال متحركة! أين أنا! تُرى هل هذه الظلال هي أرواح من تحولوا إلى تماثيل! هل أنا مُعرَّض أيضًا لنفس الشيء! هل بقيَ جسدي بالخارج على هيئة تمثال فيما تطوف روحي هنا على هيئة ظل من الظلال! لكن ها أنا ذا أرى لي جسدًا. أتوقف. لعل هذه الغرفة الموجودة أمامي لا تعدو أن تكون صورة. لا بد أن الكائنات الأصلية في مكان آخر. لا بد أن أعبر إلى ما وراء هذه الأشياء، فحتمًا وراءها أشياء وأشياء، لكنني أتردد في اجتياز هذه العتبة. تساورني الهواجس والشكوك. وأظل لابثًا عند عتبة غرفة الظلال. تستدعي كلمة العتبة هذه لخاطري آلاف التداعيات التي لا أستطيع تفسيرها. ولسبب ما أنظر إلى العتبة بإجلال، ولا أستطيع أن أطأها.

أمامي دنيا جديدة تمامًا، ضيقة للغاية، كأنها ستطوقني وتخنقني. سماؤها سقف خفيض. شمسها مصباح غاز يلوّثه السخام، حدودها جدران خرسانية. إنها حياة تقبع بين جدران زنزانة سجن. والظلال التي تملأ الزنزانة هم السكان الوحيدون في هذا المكان. ظلال لم أستطع معرفة حقيقتها على النحو الصحيح، ولم أتمكن من اكتشاف مصدرها بأي حال من الأحوال. فجأة! أفطن لكونهم قادمين هنا من العالم الخارجي. لِمَ يأتون! وكيف! كيف جئت أنا نفسي! ربما نكون قد جئنا جميعًا بذات الطريقة. يخيل إليّ أن طريقة مجيئي مختلفة. هل هناك سحر يستعصي على الفك! هل السحر هو الحقيقة، أم أن الحقيقة هي السحر! ألغاز وعقد لا سبيل إلى حلها تتعقد شيئًا فشيئًا. كيف

السبيل إلى حل هذه العقد المتداخلة! ماذا لو حُلّت، وماذا لو لم تُحل! لا فرق. عليّ أن أحل لغز نفسي أولًا حتى أجد حل ألغاز ما حولي. إن انتصاري في الصراع من أجل الحياة يرتبط بحَلِّ هذه العقدة. أم أن الأشياء كلها تبدأ وتنتهي فيّ أنا! جثماني، والمسافرون، والتحول إلى تمثال، والتحول إلى ظل... رأيت كل هذا، ذاكرتي كلها مشبعة به. لا أستطيع تجاوز هذا كله والعبور إلى المجهول. إذن عليّ أن أتشبث بما هو موجود من أجل الحياة الجديدة.

أكافح من أجل حياة جديدة، وأتعلق بها. يحدث تقارب بيني وبين الظلال؛ آنس لهم وتمتد أواصر الحب فيما بيننا. لم يعد هناك معنى للبحث عن مصدرهم. وأين ظلي أنا! لم يبق من معنى للبحث عنه هو الآخر؛ فالظلال داخلي، وخارجي. هناك يد باردة تعبث في شعري في دنيا الظلال هذه. حينئذ أتذكر قبعتي؛ قبعتي، أين قبعتي! الظلال بلا قبعات. أتحسس رأسي بيدي. حقًّا، ليس عليه قبعة. أين أسقطتُها! يجتاحني الخوف والتوتر من جديد، وأشعر برعشة تحتوي كياني. أندفع من العتبة نحو الداخل.

ينعكس ضوء المصباح على يدي. يداي بيضاوان، ترتعشان، تتمددان. أفزع منها. تنعكس الظلال على يديّ، وأمتزج بها. وعبثًا أحاول أن أتحسس جسدي بيديّ. يداي في الفراغ. لستُ موجودًا. أحس بوجودي، لكنني لا أستطيع أن أتحسس جسدي. هل ما فقدتُه هو حاسة اللمس أم وجودي الفيزيقي! لعلي قد صرت ظلًّا أنا أيضًا. لا معنى للمقاومة. أستطيع أن أفكر، أستطيع أن أرى، أستطيع أن أتحرك. والجانب المثير من الأمر هو أنني أستطيع أن أتمدد وأنكمش بقدر ما أريد، وأستطيع أن أتحكم في أعضائي كيفما أحب. بيد أني لا أستطيع أن أوقف ارتعاشي. لا أشعر بخوف ولا اهتياج. لا أحترق عطشًا، ولا أتضور جوعًا. يا لها من حياة رائعة بين الوجود والعدم! عِشْ بقدر ما تريد. أكان اندفاعي من تلك العتبة خطوة نحو الخلود! أنكفئ على نفسي، أين جثماني! أين هو! لقد تطابق معي، كان بداخلي. تُرى هل فارقني! هذا مستحيل. لا بد أن جثماني لا يزال موجودًا بداخلي، وإلا من أين سأشعر بأنني أعيش. تعتريني تغيرات مستمرة، فيما كنت أتحدث مع جثماني، كم مرة عشت قبله وبعده! ومن بعد هذا ذَهابي وإيابي من وإلى ما وراء الحياة والموت، فيما كنت أستمع إلى قصة الولي الذي قصها عليّ... إننا نولد من جديد في كل لحظة؛ إننا في وجود دائم وفناء دائم. من أين تتوارد مثل هذه الأفكار إلى ذهني! لو استطعت أن أحل هذا اللغز، لأمكنني أن أشكّل نفسي من جديد.

وقع بصري على شخص جالس على الكرسي الموجود أسفل المصباح. أهو الآخر ظل! وفي هذه الأثناء تنبهت إلى أنني أقف أمام منضدة[4] ضخمة نوعًا ما، موجودة في وسط الغرفة تمامًا. كراسي، وظلال، وطاولة؛ ها هي كائنات الدنيا الجديدة. عيوني مسلطة على الجالس وراء الطاولة. أنظر إليه وكأني أنظر إلى منقذ. يهبط صدره ويعلو. لعله يتنفس. هل هو بشر! يراودني الأمل

مجددًا. ثمة بشر بين الظلال. إنني أرى عينيه. ينظر إلى عينيّ وتتبدى علامات السرور في عينيه. لأول مرة تلتقي عيناي بأعين شخص ما، نتبادل النظرات. أتمالك نفسي بصعوبة كي لا أندفع إليه وأعانقه. لا يمكنني الإفلات من سحر هذه العيون، فبها أدرك وجودي من جديد.

نهض الجالس على الطاولة من مكانه فجأة، ودنا مني. رائحة عظام متعفنة تفغم أنفي. أنظر مهتاجًا إلى يديه فإذا بها تحمل جمجمة إنسان! سأختنق. يستبد بي الخوف، وتسري في جسدي الرجفة. أتلفت حولي. ثمة جمجمة في يد كل ظل من الظلال! تنقبض أحبالي الصوتية. أصرخ، لكني لا أستطيع حتى سماع صوتي. أدرك عندئذ أنني لم أسمع أي صوت قط منذ زمن بعيد. أريد الفرار والخلاص من هذه الغرفة. أعجز عن الحركة. أغمض عيني وأرى ظلالًا. أفتح عيني فأرى ظلالًا. يسري الزمان ويمضي بي كظل. أحس به أتشبث به لعل هذه النهاية، ولعلها بداية أيضًا.

ها هو ذا ظل جسيم. يمكن القول إنه أقوى الظلال. يقف أمامي وقد مد يديه المرتعشتين إليّ. أين يداي! يداي في الخواء. أين ما كان من عيون قبل قليل! أي ظل هذا! لا أدري؛ تشابهت كل الظلال مع بعضها. ترى أكانت دومًا على هذه الشاكلة! أنظر بخوف إلى الأيدي التي تقترب مني تدريجيًّا، فإذا بها تمتد نحو عنقي. لا أستطيع أن أجد العيون التي كانت قبل قليل؛ كل ما أراه هو زوج من الأيدي ليس إلا.

ينتفض الظل وكأنه يود التخلص من تأثير إغماءة استمرت لأيام، حينئذٍ أرى حاجبيه الغليظين الأسودين القاطبين. أشعر بارتياح، وآخذ نفسًا عميقًا. ها قد أدركت عينيه كذلك. لن يستطيع هذا أن يخنقني. لأنه هو الآخر سوف يرى عينيّ. يمزق الضوء الصادر من العيون كل الظلام، فتنقشع الأفكار المخيفة والمزعجة وتتبدد. أرى أصابع رفيعة وطويلة؛ إنها أصابع هيكل عظمي. تهوي يداي بين هذه الأصابع. أحس بها؛ هل تعود حواسي التي فقدتها من جديد!

يجذب الشخص الواقف أمامي ذراعيه هذه المرة من على رقبتي ويطوق بها خاصرتي، ويعانقني بشدة. أحس بشفاه حارة تجول في وجهي وصدغي، وأتعرض لوابل من القبلات. لم أقو على الاحتمال، رحت أقبل أوصاله، ألثمُ كل ما تلمسه شفتاي، وأشعر بلذة عارمة بسبب هذا. تمتزج أنفاسنا بعضها مع البعض، فالواقف أمامي حي، وأنا كذلك؛ أتقلبُ في شلال من المتعة. فأنا هنا، والآخر يعانقني. أحس بسعادة الخلاص من الوحشة تسري في كل كياني. أشعر بالاسترخاء يسري في جسدي. تخبو الوحشة التي بداخلي تدريجيًّا. تبلغ سعادتي ذروتها حينما أدرك أن للظلال حاسة لمس. لن أفقد شيئًا حال كوني ظلًّا، بل على العكس، أنا الكسبان. هل ما عشته خيال أم حقيقة! لم يعد هناك أهمية قط لكل هذا. فك من يعانقني يديه، والتقت أعيننا. أشعر بأنفاسه، يبدو

كأنه يبتسم، كأنه كان سيقول شيئًا. أنظر إليه بكل إمعان، فإذا بشفتيه تتحركان:
- لكنكم؟
أسمع وأعي. ولأول مرة أستطيع أن أسمع شخصًا آخر وأتحدث معه. سأطير من الفرح. أدخل في الكلام على الفور:
- أنا؟ اتركني أنت الآن.
تأخذني الدهشة أيضًا من كلماتي هذه؛ فلأول مرة أقول: «أنت» لمن يخاطبني بتبجيل واحترام شديدين فيقول لي: «أنتم». أنتظر ردة فعله، لكنه هادئ إلى حد بعيد. يواصل كلامه:
- عجيب! إسقاط الكلفة في الحديث في محله تمامًا. أتعرف أنه بدخولك إلى هنا تكون قد قطعت مرحلة مهمة جدًّا. لو لبثتَ بالخارج لصرتَ تمثالًا بلا مشاعر. أما الآن فأنت ظل. ظل يسمع ويرى ويتحدث: أي ظل حي. لقد خطوتَ خطوة مهمة نحو حياة جديدة تمامًا. لقد صرت فوق البشر، وتحررت من كل الاحتياجات العادية.
حينئذٍ، فطنت إلى أنني لم أتناول أي طعام ولا شراب قط إلى الآن، غير أنني كنت أشعر أحيانًا بالحاجة إلى ذلك. أما الآن، فلا أشعر بهذه الاحتياجات. ابتسمت في عيون من أمامي، وواصلت الحديث:
- إنك تعرف كل شيء. حسنًا. لكن لِمَ استهللت الكلام مجددًا بسؤال؟
- في حقيقة الأمر، إن ما أعرفه هو تلك الأشياء المتعلقة بي فحسب. لكنك لا تفترق كثيرًا عني. من الآن فصاعدًا لن أوجه إليك أسئلة، إنما إيضاحات فحسب.
توقفتُ لبرهة، وتنهدتُ، وحدجني مرة أخرى ببصره من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ثم أردف:
- إنني هنا مذ وُلدْت. أتذكر نفسي باعتباري ظلًّا.
- أما أنا فلي ماض كذلك.
- تلك مشكلتك وحدك. يشغل بالك هل تحررت من ماضيك أم لا.
أقول:
- عظيم! أليس بإمكان من هم بالخارج الدخول إلى هنا؟
- إنني أراك لا تزال منشغلًا بالخارج. كفى، فلم يعد للأمر خارج. لكنني أود أن أقول لك إنه قد قُضي الأمر بالنسبة إلى من تحولوا إلى تماثيل. المهم في هذا الخصوص هو اتخاذ القرار في الوقت المناسب تمامًا. وإن تحولتَ إلى تمثال ذات يوم فقد انتهى أمرك. وهذا ما يحدث دومًا منذ سنوات.
سألته وأنا أنظر في عينيه:

- هل قلت: منذ سنوات؟ هذا معناه أن الخلاص يبدأ بالدخول إلى هنا. ممتاز. ولكن إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ هل يستمر حتى تفرغ جميع المدن؟

- ما زلتَ تسأل. تسألني عن الدخول إلى هنا وعن الخلاص؟ هذا ليس بالأمر الهين لهذه الدرجة. إنه يتطلب قلبًا شجاعًا وإرادة من فولاذ. ومن يفتقرون إلى هذا لن يستطيعوا فهم سر التحول إلى ظل. وإن لم تكتشف ذلك السر فالنتيجة حتمية وأكيدة؛ ألا وهي الخواء. الخواء ليس إلا. أرى أنك توترت. إياك.. حذار! فأنا أعلق عليك الآمال. أعلم أنك تتمتع بقدرات هائلة. سوف تعبر إلى ما وراء الخواء خلال فترة وجيزة. وقد لا ترى الخواء أيضًا.

- ومتى جئت أنت إلى هنا؟ وإلى متى ستبقى؟

- امحُ كل هذه الأسئلة العالقة بذهنك، انفضها. ألم أقل لك إني قد وُلدت هنا! لا داعي للتنقيب وراء ذلك. لا داعي أبدًا، فهو عبث لا طائل من ورائه. والآن أود أن أسألك سؤالًا حتى يمكنك التخلص من هذه المشكلة. قل لي، كيف ومتى جئت أنت إلى هنا؟

رحت أحكي دون أدنى تردد:

- استيقظتُ ذات صباح في مدينة مهجورة خالية من البشر. والتحقتُ بالمسافرين، وجئتُ إلى هنا. وسعيتُ –ولا أزال– من أجل أن أتذكر ما حدث قبل ذلك، لكنني لا أجد بصيصًا من النور.

- أرأيت؟ ما لم تجتث هذه الأفكار وتطرحها عنك، فسوف تظل تتجرع الأحزان بحثًا عن ماضيك. إنك إن بقيت منشغل البال بتلك النقطة التي استيقظت فيها، للبثت هناك إلى الآن، هل كان هذا أفضل بالنسبة إليك؟!

- ما رأيك أنت؟ لو كنت قد بقيتُ هناك ليوم آخر لمسّني الجنون. لقد فقدتُ مستقبلي لا ماضيّ فحسب.

- لقد استيقظتَ في الوقت المناسب تمامًا. وأنت في نقطة الخلاص، وعليك الآن أن تبدأ حياة مهمة للغاية. هيا أود أن أراكَ تتمتع بقلب شجاع وإرادة من فولاذ.

وحينما رأى أنني لذت بالصمت، نظر إلى وجهي بصرامة تامة، وأردف يقول:

- أولًا: انسَ الخارج. إنني أتحدث إليك بود وإخلاص؛ افتح ذاكرتك لما هو جديد. وهذا يقتضي أن تفرغها أولًا من الماضي، حتى لا يبقى بها أي أثر له.

قلت:

- بالطبع. سأفعل ما بوسعي. سعدتُ بتحذيرك.

ابتسم ووضع يديه على كتفيّ. وكانت أنفاسه تلفح وجهي. أمسكني من كتفي وجذبني إليه، ولثم وجنتي. لثمتُ بدوري وجنتيه، وتبادلنا القبلات والعناق، وامتزجنا ببعضنا. قفزتُ بفرح وهياج في محاولة للتعبير عن سعادتي، فقال وهو ينظر في عينيّ:

- حسنًا. يمكننا المضي. لقد أعددتك لكي تكون خلقًا جديدًا تمامًا. لقد جددت ثقتي فيك، وأحكمتها كذلك.

قلتُ بسعادة:

- فلنمض.

بيد أنني لم أكن أعرف إلى أين سأمضي، لكنني تعلمت كذلك ألا أقلق.

قال:

- سر إذًا!

وفجأة، قطَّب حاجبيه وتغير وجهه، وخطا إلى يساري وأمسك ذراعي، وراح يجذبني وكأنه يسوقني وراءه. وعلى الرغم من أنني تذكَّرتُ كيف سيق جثماني أثناء الرحلة، استجمعتُ شتات نفسي، وجهدتُ إلى سد ثقوب ذاكرتي المفتوحة على الماضي.

***

تنفرج قدماي وتنضم من تلقاء نفسها. تمر الظلال مسرعة عن يميني وعن يساري. تارة أخالطهم، وأخرى أجدني كيانًا منفردًا. بيد أني لا أستطيع التحرر من الظل الذي يمسك بذراعي بإحكام. تختلط أنفاسي برائحة العظام المتعفنة. أشعر بغثيان من هذه الرائحة التي تفغم رئتيّ. أبحث عن رائحة غاز المشكاة، لأنني ما إن أشعر بها حتى أستفيق وأعود لصوابي. من أين جاءتني كلمة مشكاة! ليتني أرى مصباح الغاز ولو لمرة واحدة. انقشع الضوء الأصفر بدوره؛ وإذا بالمشهد يغطيه ستار رقيق من الضباب. يدكن اللون الرصاصي لستار الضباب تدريجيًّا وينمحي المشهد.

تعثرت قدماي، سقطتُ أو كدت أن أسقط. أعرف أن أحدًا يسوقني، ولكنني لا أدرك وجوده الآن. أترنح فجأة. يمتد أمامي وادٍ شديد الاخضرار. أترك نفسي سريعًا بين أحضان الخضرة. أستلقي على ظهري، فإذا بقطع من السحب البيضاء التي تشبه الحرير تتسابق في ساحة السماء الزرقاء، ويداعب نسيم الهواء شعري، وتتردد زقزقة عصافير في مسامعي، تلامس يداي الأعشاب الخضراء الندية. ربيع لا ينفد ولا ينتهي. وكأني أتمدد هكذا في مكان معروف في فصل معروف. لا أشعر بخوف من الوحدة، ولا بالحنين. أشعر في أعماقي بأنني عشت هنا منذ سنوات. يا لهذا المكان! إنه رحيب ولطيف. أريد أن أعيش، أريد أن أعيش في هذه الدنيا حتى أشبع. وكأنني قد بدأت الحياة بالاستلقاء في هذا المكان. ليت عقارب الزمن تتوقف هنا فلا تسوقني إلى مكان آخر جديد.

حين استفقت، وجدتُني في غرفة فسيحة بدرجة ما. لم أقطع بطريقة دخولي إليها. تلفَّتُّ حولي بفضول، فوجدتُ طاولات وكراسيَ شاغرة تملأ جنبات المكان. وكانت الجدران ناصعة البياض. ولا وجود لستائر سوداء ولا لظلال مرتعشة.

إذًا فقد انجابَت وانقضَت كل هذه الكوابيس. وفجأة تذكرتُ مَنْ ساقني إلى هنا. تلفتُّ حولي. ها هو ذا يقف في هذا المكان، وقد أمسك بذراعي بإحكام، وعيناه على الأرض. وتبدو الجدران بيضاء نظيفة خالية من الصور والكتابات. لا بد أن هذا المكان عالم حر؛ فالجدران متحررة من صور من يحسبون أنفسهم آلهة. من أين تتوارد هذه الأفكار إلى عقلي! هل الصور التي على هذه الشاكلة تحدُّ من حرية البشر! رائع! لكن ما الحرية؟! هل هي الرحيل أم التحول إلى تمثال أو ظل؟! وما كل هذه الأمور! هل أنا الآن حر أم أسير؟! هل بمقدوري أن أحرر نفسي من هذا الظل الكائن بجانبي؟! وإذا ما حدث وحررتها، ألا يكون الوضع أكثر سوءًا مما مضى؟! إلى أين سأمضي بعد خروجي من هنا؟! وهل هذا المكان أكثر حرية أم الخارج؟! تتساقط الأسئلة على مخي كأنها رصاص ساخن. عليّ أن أمحو كل هذا من عقلي وأطرحه خارجه. راح من بجانبي يجرني مجددًا. تعج الغرفة بالظلال، ووادٍ شديد الاخضرار، والآن غرفة تحيط بها جدران بيضاء. هل عشت هذا كله تباعًا، أم متداخلًا؟! جذبني من بجانبي إلى ركن به كراسي وطاولات. لاحظتُ أن ثمة من يجلس على الطاولة أمامي؛ له وجه عبوس ومخيف. وإذا بصوت يملأ أذنيَّ ويخدش مخي، يقول:

- اجلس.

وأومأ إلى الكرسي والطاولة الموجودة أمامه بعينين يتطاير منهما الشرر. كيف لم أفطن إلى وجود هذه الطاولة الصغيرة والكرسي؟! عقدَت الدهشة لساني، وتشتت الكلمات في ذهني. سارعت بالجلوس هنالك. ولبثت فترة دون حراك، ثم استطعت أن أتلفت حولي. لم يكن من أتى بي إلى هنا موجودًا بالمكان. وفيما كنت قاب قوسين أو أدنى من أن آنس إليه وأفلت من الشعور بالوحشة واليأس، إذا بي أسقط نهبًا للشعور بالوحدة.

رنوتُ إلى الطاولة الموجودة أمامي بنظرات تائهة، فيما يد باردة تربت عليّ. ارتعدَت فرائصي وانتابني الجزع، لا أعرف ما يمكنني فعله. يقع بصري على صورة رأس كبير مقطوع، موضوع على الطاولة. توشك قطرات الدماء أن تقطر منه. تحدق عيناه إلى عينيّ وكأنها حية! أستجمع شجاعتي وأحاول أن أدرك هذه الطاولة والرأس الذي يعتليه. إنه لأمر مخيف أن ترى عيونًا شاخصة، ورقبة متجمدة، ووجهًا ملطخًا بالدماء، وشعرًا كأنه الموت ذاته. تهافتت عليّ كائنات غير مرئية عن يميني وعن يساري، وتداخلَت أصوات عجيبة في أذنيّ! أخذتُ أُحدّق إلى ما أمسك بإحكام بالكرسي الذي أنا جالس عليه. إنها في حقيقة الأمر صورة. فلِمَ كل هذا الخوف؟ الصورة ليست على الجدار، إنما على الطاولة. حدقتُ جيدًا إلى تلك الصورة؛ الرأس مثبت داخل برواز، وإلى العينين التي تمزق ستر الموت رغبة في اختراق أي شيء والنفاذ فيه.

لبرهة رأيت نفسي في حدقتي هذا الرأس، فأصابني الذهول لما رأيتني ضئيلًا مسكينًا في حدقتَي رأس دامٍ. تسمرَت عيناي على بقع الدم التي تغطي أذن

ذلك الرأس، الذي قصرت أسنانه وتقلصت، وأحاطت به السهام الحادة. تقوَّس سهم من الأسهم مشيرًا إلى العين اليمنى والأذن اليسرى. أما الأسهم الأخرى فتجمعَت بداخل المخ. أما العين اليسرى فقد استطاعت أن تتحرر بطريقة ما من هذه الأسهم.

الأسهم! كم يبلغ عددها: خمسة، أم ستة، أم سبعة؟! أشعر بتنميل في مخي كلما تواترت الأعداد على ذاكرتي. يهوي العدد ستة كالمطرقة فوق مخي. حينئذٍ أتنبه إلى أن الأعداد كذلك تحمل معانيَ معينة. يبدو الرأس أمامي وكأنه قد قُتل بستة أسهم، ثم فُصِل عن جذعه، ورُسم ووُضع في مكانه هذا. إنه شارد النظرات، أصم، أبكم، دامٍ... يخشى أن يستحيل الثرى الذي يراه قبرًا. يدق قلبي ويتسرب الخوف والتوتر لنفسي. أين من ساقني إلى هنا! أظن أنني لو رأيته مرة، لأمكنني حل سر هذا المكان؛ أعرف هذا، وأؤمن به. حاولت أن أنهض، وإذا بيد تربِّت على كتفي. فشلتُ في النهوض، فظللتُ جالسًا على نفس الهيئة.

ليس بجانبي أحد.. يد مَنْ هذه التي تربت على كتفي! هل أنا في غرفة مليئة بالأشباح؟! ثمة همس! تؤلمني أذناي. أرهف السمع علِّي أتمكن من الفهم. أفهم ما يقوله. إنه يقول:

- ستة. أقدس الأعداد، فيه سر الكون؛ فقد خلق الله الكون في ستة أيام، ثم استوى على عرشه في سابع يوم. أما أنت فلا تشغلن بالك بالعدد ستة. ركّز في الصورة التي أمامك. انظر إليها جيدًا.

استولَت عليّ الدهشة بحق. إنني الآن في مكان يُقرأ فيه كل ما يجول بخاطري. كيف يمكن العيش في مكان كهذا؟! الأشباح في ذاكرتي، في عقلي، على كتفي، فوق رأسي. أنحني على الرأس الموجود أمامي، يداي متشبثة بالكرسي. بداخلي شعور بأنني لو تخليت عن هذا الكرسي، فسأسقط في هوة. أهرب من مثل هذه النوعية من الأفكار، لأن الأشباح تقرأ ذلك أيضًا. ما من تغير في هيئة الرأس. أمعن النظر، إنها هي نفسها. أسئلة... ونظرًا لأن ما يجول في خاطري مقروء، فلا بد ألا يكون لحديثي لنفسي أيضًا أي معنى. فإجابات الأسئلة من الممكن أن تتوارد على الفور. لكن لا طاقة لي بالاحتمال مجددًا، أهمس:

- الرأس! لكن ما هذه الأسهم؟!

- لا تشغل بالك بهذا، وواصل النظر.

- الأسهم!

- مفهوم مفهوم. إليك ست مفردات مقابل الأسهم الستة: العالم الخارجي، والطرق، والمسافرون، والتماثيل، والمنازل ذات الستائر السوداء، والخلاص... هل أدركت الآن ما تعنيه هذه الأسهم!

- إنها ليست مفردات، وإنما إشارات، أليس كذلك؟

- هل تعرف الكتابة حتى تبحث عن كلمة! ألم يقولوا لك أن تفرغ ذاكرتك بأكملها! يجب أن تكون ذاكرتك شاغرة حتى تستطيع اكتساب ذكريات ومعلومات جديدة. لا تنس هذه النصائح، وركّز في الشكل الذي أمامك، وإلا ستظل تدور في فراغ إلى الأبد.

وعلى إثر هذه الكلمات التي سمعتها راح كل شيء يدور في فلك زمن الغرفة. أتمالك نفسي لكي لا أسقط من على الكرسي الذي أجلس عليه. لقد كان خطأ صغيرًا يمكن أن يرتكب في مكان تُقرأ فيه أفكار المرء، من الممكن أن يتمخض عنه نتيجة لا سبيل إلى تصويبها في الحقيقة أيضًا. هل الجدران البيضاء والطاولة والكراسي والصور حقيقة أم خيال! أم تراها خيالات وتصورات في مخيلتي؟! تستولي عليّ الحيرة، ولا أدري ماذا أفعل. أهي إغماءة من جديد؟! كلا، ليس هناك شيء كهذا، إذ لا يمكنني رؤية وادٍ أخضر أمامي. لا تنمحي المشاهد التي في الحجرة، إنما تتضح أكثر. تستطيع عيوني أن تدرك كل شيء بكامل تفاصيله. كل شيء يثوى في مكانه. لا أزال أنتظر ممسكًا بإحكام بكرسيّي الذي أجلس عليه، وإذا بهمس جديد:

- انظر أمامك!

رفعتُ رأسي وصرفتُ بصري عن الرأس الموجود أمامي على الطاولة، ونظرتُ أمامي، وعندئذٍ التقيت وجهًا إلى وجه بمجموعة من الهياكل العظمية، جميعها متجهة صوبي؛ تجمد عقلي، وانعقد لساني، وخُتم على فمي. فقدتُ كل طاقتي. أظنني الآن لا أقوى على القيام من المكان الذي أجلس فيه. بيد أن همسًا يطن في أذني:

- قم وامضِ إليهم!

أحاول القيام، لكنني لا أقوى على ذلك. وبعد فترة أجد نفسي واقفًا على قدمي. أي قوة أنهضتني! لا يمكنني الجزم. لا تزال نظراتي معلّقةً بالتماثيل. يتردد الهمس مجددًا:

- سِر!

لا يمكنني أن أفتح فمي، ولا أستطيع أن أخطو خطوة أخرى. زوج من الأيدي تمسك بكتفي، أُساق نحو الهياكل العظمية. لا أستطيع رؤية تلك الأيدي ولا أصحابها. صرت دمية في أيدي الأشباح. قد يكون هؤلاء ظلالًا، أو بشرًا، أو ربما كائنات لا أعرفها. أشعر بأن الأيدي سُحبت من على كتفيّ. عيناي مسلطتان على الهياكل العظمية، يتردد الهمس في أذنيّ:

- ادخل بين هؤلاء!

أحس هذه المرة بقوة تدفعني من الخلف. وما هي إلا لحظة حتى وجدتني بين الهياكل العظمية. تسعى تساؤلات جديدة للتشكل في ذهني، ويبدأ الهمس يتردد من جديد، كابحًا التساؤلات:

- جمّد مخك، وانقش بدقة داخل عقلك أنك صرتَ الآن هيكلًا عظميًّا. أنت هيكل عظمي، تمضي بين الهياكل العظمية باعتبارك مثلهم.
- أأنا هيكل عظمي؟ من أنت إذًا؟
- أوقف تشكل التساؤلات في رأسك.
- كيف يمكن ذلك؟
- اعرف من أنت أولًا، والبقية سهلة.
بقيتُ ذاهلًا. مررت بمراحل عديدة إلى الآن. لكن في أي طور من أطوار التطور؟ أوقفت فورًا أفكاري، أعلم أن أفكاري تُقرأ هنا، وتبدو كذلك. هذا ما يؤكده الصوت الهامس:
- أنت هيكل عظمي، وأنا همس. اتفقنا، هل فهمت؟ أوقف مخك عند هذه النقطة. وإلا ستنتهي قبل أن تدرك سبيل النجاة.
على غير إرادة مني همست:
- السهم السادس!
- حتى الآن لا يمكنك أن تمسك عليك لسانك. سبق أن حذرتك منذ قليل قائلًا: اطرح الأرقام من رأسك. أنت هيكل عظمي. ما لك والأرقام؟!
- أنا هيكل عظمي!
تحسست نفسي، وجدتُني كتلة من العظم شديد الجفاف. حاولتُ التحرك؛ كل أعضائي تطقطق. توقفتُ خشية التحطم. يتردد همس في أذنيّ مجددًا:
- من أنت؟
لأول مرة كنت أواجه سؤالًا. أجبت على غير إرادة مني:
- هيكل عظمي!
- إذًا تحدث مع من بجانبك.
لا تزال الهياكل عظمية على حالها. العالم بأسره يغص بالهياكل العظمية. ونظرًا لأنني هيكل عظمي، فالحياة هي حياة الهياكل العظمية. لا أستطيع أن أعثر في ذاكرتي عن كلمة واحدة تُقال. انقطع الهمس أيضًا. يطول الصمت ويزداد طولًا، ويتسع الزمان. ولا يعود بمقدوري أن أحس بالأشباح. محيطي مليء بالهياكل العظمية. عليّ أن أتحدث. ولكن كيف! وبأي كلمات! لو تحدثت مع هؤلاء، فإنني أستطيع أن أدفع الشعور بالوحشة. يأمرني الهمس أمرًا قاطعًا بتبادل الحديث مع مَن حولي. إنني مضطر إلى الاعتقاد بأنني هيكل عظمي، ومهيأ للحديث مع أقراني من الهياكل العظمية. لو لم أفلح في هذا فإنها الكارثة... تصطرع أفكار بداخلي، لكنني لا أستطيع إكمال صياغتها. ليس هناك همس حتى أحظى بمساعدته. بدأت الأفكار تتشكل، لكن لا وجود لهمس، مما يعني أن مخي انفتح على الحرية، تصطف التساؤلات والمفردات فوق بعضها... عندئذ أنطق بسؤال دون أن أنتظر:

- من أنتم؟
يتردد صوتي في الغرفة. يصيبني الذعر وكأنني أسمعه لأول مرة. وبعد صمت استمر لبرهة، تتردد الإجابة في الغرفة:
- نحن هياكل عظمية.
أجيل نظري فيها، لكن لا أستطيع الجزم من أي هيكل عظمي صدر الصوت. أكرر السؤال مجددًا وعيوني على الهياكل العظمية:
- من أنا؟
يتردد الصوت نفسه:
- أنت هيكل عظمي!
لم أستطع الجزم ثانية من أيهم صدرت الإجابة. أسأل ثانية:
- من أين؟ وكيف؟ ومتى جئتم إلى هنا؟
في تلك اللحظة، تذكرتُ أنني سألت هذا السؤال حين دخلت هنا. وفي هذه الأثناء، كنت أنتظر تحذير الهمس، لكنه لم يجئ. غمرَتني السعادة لذلك، فهذا معناه أنني لست مراقبًا. صرتُ أنظر بإمعان إلى الهياكل العظمية، وأنتظر الإجابة التي سأتلقاها منهم. ولأول مرة طالت فترة الانتظار قبل صدور الإجابة. وفيما كنت على وشك التردي في اليأس والخيبة، جاءت الإجابة التالية:
- لا علم لنا بذلك.. إننا هياكل عظمية. هكذا وُلدنا، وهكذا سنحيا.
لم أجد السعادة مع هذه الإجابة، وكأنما ليس ثمة فرصة لمعرفة أي شيء في هذا الموقف. سألتهم مرة أخرى:
- هل ستبقون على هذا النحو إلى الأبد؟
- أجل... لكن ربما لا.
إجابة يشوبها التردد هذه المرة. أسعد بذلك، كأنما مع هذه الإجابة سينفرج باب يفضي إلى المستقبل... إلى خارج هذه الغرفة. وبينما أنا أخوض في هذا الحديث الثنائي ولا أريد له أن ينقطع، أُتيحت فرصة الإمساك بطرف خيط آخر، فبادرتُ متسائلًا:
- وأنا؟ هل أنا على طريق الخلاص؟ وهل هناك من انشق عليكم ورحل عن هنا؟
- نحن هياكل عظمية وسنظل دائمًا هنا.
لم أكن أنتظر مثل هذه الإجابة في حقيقة الأمر. وفي هذه الأثناء، تمكنت من فك رموز سرٍّ مهم؛ هو أن الهياكل العظمية كانت دومًا تجيب أسئلتي معًا وفي صوت واحد، كأنهم شخص واحد. تتبادر إلى ذهني فكرة أن أجرّب تمردًا جديدًا. فمثلما نجوتُ من التحول إلى تمثال، باستطاعتي النجاة من التحول إلى هيكل عظمي. لكنني لا أستطيع النجاة من أن أصير ظلًّا من الظلال. لقد تحولتُ إلى هيكل عظمي. أنا الآن هيكل عظمي، إلامَ سأصير بعد ذلك؟! يتعاظم التمرد

بداخلي مجددًا، ويراودني شعور بأن الهياكل العظمية تشاركني في تمردي. أتحدث وكأنني أصيح ناظرًا إلى التماثيل:

- عليكم الرحيل من هنا. ها أنتم أولاء ترون أننا أحرار. ما من قوة ظاهرة أو خفية تتحفظ علينا هنا. ونظرًا لأننا نستطيع التفاهم فيما بيننا، يمكننا أن نتعاون معًا ونقيم اتحادًا قويًّا. هكذا نستطيع تحطيم قوالبنا العظمية هذه، والتعرف إلى حقيقة ذاتنا.

فتصدر الإجابة التي تتردد في أذني بصوت جوقة من المرتلين:

- نحن هياكل عظمية، وسنظل هكذا بداخل هذه الغرف.

ألمس غضبًا عارمًا تنطوي عليه هذه الإجابة، فأواصل حديثي بذات الانفعال:

- إنكم مخطئون، فلسنا مجرد هياكل عظمية مبرمجة. هذه خدعة. انظروا، إننا نستطيع أن نتحدث ونفكر. وطالما تهيأت لكم هذه القدرات، فإنه من الممكن تهيئة القدرات الأخرى على الفور. يمكننا مثلًا تشغيل القدرة على الحركة. وهذا على أقل تقدير يمنحنا فرصة تبيّن المكان.

- إننا لا نحاول الحركة قط، ولا نريد المحاولة. في واقع الأمر، ليس لدينا كذلك القدرة على التفكير. إننا ماكينات مبرمجة تجيب على ما يُوجه إليها من أسئلة. ربما يكون ثمة آخر يتحدث بدلًا منا، وإلا كيف يمكننا أن نجيب الإجابة نفسها وفي اللحظة نفسها.

- إنكم تتمتعون بكافة القدرات. أرى ذلك جليًّا. صدقوني، وثقوا بأنفسكم، والبقية تأتي. هيّا بنا، لنحاول الحركة أولًا.

وما إن أفرغ من حديثي حتى يترامى إليَّ صوت طقطقة عظام تتسارع. لم أكن أتوقع ذلك مطلقًا، فقد كان أول رد فعل إيجابي يصدر عنهم، ومثَّل ذلك بالنسبة إليّ بصيص أمل. لكن سرعان ما استحالت الطقطقة ضجرًا وتوترًا لا يُحتمل. عبثًا حاولتُ أن أفوه بشيء لأجل التملص من هذه الطقطقة المضجرة. فأنا حين أتحدث أسمع نفسي ولا يكون بمقدوري أن أسمِع الهياكل العظمية صوتي. صار كل ما أتفوه به يختلط بطقطقة العظام ويتلاشى بينها. هممتُ بأن أوقفهم بيدي. وهذه المرة واجهتني طقطقات عظامي أنا. لم أستطع منع عظامي من الطقطقة، إذ فقدتُ كل وسائل التواصل والاتصال بين عظامي وعقلي. أيُعَد هذا تمردًا! لقد جهدتُ في تحقيق التمرد في الخارج، الآن أسعى إلى بعثه في نفسي. وفيما كنت أتململ وأتلوى في قبضة التمرد، إذا بالهمس يتردد في أذني مجددًا. وكان الهمس –الذي جعلني دمية في يديه– يبدو هذه المرة كأنه أمل في الخلاص. أصغي إليه بسعادة وهو يهمس لي:

- اتبعني.

يسود صمت الموت، لكنه أفضل بكثير من طقطقة العظام. سكنت الهياكل العظمية فلم تعد تحرك ساكنًا. تجمدت كلها. نظرتُ إلى الجهة التي يتناهى منها الهمس، فإذا بظل أمامي تضحك عيناه. سرت نحوه بسعادة. والهياكل

العظمية بلا صوت، بلا حراك. وقفت أمام الظل، يبدو أنني تعرفتُ إليه من قبل. نظرتُ مرة أخرى إلى الهياكل العظمية، كل ماثل في مكانه. لا ينقصهم أحد. لكن أين هيكلي العظمي! هل خلعته من عليّ وكأنه ثوب كريه تركته بين الهياكل العظمية! إنني ظل، وسوف أترك نفسي بين ذراعي ظل آخر.

عانقني الظل بحرارة، ليس في جسدي أقل طقطقة. أمسك الظل بذراعي، وراح يسوقني. بعد فترة أجد نفسي في غرفة أخرى. أحاول أن أفهم ما إن كان هذا الظل هو نفس الظل الذي ساقني وجاء بي هنا من قبل أم لا. لكنّ محاولاتي ذهبَت سدى. تُرى هل تحول الهمس الذي وجهني إلى ظل؟! صرتُ وجهًا إلى وجه مع الظل في أضيق غرفة عاينتُها إلى الآن. تبسم الظل الواقف أمامي ابتسامة عذبة، قبل أن أدرك ما الذي يحدث، أشعرتني بالطمأنينة إلى حد ما. وقال الظل مبتسمًا:

- أنت من الآن ظل. وعليك البقاء هنا. إياك أن تغادر المكان ريثما آتي. هنا أكثر الغرف أمانًا بالنسبة إليك. والآن إلى الملتقى.

***

وحدي في غرفة ضيقة بلا نوافذ. انصرف الظل واختفى. أمعن النظر فيما حولي؛ أجدها غرفة ذات أربعة جدران. يقع بصري على الباب. أهرع على الفور وأمسك بمقبضه، إنه موصَد بقفل. ألم أدخل من هذا الباب! ألم يخرج الظل منه! وهل ثمة حاجة للباب بالنسبة إلى ظل! لكن ها أنا ذا ليس بمقدوري الخروج من باب موصَد. يخفت الضوء داخل الغرفة، لكن بدرجة تسمح برؤية جنباتها.

يقع بصري على أريكة موجودة في الزاوية. أشعر كأنما المكان كان شاغرًا عند دخولي. أدقّق النظر. هناك من يتمدد على الأريكة؛ مسجى بغطاء رقيق لا أستطيع تبيُّن لونه. اقتربتُ من الأريكة بعد برهة من التردد. كشفتُ الغطاء. إنها امرأة... تراجعتُ مرتاعًا، بيد أنني لم أستطع أن أصرف بصري عنها. لا علامة على الحركة. أصختُ السمع، علّي أستطيع أن أسمع أنفاسها؛ لكن دون جدوى. عاودتُ الاقتراب لكي أتبين ما إن كانت تتنفس. إنها امرأة تستلقي بطولها على ظهرها وكأنها عامود. امرأة عارية تمامًا: ينتشر الزغب الأسود في أماكن متفرقة من جسدها. عيناها السوداوان متسمرتان على السقف، شعرها الأسود مشتت فوق الوسادة، يداها تستقران على جانبيها دون حراك. فمها مغلق بتراخ، وشفتاها مكتنزة تميل للاحمرار، حاجباها رفيعان، كأنهما مشذبان، أهدابها اصطناعية طويلة. ساقاها منفرجتان قليلًا. هذه هيئتها وهي مستلقية. جسد ناصع البياض يتلألأ في الضوء الخافت. مرَّرت كفي أمام عينيها، فلم تَرُفّا أو تتحركا. جربت مرة أخرى، لا تزال عيناها على النقطة ذاتها، ثابتتين لا ترفان قط. لامستُ وجنتَيها بيديّ. إنها ساخنة على نحو ما. لكن لِمَ لا تتحرك؟! إنها ساخنة، فلا بد أنها حية. فجأة، يبرق الخوف في عقلي؛ إنها ميتة

حديثة الوفاة! وبينما كنت موشكًا على التخلص من الشعور بالوحشة، إذا بي أنكمش خوفًا في مكاني، برغم كوني قد كسرتُ حاجز الخوف منذ زمن بعيد. في هذه اللحظة تناهى إليَّ الهمس قائلًا في الحال:

- إنها لك!

تلفتُّ يمنة ويسرة؛ سمعت الهمس، لكن الظل غير موجود. هل أسير خلف ظل خفي لن أراه مجددًا!

هذيتُ قائلًا:

- ميتة!

يرتفع الهمس واضحًا لا لبس فيه:

- لا تنسَ أنك في هذه اللحظة ميت أيضًا.

تلاشت الكلمات كافة من ذاكرتي، باستثناء كلمة واحدة ظلت عالقة بشفتي:

- ميتة!

وبنبرة حاسمة وآمرة قال الصوت الهامس:

- اصعد إلى الأريكة وتمدد إلى جانبها!

راحت شفتاي ترددان:

- ميتة!

- الفظ تلك الكلمة من شفتيك. ومارس معها الحب.

ميتة! لا وجود لهذه الكلمة. وهل هناك حجاب بين الموتى والأحياء؟!

فكررَتْ شفتاي نفس الكلمة من جديد:

- ميتة!

- هل نسيتَ أن الجثمان الذي بداخلك جثمانك! مثلما تخلصتَ من قالب الهيكل العظمي، اخلع عنك قميص الظل وانفضه جيدًا، وكن ميتًا فحسب. لا تقف متسمرًا في مكانك وافعل ما آمرك به على الفور.

يسود الصمت جنبات المكان. لا وجود حتى لأدنى طقطقة، ولا أثر للهمس. يُشعرني الصمت هذه المرة بشيء من المتعة المجهولة. أتمدد على الأريكة. أسترخي تارة وأتوتر أخرى. تهب عليّ نسمات فاترة تجدني غارقًا في عرقي. أتمنى ألا تنتهي هذه اللحظات.

شعرتُ بالبرد بعد فترة، وسرى الإعياء في جسدي كله رغم وجودي في فراش وثير. يعتريني شعور بالفتور، يهبط تارة ويعلو تارة. إنني في غرفة ضيقة خافتة الإضاءة. لا يمكنني رؤية نافذتها ولا بابها. ثمة أريكة، يعلوها فراش ناعم وثير. أنا المستلقي عليها الآن. أين أنا! تمثُل أمامي امرأة! ميتة! قفزتُ جافلًا من الفراش. أكان ما عشته داخل الغرفة حادثًا مروعًا؟! رحت أعدو بجنون إلى اليسار واليمين داخل الغرفة. كانت كل الجهات قد تداخلَت في بعضها. صرتُ أعدو، واستمررت أعدو وأعدو.

ربتتْ يد فوق كتفي العارية. لم أعبأ لذلك، استأنفتُ العدو. ممن؟ ولِماذا؟ وإلى أين كنت أهرب؟ أعدو.. أعدو فحسب دون أن يبدو في الأفق سبيل إلى الخروج. أحس بربتة خفيفة وباردة على كتفي لمرة ثانية وثالثة ورابعة. أضرب بذلك عرض الحائط، وأعدو دون توقف. أين مَنْ كانت تتمدد على الأريكة. أتكون هي من يجري ورائي ويربت عليّ. شعرتُ بمزيج من الخوف والتوتر واللذة. شعرتُ بشيء من الحياء يخالج وجهي، وراحت قطرات من العرق تتهادى فوق جسدي العاري.

أمسك بكتفي زوج من الأيدي، وأدارني نحوه. أنظر وأنا خجِل ومتحرّج. أمامي ظل. يرتد بصري لنفسي. لا يمكنني رؤية أي شيء سوى الظل. أسعد بهذا؛ لأنني لا أستطيع أن أفطن إلى عريي وتجردي من الثياب. يمسكني الظل من ذراعي، ويروح يسوقني. ومن جهة أخرى يتحدث الظل قائلًا:

- هل أعجبتك؟

تملكتني الحيرة لبعض الوقت، وأحسستُ بتنميل في مخي، وارتعشتْ شفتاي. وسرعان ما انسابت الكلمات من شفتيّ بعفوية:

- أنا! نعم... لا...

- لقد راقبتك، كنت بارعًا.

فزعتُ وأخذتُ أهذي:

- هل كنت تراقبني أنا؟! عن أي براعة تتحدث؟

ثم تلعثمتُ وأردفتُ قائلًا:

- في البداية كان الباب موصدًا، ثم ما عاد له وجود. أما النافذة فلم تكن موجودة من الأساس.

أومأ الظل بيده قائلًا:

- انظر، ها هو الباب هنالك، مفتوح على آخره، والأبواب في المنازل ذات الستائر السوداء مفتوحة دائمًا.

نظرتُ إلى الجهة التي أشار إليها؛ حقًّا، هناك باب مفتوح على مصراعيه. وبينما كنت أفكر في إمكانية أن يكون ذلك خداعًا بصريًّا، بدأ الظل يجذبني إلى الباب. خرجنا من الباب المفتوح. صرتُ أنظر فأجد الباب لا ينغلق، بل يظل مفتوحًا.

صرنا نسير في دهليز مظلم. تذكرت ما عشته قبل قليل، شعرتُ بمتعة فاترة تسري في أعماقي. وفي هذه الأثناء كنا قد انتهينا إلى باب آخر، وكان هو الآخر مفتوحًا. توقفنا، وقف الظل أمامي. تواجهنا. طالعتُ وجهه للمرة الأولى. فإذا به مكسوٌّ بالتجاعيد. وقفتُ مرتعشًا، أنظر إليه شاعرًا ألا حيلة بيدي.. كنت أدرك أنني أسيره؛ أي أنه ليس باستطاعتي فعل أي شيء بدونه. هل من الممكن أن تكون هناك حرية –كتلك التي عشتُها قبل قليل– بعد كل سقوط

في الأسر. إن ما يشعرني بالسعادة أيضًا هو الإيمان بهذا المستقبل. كل هذه الطموحات تبرق من آن إلى آخر في مخيلتي دون انقطاع. أمل وخداع مؤقت.

رأيت عينَي الظل. حتى إنني نظرت إلى عمقهما؛ وجدتهما تعانيان من التعب والسأم والملل.. عجزتُ عن وصف هذا بمفردات واضحة، صارت الكلمات تأتي تارة وتروح أخرى في مخيلتي. يومئ الظل إلى الباب هذه المرة بعينيه لا بيده. يتبدى بداخلي شعور بالإشفاق نحوه. وفي تلك اللحظة بالضبط، أرى العيون التي أمامي تدب فيها الحياة وتتقد وتبرق. يصيبني هذا التغير المفاجئ بالذهول. هل يتكشف مجددًا كل ما يجول بخاطري؟ أستفيق على أمر صارم وحاسم للظل الموجود أمامي:

- تقدم إلى الداخل!

يجتاحني هذه المرة شعور بالغضب العارم. هذا أنا الذي أصبح في حال يرثى لها؛ فقد صرخ في وجهي بكل قسوة بأنني أسيره. أنزلت عيني إلى الأرض. بعد فترة سرت إلى الغرفة بخطى واثقة وحاسمة وكأنني أريد أن أعبر عن إرادتي.

أتلفّت حولي. أتوجس خيفة من أن أنصاع لأمر ظل جديد أو يعترينى تغير آخر. تماثيل وظلال وهياكل عظمية وجثث ورؤوس مقطوعة... أترنح. تلامس وجهي نسمة هواء باردة. أنظر إلى الغرفة قلقًا متوترًا إذ ربما أرى واحدًا منهم، فأرى أمامي نافذة واسعة بلا ستار وزجاج. ووراءي باب مفتوح. أقف في وسط تيار هواء. وكأن هذا التيار نسيم يهب إلى هنا من العالم الخارجي. هل انتهيت أخيرًا إلى أبعد نقطة؟ هل العالم الخارجي أمامي، أم خلفي؟ وفيما كنت أبحث عن ذاتي مجددًا، إذا بصوت غليظ يتردد مجددًا من الخلف:

- سر إلى النافذة!

تملأ برودة النسيم المنعش الداخل من النافذة أنفي. أسرع إليها كمن ينشد الخلاص لا كمن ينفذ أمرًا. وعندما أصل إلى النافذة، يتردد الصوت نفسه على مسامعي:

- قف هناك!

تسمرتُ في مكاني، وكأن قدميّ غاصتا في قلب مستنقع. نظراتي مصوبة إلى النافذة. يداخلني شعور بالتوق إلى الخلاص من أشياء ما، والمضي إلى أماكن أخرى. يتردد الصوت خلفي مجددًا:

- الآن سر على رسلك، وادنُ أكثر من النافذة.

"طاولة" أول مرة وردت الكلمة كانت بلفظة منضدة، ثم ذكرت في المواضع التالية كثيرًا بلفظة طاولة.

4

دنوت تمامًا من النافذة، ووقفت إزاءها. أخذتُ أطل منها على الخواء، إذ هي بلا ستار ولا زجاج. أصيخ السمع إلى صوت ربما يأتي من الخلف، وعيوني مسلطة على الفراغ. أنتظر على هذا النحو منذ فترة طويلة. لكن إلى الآن لا صوت ولا صورة. لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أجد في نفسي الشجاعة للالتفات والنظر ورائي. ومن جهة أخرى لا أستطيع أن أهزم الفضول وأمتنع عن النظر عبر النافذة على العالم الخارجي. وعلى هذا النحو ظللتُ حائرًا بين هاتين الرغبتين، فيما الزمان يطول ويطول.

استجمعت شجاعتي والتفتُّ إلى الخلف، نظرت؛ لا أحد. ألقيتُ نظرة على الغرفة. لا أثر للظل، وباب الغرفة مفتوح على مصراعيه. إذًا فأنا وحدي، وفي وضع يسعني فيه أن أقرر بنفسي. ماذا لو خرجت من هنا ورحلت؟! لكن إلى أين؟! كل الأبواب هنا تفضي ثانيةً إلى إحدى الغرف الموجودة في المكان. أخيرًا تتغلب عليّ فكرة اتخاذ القرار بعد النظر خارج النافذة. أقترب منها وأطل برأسي إلى الخارج.

ها هو ذا العالم الخارجي أمامي. إنني في أقصى منزل من المنازل ذات الستائر السوداء. يمتد أسفل النافذة شارع معبّد وفسيح. تصطف المنازل بامتداد الشارع، ولا وجود لستائر سوداء على النوافذ. كل النوافذ تطل على الشارع. أطل برأسي مهتاجًا، علِّي أتمكن من رؤية أحد. لكن ليس ثمة أحد لا في النوافذ ولا في الشارع. من أين ظهرت هذه المنازل الخاوية تمامًا؟ هل عدتُ أدراجي إلى الغرفة التي استيقظت فيها؟! أم أنني كنت –وما زلت– هناك؟! أقلّب في ذاكرتي الوليدة، وأدرك أن هذا المكان يختلف عن الغرفة التي سبق أن استيقظت فيها. ماذا لو فرحتُ، وماذا لو حزنت. أولو كان ما عشته حلمًا، هل كان ذلك أفضل؟ أم لو أنه حقيقة؟ فجأة، أراني أسحق بين تروس الحقيقة.

أرى في الأمام مسافرين تحولوا إلى تماثيل؛ سهلًا مترامي الأطراف بلا حدود، لكنه استحال بحرًا من التماثيل. أطل برأسي جيدًا إلى الخارج. أرى هذه المرة مدينة في الخلف، بناياتها متراصة، نوافذها خاوية. إنها مدينة مهجورة إذًا. وكأن كل شيء قد تكشف. إنني في المنازل ذات الستائر السوداء، التي تقع على الحد الفاصل بين السهل المدينة. أشعر بوخز في رأسي. أظلمَت الدنيا في عيوني. وكأنني أرى عمل الزمان وانطواء المكان. يدهمني شعور بالخوف.

أتنفس بعمق. ما دخلي بمشاهد كهذه؟! لست إلا ظلًّا. أنا الآن كذلك في عالم الظلال؛ شارع ومدينة خاوية، وتماثيل... كل هذا خارجي. غير أنني لا أستطيع

أن أمنع نفسي من النظر إلى الشارع. هذا ما حدث معي أيضًا عند استيقاظي لأول مرة. عندها كانت هذه النظرة أكثر ضجرًا ورعبًا، وفوق كل هذا كنت وحيدًا. أما الآن فأنا في عالم جديد تمامًا. وهنا أستطيع أن أتواصل مع البعض. أدقق النظر في الشارع قدر استطاعتي، لكن دون خوف يدفعني إلى المزيد من القلق. في حقيقة الأمر، إن ما يمكن رؤيته في هذا الشارع لا يعنيني كثيرًا. لا يأتي منه غير المسافرين. أما أنا فقد اجتزت مرحلة الرحلة. أغلب الظن أن من يأتي منهم يتحول إلى تمثال في السهل الأمامي. تدور في رأسي أفكار عفوية، غير أنها لا تخيفني. هكذا أنظر إلى الشارع، دون رغبة في أن أمد رأسي وأنظر إلى بحر التماثيل والمدينة الخاوية. الشارع وأنا، وجهًا إلى وجه. يراودني شعور بأن ثمة أشياء غريبة سوف تحدث هنا.

رائحة غبار... غبار كثيف يتبدى من بعيد! والضوء الساقط على الشارع ليس ضوء القمر، إنما ضوء النهار. رأيت مسافري الليل. لقد عشت رحلة الليل هذه، وأعلم أنها تنتهي عند بحر التماثيل. تبدو غيمة غبار في وضح النهار؛ أهي رحلة مختلفة تمامًا ومسافرون غير متوقعين؟ لستُ إذًا في المنزل الذي استيقظت فيه أنظر بشغف وفضول لا بخوف وقنوط. تقترب غيمة الغبار شيئًا فشيئًا، لكنني لا أستطيع أن أدرك منها شيئًا على الإطلاق.

تفوح رائحة دماء... مرة أخرى أشم رائحة غيمة الغبار؛ إنها رائحة غبار مترع بالدماء! ثمة بريق ينبعث من وسط الغبار؛ إنها حِراب! «رائحة غبار مترع بالدماء».. «رائحة غبار مخضب بالدماء»؛ تتسمر هاتان الجملتان في مخي كما المسمار.

غطت غيمة الغبار الشارع برمته. ثمة مشاهد بدأت تتكشف إثر بريق الحراب. أنظر إلى نوافذ المنازل المواجهة باهتياج. البشر. البشر في النوافذ! كلهم متسقو الهندام، تخلو وجوههم من أقل تجعُّد. ونظرًا لاستواء جباههم، يبدو أنهم أبناء من تقلبوا طويلًا في أعطاف النعيم والثراء، لا الشقاء والمعاناة. ويتجلى حشد من الناس داخل غيمة الغبار التي اقتربت جدًّا، يتعالى وقع أقدام.

أنظر لمن يحاولون أن ينسلوا من داخل غيمة الغبار. إنهم ثلاثة رجال في المقدمة، أيديهم مكبلة بالأغلال. وخلف هؤلاء ثلاثة رجال آخرين ببنادق معلقة فوق أكتافهم بحرِاب مثبتة في فوهاتها، وقد أمسك هؤلاء بأيديهم سيور بنادقهم، وعيونهم على المكبلين بالأغلال. ثمة رجل يسير أيضًا بجوار هؤلاء محركًا يديه. أنظر إليه بإمعان، ألحظ مسدسًا معلّقًا في خصره، وقبعة يرتديها فوق رأسه. بمجرد أن أفطن لقبعته، أنظر إلى حملة البنادق فأجد خوذًا فوق رؤوسهم.

يستحوذ الرجال الثلاثة المكبلون بالأغلال على جُلِّ انتباهي. إنهم يلبسون قبعات سوداء، مثل قبعتي تمامًا. يقفزون باستمرار ويُسقِطون القبعات من أعلى رؤوسهم. عندها يسارع الرجل ذو المسدس ويلتقط القبعات التي

تسقط على الأرض، ويضعها من جديد على رؤوس هؤلاء المكبلين بالأغلال، فيعاودون القفز، وتسقط القبعات من جديد على الأرض، ليسارع الرجل ذو المسدس مغمغمًا، ويضع القبعات التي التقطها من الأرض فوق رؤوسهم مجددًا. يستمر هذا العرض العجيب دون توقف. لا يكَلُّ المكبلون بالأغلال من القفز لإسقاط قبعاتهم، ولا يسأم الرجل ذو المسدس من التقاط القبعات ووضعها فوق رؤوسهم.

لا أستطيع رؤية أعين أولئك المكبلين. تحول القبعات السوداء بيني وبينهم مثلما حدث مع المسافرين من قبل. الآن صار هؤلاء الغرباء تحت نافذتي تمامًا. يضيق صدري؛ وتفغم أنفي رائحة الغبار الملطخ بالدماء وغيمة الغبار الغارق في العرق. يسم التجهم وجوه الواقفين في النوافذ المقابلة، يعقبه ابتسامة تبرق وتخبو تباعًا، كأنهم يشاهدون مسرحية غرائبية. أما أنا فبداخلي أشياء تتهدم وأخرى تتحطم باستمرار. يستقطب الرجال الثلاثة المكبلون بالأغلال انتباهي وتركيزي بالكامل. تُرى هل يُجبر هؤلاء على أن يصبح كل واحد منهم مسافرًا يرتدي القبعة؟! لقد قررتُ طواعية أن أصبح مسافرًا مثلهم. فلِمَ يقاوم هؤلاء؟! كيف يستقيم ذلك! حتى إنهم يَبدون كما لو كانوا يؤثِرون الموت على ارتداء القبعات. عظيم، لكن إلى أين هم ذاهبون بهؤلاء الرجال الثلاثة المكبلين بالأغلال؟ وهل هناك علاقة بين ما يحدث وبين المنازل ذات الستائر السوداء.

لا بد أن تكون هناك علاقة. بالطبع، ثمة أشياء جاءت بي هنا وجعلتني أرى ما يدور. لكنني صرت مسافرًا من تلقاء نفسي، ولم أقهر بأي شكل من الأشكال في رحلتي التي استمرت طوال الليل. تُرى ألم تقاوم هذه الصفوف من البشر كي لا يصيروا مسافرين؟! هل تريد المنازل ذات الستائر السوداء تحطيم هذه المقاومة؟! إنه لشيء مخيف لو أن الأمر كذلك! إن وضع المنازل ذات الستائر السوداء قاس ومفزع. أنظر بخوف إلى الواقفين في النوافذ المقابلة. إنهم ليسوا مذعورين مما يجري في هذا المشهد؛ كأنهم يشاهدون مسرحية ما. أهؤلاء الأشخاص الثلاثة فحسب هم من يقاومون المنازل ذات الستائر السوداء في هذه المدينة الكبرى؟! لكن، ما السبب في كونهم ليسوا من المسافرين؟ هل يمكن ألا تقدم بعض المدن أشخاصًا مسافرين إلى المنازل ذات الستائر السوداء؟ تنهال آلاف التساؤلات على ذاكرتي. ماذا لو استطعت أن أفتح ثلمة على ما قبل استيقاظي؟ مستحيل. مستحيل.. أشعر بوخز في رأسي، يصيبني الغثيان. ينضح جبيني بالعرق وأشم رائحة الدماء. أنظر إلى الشارع، أرى الأحداث الغريبة مستمرة. تتكاثف عملية وضع القبعة وإسقاطها تحت النافذة. ولا يستطيع الرجال المكبلون بالأغلال والرجال الثلاثة ذوو الحراب الثلاث، والرجل الممسك بالمسدس، أن يتقدموا بأي حال من الأحوال. علاوة على أنهم لا يعبؤون أيضًا بمن ينظرون إليهم.

بين الرجال المكبلين بالأغلال، كان ثمة رجل متوسط الطول، أسود العينين، رث الثياب، سرعان ما كان يُسقط القبعة الموجودة على رأسه ويصرف ناظريه تلقاء النافذة، محاولًا النظر إليَّ. لقد كانت نظراته عميقة وذات معنى، كأنها تستجوب الزمان والمكان. لا أستطيع أن أحوّل عيني عنه. بيد أنه لا يستطيع التحرر من القبعة، لذا لا يستطيع النظر إليّ مهما حاول. ينتفض ويتململ حتى يفلح في ذلك، إذ لا يريد الاحتفاظ بالقبعة على رأسه ولو للحظة واحدة. وفي النهاية يدرك التعب الرجل الممسك بالمسدس، ويحتفظ بالقبعة التي التقطها من على الأرض في يده بدلًا من الإسراع بوضعها فوق رأس الرجل. كان هذا كافيًا لكي أتمكن من النظر إلى الرجل المكبل بالأغلال عينًا لعين. حينئذٍ، كانت شفتاه الجافة والمتشققة تتحركان، وكان يسعى لترطيب شفتيه التي جفت من العطش والتعب بلسانه. أصيخ السمع إليه، وأنظر إليه بجل انتباهي. لو استطعت أن أسمع ما ينطق به فسوف أبدأ في التواصل مع العالم الخارجي. نعم، نعم. إنني أسمع وأفهم؛ أفهم رغم أن الكلمات تنساب من بين شفتيه مشتتة مبعثرة. ها هو ذا الرجل المكبل بالأغلال يتحدث فيقول:
- يا بني! هل أخذوك وجاءوا بك أنت أيضًا إلى هذا العالم الذي تفوح منه رائحة الدم، وتهب منه ريح السموم القاتلة؟ أم تراك جئتَ إلى هنا مع جماعة لا تعرف شيئًا؟
يزدرد الرجل المكبل ريقه، بيد أن ما قاله لا يحدث أي تداعٍ للأفكار لدي. أستمع إليه، لكنني لا أستطيع فهم ما يقول. يضطرب فيما يحاول إبلاغي بما يريد، ويواصل الكلام بتململ شديد، فيقول: - هذا معقل أعداء الإنسانية.
ويردف:
- ها أنا ذا أقاوم. وأنت أيضًا ترى بعينيك. قاوم، قاوم أنت أيضًا! مزق تلك الستائر السوداء! إياك أن تيأس وتفقد الأمل! قاوم ما استطعت لذلك سبيلًا. لقد باءت هذه البقاع باللعنة. واستفاد الملاعين من غفلتنا. وبغفلتنا صرنا عونًا لهم دون أن نقصد. لقد صببنا جام لعناتنا على هذه الأماكن! وقد ظهرت المنازل ذات الستائر السوداء من تزايد هذه اللعنات المريعة. مزق ستائر اللعنة هذه! وإياك واليأس. لعلّي تأخرت كثيرًا في المقاومة، لكنني لم أفقد الأمل حتى وأنا في طريقي إلى الموت. وعلى الرغم من أنهم زرعوا هذه السهام الخادعة في مخي، لم يستطيعوا إخضاعي قط. فالموت لديَّ أهون. وسيكون هذا الموت شمسًا تضيء الغد. إنني أعلم علم اليقين أن أجيال الغد ستمزق الستائر السوداء، وتحطم سهام أعداء الفكر، وتذيب العقول التي تجمدت وتدفئها في حرارة الحب والفكر. كأني أرى هذا كله، وأجدد أملي دائمًا. أنت أيضًا عليك أن تسير صوب ضياء المستقبل. يا بني أنا!
انتفض الرجل الممسك بالمسدس وكأنه يستفيق من سبات عميق راح فيه، ووضع القبعة الموجودة في يديه بقسوة على رأس الرجل المكبل بالأغلال،

الذي كان يتحدث معي. وغمغم بأشياء غاضبة وحانقة. كنت أستطيع سماع ما يقوله كلغط وجلبة. وبقدر ما ضرب الرجل المكبل بالأغلال الأرض بقدميه، لم يستطع أن يسقط القبعة من فوق رأسه؛ حيث كان الرجل الممسك بالمسدس يكبسها ويحكمها فوق عينيه، ولا يتركها قط.

لم أتمكن من رؤية عينَي الرجل المكبل بالأغلال، إذ حال طرف القبعة اللعين بيني وبين ذلك. أخذ الرجل يقاوم هذه المرة لأجل البقاء لفترة أطول تحت النافذة. لذا أسرع الممسكون بالبنادق فورًا بإيماءة من الرجل الذي يحمل المسدس، وانهالوا عليه بكعوب بنادقهم. يقاوم وكأنه لم يكن يحس بأي شيء على الإطلاق. وهذه المرة يتدخل الرجل الممسك بالمسدس ويقبض على أذن الرجل المكبل بالأغلال، ويجذبه سريعًا من تحت النافذة. تعلو زمجرة من ناحية أولئك الواقفين في نوافذ المنازل المواجهة. ضد من كان هؤلاء؟ ضد الرجل الممسك بالمسدس، أم ذلك المكبل بالأغلال؟ لا يمكنني الجزم. يفوح الجو برائحة الدم، ويصب وابل لعناته على هذا المكان. العالم الخارجي قاس بلا رحمة. العالم الخارجي مقبرة مخيفة! والناس في العالم الخارجي يذبحون بعضهم. وأنا في المنازل ذات الستائر السوداء؛ حيث تفوح رائحة العظام العفنة والرطوبة. هل هذه الرائحة أهون من رائحة الدم. يراودني شعور بالاستهانة بالعالم الخارجي. بيد أني هنا أسير. أسير في المنازل ذات الستائر السوداء. وأمامي طريقان: إما إلى الهاوية أو الخلاص. يترامى إلى أنفي من الخارج رائحة غبار مترع بالدماء. في رئتيّ دم متخثر فاحم السواد! فجأة، تتداخل الروائح كلها مع بعضها؛ رائحة الغبار المترع بالدماء ورائحة العظام المشبعة بالرطوبة. ينقبض قلبي، وتثقل رأسي.

انهارت أولى ذكرياتي أو كادت... انثلم مخي بثلمات تتسع وتمتد إلى السنوات الماضية. ومضات تسقط على فترة ما قبل استيقاظي في المنزل الموجود في تلك المدينة العجيبة، بيد أني لا أستطيع إدراك أي شيء قط. تتناثر المفردات في ذاكرتي وتتبعثر، غير أنها لم تكن تستطيع أن تحط جنبًا إلى جنب لتُشكِّل ذكرى ما. ولو أن كلمتين استطاعتا أن تجتمعا جنبًا إلى جنب، ولو أمكنني أن أركز في إحدى هذه الومضات، فمن الجائز أن تغيرني ذكرى صغيرة من قمة هامتي إلى أخمص قدميّ.

مَنْ كان ذلك الرجل المكبل بالأغلال، الذي حاول أن يخبرني أشياء فيما يقف تحت النافذة؟ لقد قال لي: «يا بنيّ»! يتردد صدى لكلمة «أب»، بجوار هذه الكلمة. بيد أني لا أستطيع إقامة أي علاقة فيما بينهما. كأنني أرى وميض الماضي، لكنه لا يتنامى في ذهني، بل يتشتت. أشعر بوخز بداخل مخي، وكأن رأسي قِدر فارغ تمامًا. مَنْ أنا؟ لو أفلحتُ في فكِّ هذا اللغز سيتكشف كل شيء ويتضح لي. أتحامل على نفسي باستمرار، علِّي أجد مخرجًا مما أنا فيه، وأستطيع رؤية ما وراء هذا الوميض.

يدنو الوميض تارة، ويبتعد تارة أخرى؛ يرتعش الظلام الذي يلفّ السنوات السابقة على استيقاظي مع لمعان الومضات، لكنه لا ينقشع. لا أستطيع أن أفطن إلى أي نقطة على الإطلاق. لا يزال ذهني مشوشًا، ولا تزال كلمتا «أب» و«ابن» تحلقان من مكان لآخر مثل يراعتين مضيئتين في بحر من الومضات.

الأب، والابن، وأنا... لقد خاطبني ذلك الرجل المكبل بالأغلال قائلًا «يا بني»! إذًا ثمة علاقة تصل بيننا. أنا الابن. نعم نعم، أنا الابن! هل كانوا يُجْبِرُونَ والدي حتى يصير مسافرًا يضع قبعة؟ لو صح ما قاله، فأنا في بؤرة اللعنة بالتحديد. هل يسعون إلى تغطية عيون الناس بالقبعات لئلا يروا ما حولهم، لئلا يشهدوا على ما يحدث؟ إن العيون لا تموت. العيون لا تنسى، العيون تنفذ إلى غور الأشياء وتسبرها. هل كان ثمة ضوء كامن في العيون التي لا يمكن أسرها قط، من شأنه أن يدك المنازل ذات الستائر السوداء ويسويها بالتراب؟

حسنًا، لِمَ لَمْ ينظرْ إليَّ هذان الرجلان المكبلان بالأغلال؟! إنهما لم يلتفتا إلى صديقهما الذي كان يتململ وهو يقول لي: «يا بني». تُرى ألم يكن أولئك الرجال الثلاثة المكبلون بالأغلال يعرفون بعضهم؟ إنهم أناس يعيشون المصير نفسه، لكنهم لا يفطنون لبعضهم! كان هناك ظلال لا حصر لها في المنازل ذات الستائر السوداء. ربما كان أبناء هذين الرجلين المكبلين بالأغلال يوجَدون أيضًا بين تلك الظلال. لِمَ اختاروني كي أشاهد هذه الواقعة الغريبة؟ سأجنُّ؛ عاصفة من هذه التساؤلات المتداخلة والمتشابكة توشك أن تقضي عليَّ. أود أن ألقي بنفسي من النافذة. أريد أن أعود إلى العالم الخارجي حتى لو صرت جثة هامدة.

أهُمُّ بالقفز من النافذة؛ لا أستطيع أن أتحرك. تراني فقدتُ القدرة على الحركة مجددًا؟ أصرخ كي أسمِع صوتي لمن في المنازل ذات الستائر السوداء، كما أولئك الموجودين في العالم الخارجي، لكن لا صوت لي... تصلبت أحبالي الصوتية، وعلق لساني بحلقي. أنتفض من أجل الفكاك، لكن لا حراك قط في يديّ وفي قدميّ. كم يمكنني البقاء أكثر في المكان المجمد وفي إطار الزمن المكسور في هذا العالم المختنق! حواجز لم أستطع اجتيازها وكلمات لم أستطع إدراك معانيها. أسدلت الستائر السوداء على كافة الجهات، وفي مخي ستائر سوداء متراكمة بعضها فوق بعض. أنا ظل، وأنا ستارة سوداء. أفزع من صوت مرتعش يتناهى من ورائي: - ما الخطب؟ إنك تبدو حزينًا كاسف البال!

هذه المرة، ألاحظ نبرة سخرية كامنة في ذلك الصوت. لعل هذا هو شعورٌ زائف بالشفقة. أرد بنبرة باكية: - من ذلك الرجل؟

لساني. نعم أستطيع أن أحرك لساني؛ أستطيع النطق. إذًا فقد تراخت أحبالي الصوتية، وانحلّت عقدة لساني. عليَّ إذًا أن أصرخ فورًا قبل أن أضيع الفرصة.

لا تزال جماعات من الناس تقف في النوافذ المواجهة؛ أستطيع أن أسمِعهم صوتي. وهكذا قد يتردد صدى صوتي في العالم الخارجي، وعليه قد يرتد إليَّ بشكل مختلف. لكنّ ثمة سؤالًا يراودني ولا ينفك عني، يملأ جنبات الحجرة كلها ويقرع سمعي: - هل تعرفتَ إليه؟

تتبادر كلمتا «أب» و«ابن» إلى ذهني متلازمتين من جديد. كلمة واحدة فقط تنساب من بين شفتيّ: - نعم!

لا أعرف يقينًا لِمَ أجبتُ بهذه الإجابة. لعلي كنت أرى ذلك الرجل المكبل بالأغلال لأول مرة. وحينما رآني وقد لذتُ بالصمت، واصل الصوت كلامه: - إنه حتمًا سيلقى الجزاء الصارم لعدم اعترافه بقوانيننا وشرائعنا. إننا في المنازل ذات الستائر السوداء. إننا كائنات مباركة. مهمتنا هي إنقاذ البشرية. أما هؤلاء فيسعون إلى إحداث الفوضى وخرق النظام. ولكي لا تتردى البشرية في الفوضى علينا تحقيق النظام. يتعين علينا إظهار سيادة المنازل ذات الستائر السوداء وحزمها في موضوع النظام أمام كل الناس. ولهذا لا مناص من الإطاحة بالكثير من الرؤوس.

أنظر إلى أولئك الواقفين في النوافذ المواجهة، فيما كان يتحدث من خلفي. أود أن أصرخ وأسمِعهم صوتي، غير أن الواقف في الخلف لا يتركني وشأني، يقول: - إلى من تنظر؟

أتعتع قائلًا:

- إلى الواقفين في النوافذ المواجهة.

- هؤلاءِ؟ إنهم ليسوا من العصاة. لقد اعتنق هؤلاء شرائعَنا في التو واللحظة. كل واحد منهم إنما هو رجل مخلص من رجال المنازل ذات الستائر السوداء. الزمان زماننا؛ ليس بمقدور أحد أن يناهضنا. وها أنت ذا رأيت بعينيك من تجاسروا على ذلك.

أصمتُ. ويذوي احتياجي إلى إسماع صوتي لمن هم في مواجهتي. أطلُّ برأسي من النافذة، أحاول رؤية الرجال المكبلين بالأغلال. إنهم لم يتواروا عن الأنظار بعد؛ ماضين بطول الشارع ميممين شطر بحر التماثيل، لا يلتفتون ولا ينظرون خلفهم. يواصلون معاركهم مع القبعات دون كلل. إن وقوع المرء تحت سطوة قبعة سوداء صغيرة للغاية ليس بالأمر الذي يصدقه العقل. هل القبعات السوداء هي ظلال المنازل ذات الستائر السوداء المنعكسة على العالم الخارجي؟ صَمَتَ مَنْ خلفي. أظنه ينتظر أن أعترف لنفسي بأنني قد هُزمت. أما أنا فقد لبثتُ مبهوتًا في حجرة ضيقة في المنازل ذات الستائر السوداء، وقد جذبتُ رأسي من العالم الخارجي وصرتُ في وضع لا أعرف فيه ما عليَّ أن أفعل.

***

صوت خشخشة وتراخ في جسدي؛ كأني أستيقظ من سبات عميق، أود أن أتثاءب غير أن شيئًا لا يصدر مني. متى أسدلت الستائر السوداء على عينيّ، كيف لي أن أعرف ذلك، لكنني أرى الستائر تنحسر واحدة تلو الأخرى مع صوت الخشخشة. لا ألبث أن أرى ما حولي واضحًا وجليًّا. أول ما أمكنني رؤيته كان ثلاثة رجال يقفون أمامي بالتحديد. داخلني شعور بأنني كنت مع هؤلاء منذ عرفت نفسي. يتحدثون فيما بينهم حديثًا مؤثرًا ومن صميم القلب. أستطيع أن أفهم أحاديثهم، فهذه أحاديث مألوفة، من صميم قلوبهم، ويتردد صداها في قلبي كلمة بكلمة. لكنهم يتحدثون فيما بينهم وكأنهم لا يدركون وجودي. أمل وفرح، خوف وقلق، يتقد ويخبو في داخلي. تُراني أستطيع أن أُسمِع هؤلاء صوتي؟! أجرب هذا لكنه لا يحدث. أفهم أنني أستطيع رؤيتهم وسماعهم فيما لا يستطيعون هم. هؤلاء في عالمي، لكنني لا أنتمي إلى عالمهم. أستطيع الآن أن أسمع أحاديثهم فحسب.

- يا له من أمر رهيب! انضم ابنك هو الآخر إلى زمرة الملاعين.

قال الآخر:

- ابني!

وازدرد ريقه. كان صوته يتصاعد من الأعماق، وينتشر في أرجاء المكان على شكل موجات.

كرر:

- ابني!

وواصل:

- لقد خُدِع. ولعل ذلك كان خيرًا لنا من ناحية. فلو أن التضحية به ستؤدي لاستيقاظ الكثيرين فلن أغتم. سيكون في ذلك خلاص للبلاد. ولو أن خلاصًا كهذا سيتحقق ففداؤه ألف ابن من أبنائي وليس ابنًا واحدًا، حتى إن لم أستطع رؤية نهاية ذلك النظام القاتل والكابوس المروع، فإن مجرد الإيمان بأن مصيره إلى زوال ذات يوم هو أعظم سعادة. ولو أنني مت على هذا الاعتقاد، فسوف أعتبر نفسي سعيدًا جدًّا.

ويقول آخر:

- لقد سيطر هذا القدر المشؤوم على البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

ويردف بعدها:

- لكنكم تقولون إن الفجر سينبلج، والستائر السوداء ستُمزق. أليس الأهم هو ما سيعقب ذلك؟! ماذا سيحدث عندئذٍ؟! هل سينشب الخلاف بين من استعادوا الوعي وأفلتوا من الظلام، فيدق بعضهم أعناق بعض، أم يسيرون متكاتفين متآزرين نحو مستقبل باهر مرددين أناشيد الخلاص؟! هذا ما يقلقني ويقض مضجعي.

- بالقطع سوف يجيء الأصلح وتبزغ الشموس المباركة بعد هذه المرحلة، فالليل دائمًا ما يأتي بين نهارين، وعلينا أن نؤمن بهذا. لو لم نؤمن به فإننا سنفقد قدرتنا على المقاومة إزاء الموت. وهذا بدوره سيزرع اليأس فيمن يتبعوننا. علينا أن نمضي نحو الموت ضاحكين، علينا أن نشعِر من يسوقوننا إلى الموت بأننا نحتقرهم ونزدريهم.

إنني أرى الخير دومًا يا رفاقي. فلنُضحِّ بأنفسنا؛ وليأتِ الجيل الذي يعقبنا وليُضحِّ هو الآخر بنفسه. حسبنا أن تنجو الإنسانية، ولتجف أوحال اللعنات التي تُصب علينا. ولينمُ الكلأ الأخضر في حديقتنا، ولتتفتح الورود وتغرد البلابل. وما علينا الآن إلا الدعاء. علينا أن ندعو بصدق وإخلاص ألا يكابد أهلنا المزيد من المحن، وألا يتحول من لا يُعملون فكرهم إلى تماثيل، ألا يتحول من يعملون فكرهم إلى ظلال. وليعم الحب ولتغمر الرحمة عالمنا.

صرختُ:

- ماذا عني أنا! هل تحولتُ إلى ظل لأنني فكرتُ وأعملتُ عقلي؟

وعلى الرغم من أنني صحت بهذا بأعلى صوتي، لم يبد الرجال الثلاثة الموجودون أمامي أي ردة فعل قط. وصاروا يرددون معًا وكأنهم جوقة من المرتلين: - علينا أن نتضرع إلى الله وندعوه. هذه هي مهمتنا على الأرجح. وهذا هو آخر دعوانا؛ الدعاء بإنقاذ الإنسانية. هذا هو آخر دعوانا.

سرتُ بدوري إليهم لألتحق بهم، وما إن خطوت خطوة حتى اختفى الرجال الثلاثة في لمح البصر. الصمت مطبق على جنبات المكان، وأنا وحدي. هرعتُ إلى النافذة، صرفت نظري ثانية نحو الشارع. نعم. الرجال الثلاثة، الرجال الثلاثة في إحدى الساحات. ماذا جرى لهذا الشارع حتى تحول سريعًا لهذه الساحة. أنظر إلى الساحة تغمرني الدهشة. نعم نعم، الرجال الثلاثة المكبلون بالأغلال موجودون هناك، ووجوههم متجهة إليّ. هؤلاء هم الرجال أنفسهم الذين شهدت أحاديثهم قبل قليل! غير أنهم قبل قليل لم تكن أيديهم مكبلة بالأغلال. أين أنا؛ أفي حلم أنا، أم في قلب الحقيقة نفسها؟ أَلْتَفِت وأنظر حولي مذعورًا، أنا في الغرفة التي أتيتُها مؤخرًا، لم يتغير فيها أي شيء قط. أنا بمفردي تمامًا، لا ظل، لا همس. أتسمر وحدي في الحد الفاصل بين العالم الخارجي والمنازل ذات الستائر السوداء. هكذا أقف مبهوتًا على عتبة لم أستطع أن أخطوها بأي حال من الأحوال. أنظر لمَن في هذا العالم الخارج، لكنني لا أستطيع تجاوُز العتبة والوصول إليهم. لساني مقطوع، مفاصلي كلها مكبلة. لا أستطيع أن أحرك ساكنًا. يتكثف أمام عينيَّ ما يسود العالم الخارجي من آلام ومظالم، فيما يهبط ظل المنازل ذات الستائر السوداء على كل مكان.

تغص الساحة التي يوجد فيها الرجال الثلاثة المكبلون بالأغلال بجموع غفيرة من الناس. تترامى الجلبة المتصاعدة من الساحة حتى مسامعي. أبصر أمامي أعين المكبلين بالأغلال. ألحظ ابتسامة ترتسم على ثغورهم، وأرى منضدة

عظيمة ذات سيقان ثلاث أمام كل واحد من الرجال المكبلين بالأغلال، تتأرجح منها الحبال. وعندما أدقق النظر أعرف أنها مشانق. تستدعي كلمة مشنقة في عقلي كلمتَي «موت» و«شنق»، وتنتظم علاقات مخيفة فيما بينها. ثلاثة رجال مكبلين بالأغلال وثلاث مشانق... يطالع من تغص بهم الساحة هذه المشانق التي تغتال البشر وكأنهم يطالعون شيئًا عاديًّا. صوت صافرة... لا يبقى أحد بين الرجال المكبلين بالأغلال والمشانق. يصبح الرجال المكبلون بالأغلال في مواجهة المشانق. تموج الحشود الموجودة في الساحة قليلًا، وينفتح طريق بين الرجال المكبلين بالأغلال والمشانق. يخيل إليّ أنه لم يكن هناك طريق كهذا قبل قليل. يظهر ثلاثة رجال مسلحين بالبنادق إلى جوار الثلاثة المكبلين بالأغلال. أشعر وكأنني لا أعرف هؤلاء أيضًا. يسير أولئك المكبلون بالأغلال إلى المشانق في المقدمة، ومن ورائهم المسلحون بالبنادق. سرعان ما ينتهون إلى المشانق. ويرتقي المكبلون بالأغلال الكراسي الموجودة أسفل المشانق. ينظرون الآن.. ينظرون إلى الجميع أسفل منهم. أستطيع أن أرى ابتسامة ترتسم على وجه كل واحد من الرجال الثلاثة المكبلين بالأغلال، الذين وقفوا في أعلى نقطة من الساحة.

تُلف حبال المشانق حول أعناق الرجال المكبلين بالأغلال، فيما هم يبتسمون وينظرون إلى السماء والمشانق والزاحفين تحت أقدامهم. هل كانوا يشعرون بالسعادة والافتخار بأنهم بشر فائقون؟ وكان الرجل المكبل بالأغلال الذي صاح فيَّ قائلًا: «يا بني»، معلقًا في المشنقة الوسطى. لم يعد ينظر إليّ. لم يكن ينظر لأي أحد من الأساس، إنما يقف وقد حوّل نظره إلى السماء. وكأني أرى ابتسامة عميقة في عينيه السوداوين. أجد نفسي في ضياء هذه الابتسامة الذي تعمقت بقدر السماوات والأرض. هل أنا بين أولئك الذين يحتشدون في الساحة، أم أنني في أحد المنازل ذات الستائر السوداء؟ الحقيقة الوحيدة التي أستطيع أن أراها هي أن الرجال الثلاثة المكبلين بالأغلال معلقون في أعواد المشانق. هل كانوا قريبين مني حتى إنهم كادوا يلامسون وجهي. والقبعات، أين هي القبعات؟ متى تدثر المعلقون في المشانق بهذه الأغطية البيضاء؟ أليس هناك قبعات سواء؟ أليس هناك ستائر سوداء؟ تدثر الرجال الثلاثة بالبياض، واستحالت كل الأجواء إلى اللون الأبيض.

تملأ الأجواء أنشودة نصر، لُحنت على صرير المشانق؛ تتحدث عن انتصار العقيدة وهزيمة الموت، على عكس الموت الذي خجِل من المعلقين في المشانق. على الأرض ما يُشبه ظل الموت، والبشر يرتعشون كأشباح بداخله. أما أنا فأراقب ما يجري دون خوف ولا اضطراب، محتميًا بضياء ابتسامة الرجل المعلق في المشنقة الوسطى، التي ملأت ما بين السماوات والأرض.

الموتى والأحياء... هل المعلقون في المشانق هم الموتى، أم أولئك الذين يتطلعون إليهم؟ إن من يعيشون موتى! ومن يُظن بأنهم موتى إنما هم الأحياء!

هل تستدعي الكلمات التي يتردد صداها في رأسي أفكارًا وخواطر جديدة تمامًا لعقلي. ماذا لو استطعت أن أدرك هذا؟ ماذا لو استطعت أن أميز الميت من الحي؟

يتدفق سيل من البشر من الساحة إلى الشارع. وتمر الآن جموع غفيرة من الأهالي عبر الشارع الذي سبق أن مر منه الرجال المكبلون بالأغلال والرجال المسلحون. أقول جموعًا غفيرة من الأهالي، لأنهم كانوا شديدي التباين في لباسهم وهيئاتهم. يسيرون بشكل عفوي وغير منظم؛ إنهم ليسوا مسافرين. يتحدثون فيما بينهم، وأستطيع أن أفهم أحاديثهم.

عيناي على المعلقين في المشانق، ومسامعي على الجمع الغفير الذي يملأ الشارع. لا أستطيع القطع بأن المعلقين في المشانق موتى أو أحياء، غير أن ابتساماتهم التي تنعكس عليّ من وجوههم تضيء العالم باستمرار. لا يزال هؤلاء ينظرون من الأعلى إلى العالم الذي أضاؤوه بابتسامتهم. وأحاديث من يسيرون في الشارع بشكل عشوائي، هي الأخرى عشوائية ومتقطعة. كلماتهم جوفاء غير منمقة خادشة للأسماع. تصطف بعض الجمل التي تشكلت من الكلمات التي استطعت أن أعيها، كالتالي: - المنازل ذات الستائر السوداء راسخة مستقرة.

- سيوفقون في مسعاهم خلال فترة وجيزة.

- بالتأكيد، لا شك في ذلك.

تختلط أحاديث الواقفين في النوافذ التي تصطف بطول الشارع، مع أحاديث جموع الناس الموجودين في الأسفل. في هذه الأثناء، أنذعر من صوت ترامى من النوافذ إلى الشارع وقرع مسامعي: - أبي! لماذا شنقوا هؤلاء الرجال؟

يتردد صدى كلمة «أب» هذه في قلبي، وتسقطني في هوّة سحيقة من تداعي الأفكار والخواطر لا قبل لي بأن أنتشل نفسي منها. يتولاني الفزع وأترنح ثانية بسبب صوت أجش أزعج مسامعي: - لقد ناوؤا المخلِّصين، ولذلك شُنِقوا يا بني.

وتنزل كلمة «بني» هذه المرة على رأسي كالصاعقة. ويتردد صوت عذب رخيم: - أين هؤلاء المخلِّصين يا أبي؟

- إنهم في المنازل ذات الستائر السوداء...

يتدفق سيل من البشر؛ خليط من الرجال والنساء والشباب والعجائز والأطفال، لا ينقطع على طول الشارع. من أين جاء هذا الكم من البشر؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ لِمَ لا يلتحق مَن بالنوافذ بهؤلاء وينضمون إليهم؟ ينشغل بالي بكلمات متناثرة لا أستطيع الجزم من أين أتت، من الشارع، أم من النوافذ؟ وأتوق لاكتشاف العالم الخارجي.

- أزفت أيام النور.

- إننا مضطرون لمسايرة العصر.

- سوف تكتمل الثورة.
- هل كان أولئك المشنوقون أشرارًا يا أبي؟
عندما أسمع هذا الصوت العذب أنصت لما يقول. بيد أن الصوت البغيض المزعج يعاود قرع مسامعي: - عندما تكبر، لن يوجد هذا النوع من البشر الجهلاء.
- تسري الأمور في أعنتها.
- في أعنتها...
وإذا بقهقهة تغلب على كل الأحاديث:
- ها ها هاااا
استحالت الأحاديث تدريجيًّا إلى قهقهة تشوش بالي، وتبلبل خاطري. ومن حين لآخر تقع عليّ كلمتا «أب»، و«ابن» بوقع مخيف. أمد بصري إلى الرجل المعلق في إحدى المشانق، أغمغم بيني وبين نفسي؛ الأب والابن... الرجل المعلق في المشنقة، وأنا، من ينظر إليه من نافذة المنازل ذات الستائر السوداء.... ألا يمكنني أن أتحدث مع الرجل المعلق في المشنقة مثلما تحدث الابن والأب الموجودان في الشارع؟ ألم يكن ذلك الرجل هو من وقف تحت النافذة ونظر إليّ وصاح قائلًا: «يا بني»؟ أما أنا، فعلى الرغم مما بذلته من مجهود، لم أستطع أن أُسمِعه صوتي إلى الآن. يعتصر الألم قلبي، ويصيبني سيل الكلمات المتدفقة لذهني بالتشتت. أود الهروب من الكلمات. أود الفرار إلى العالم الخارجي. رحت أقفز وأقفز بالضبط مثلما كان يفعل ذلك الرجل المكبل بالأغلال كي يتخلص من القبعة، حتى أزيح وطأة الكلمات والأفكار عن ذهني وأتنفس الصعداء. وفي النهاية، أجد نفسي على عتبة باب آخر.

****

أبصر أمامي بهوًا كبيرًا؛ أكبر بكثير من الغرف التي دخلتها إلى الآن. أنظر إلى العتبة التي توقفتُ أمامها. ألا تشبه هذه العتبة سابقاتها؟ حزمة من المتناقضات الجديدة تتهول برأسي. أنظر إلى البهو كي أستطيع التخلص منها. هنالك طاولة تتوسط البهو تمامًا، تلتف حولها الظلال. اقتربت. أفسحَت الظلال لي الطريق على التو. أدرك أنهم يريدون مني الاقتراب من الطاولة. إنني أمامها. يصيبني الذهول بمجرد رؤية الرؤوس الموجودة فوقها. ثلاثة رؤوس فوق الطاولة! بقع الدم تتناثر هنا وهناك، ودماء توشك على التخثر تعلو الرؤوس. وفي عينيّ اللتين أصابهما الاحتقان والاحمرار مشهد مشوش، تختلط فيه كل من المنازل ذات الستائر السوداء والظلال والرؤوس الدامية. قميص دامٍ على ظهر عالم أسود مشئوم.
ظلم وجور ووحشية في العالم الخارجي... وتعذيب يُمارس في المنازل ذات الستائر السوداء. لكن، هل يُمارس هذا التعذيب على الموتى أم الأحياء. أدركت أن هذه هي رؤوس من عُلِّقوا في المشانق. لقد أُعدم هؤلاء بالمشانق

لا المقاصل، فمن من أين إذًا تجيئني كلمتا «مقصلة»، و«إعدام»! أمامي بالتحديد رأس الرجل الذي قال لي: «يا بني»، موجودة بين رأسين. كانت عيناه تنظران إليّ وقد تفتحتا قدر استطاعتهما، ولم يكن يسمهما أدنى شحوب، بل ابتسامة وضّاءة. وفي رقبته المقطوعة قطرات دم متخثر. تأملتُ لفترة في الضوء الذي في عينيه. أمضي إلى الرأس دون أن أعي ما أفعل. تحاصرني الظلال ولا تدعني بمفردي. أصرخ بكل قوتي: - إنه يخصني... يخصني وحدي... اتركوني! أود أن أمضي إلى هاتين العينين.

تُمسك بي الظلال بإحكام، وكلما أتململ يُحكمون قبضتهم أكثر. طوق في رقبتي يضيق ويضيق. تحتقن حنجرتي، ويُبح صوتي، لعله لا يخرج قط. ما كنه هذا الشيء؟ الجنون! أعيد الكرّة للمرة الأخيرة، أمد يدي، ولكنني لا أستطيع الوصول إلى الرأس. هل بإمكاني أن أمد يديّ في الحقيقة. لا أستطيع التملص من الظلال التي انقضت عليّ. أنا ظل محاط بالظلال، ولا يمكنني التحرك؛ بقيت محصورًا بين فكّي كماشة، أنسحق وأنسحق باستمرار.

في هذه الأثناء رأيتُ شخصًا، وقد دنا من الطاولة وفي إحدى يديه سكين، وفي الأخرى قبعة سوداء. جذب إليه الرأس الذي أريد أن آخذه، ووضعه أمامه. وأخرج عينَي الرأس بعناية ووضعها في القبعة الموجودة في يده. لا يسعني أن أفعل شيئًا سوى أن أتابع ما يجري بخوف وحنق. أتململ فحسب. أتململ في محاولة للتملص. ثم قطع أذني الرأس ووضعها في القبعة إلى جوار العينين. أصرخ: - أيتها القبعة السوداء، أيتها القبعة اللعينة! احتفظي بالأذنين لديك، وأعطني العينين!

ومثلما لا أستطيع أن أوصل صوتي إلى الظلال، لا صدى من القبعة أيضًا. وكأن هذه الكلمات تولد لدي وتفنى. أتوسل هذه المرة مجددًا لمن حولي: - أعطوني هاتين العينين. لا وجود لي دونهما. ولا يمكنني العثور على ذاتي لولا نورهما. إنني أريد ذاتي في نور هاتين العينين. أرجوكم، أتوسل إليكم أن تعطوني العينين.

لا يعبأ أحد بي. أصرخ.

- أيتها القبعات، أيتها القبعات السوداء! أيتها القبعات اللعينة التي سلبتني مني.

يبدو أن أحدًا لا يسمع كلماتي، إذ لا يوجد أي رد فعل قط فيمن حولي. تدمع عيناي، ولأول مرة ألحظ هذا. أذرف دموعي فوق الظلال، أريد أن أخنقها. أبكي، وأبكي، لكن تنضب دموعي هذه المرة، وأحس أنهم أحكموا الإمساك بي أكثر.

لعل الرجل الممسك بالسكين هو الآخر ظل. يُخْرِجُ عيني الرأسين الآخرين ويجدع أذنَيهما، ويلقي بهما داخل القبعة. أفرغ ما تراكم بداخلي من حقد وحنق على قاتل الرأس ذاك. لا يعبأ بي، ويمد القبعة المحمولة على يديه إلى أحد

الظلال الموجودة بجانبه، ويأمره قائلًا: - خذ هذه القبعة واحملها بما بداخلها إلى الرئيس!

ينحني أمامه قائلًا:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

ويأخذ القبعة بإجلال.

يمسك الظل القبعة بكلتا يديه بعناية وإجلال، ويبتعد. أحاول التملص من أجل الجري وراءه، لكن دون جدوى... أواصل المقاومة وأنا على يقين من أنني لن أستطيع أن أحقق نتيجة. وفي هذه الأثناء يتبدى ظل أمامي، ويصيح في وجهي بحنق: - ماذا دهاك؟

أرد:

- العيون. إنها تخصني...

- إنك ظل. لو أعطيتك إياها فلن تستطيع أخذها، حتى إنك لا يمكنك لمسها. أين العدد ستة؟ هل نسيته؟ لم يعد لديك الحواس الخمس، تتحرك فقط بحاستك السادسة. العيون مادية، وأنت مجرد. بقيت العيون والآذان في العدد خمسة. ومن الآن فصاعدًا، ليس هناك حواس خمس بالنسبة إليك. سوف تُقدم العيون والآذان للرئيس. وبعد مرحلة ما سوف ترغب أنت أيضًا في أن تقدم هذا النوع من الهدايا. ومع هدية ستُقدمها، سوف تقطع مرحلة، وتكتسب حاسة سادسة جديدة فيما وراء الحواس الخمس. وحينئذٍ ستخجل من تصرفاتك الراهنة هذه. تفهم أليس كذلك؟ إنك تتقدم بخطى سريعة في طريق التحول إلى مخلِّص. فلا تلقِ بنفسك في المهالك.

قلتُ:

- ظل.

وطوّقتْ هذه الكلمة كل كياني. فقال:

- إنك ظل.

قلت:

- أنا ظل!

صرختُ في المكان رافعًا صوتي:

- نحن ظلال!

ترددَت صيحة جماعية ملأت المنازل ذات الستائر السوداء كافة:

- نحن ظلال... نحن ظلال!

وانضممتُ بدوري وبكل كياني إلى جماعة الصائحين هذه، وفجأة، برقت أمامي بارقة أمل. الرئيس؟ أي نوع من الرجال هو؟ هل هو الآخر ظل؟ ترى أكان يعطيني العينَين؟ الآن لا هَمَّ لي ولا مطلب سوى لقاء الرئيس. لكن تُرى هل سأنجح في هذا؟ عليّ أن أحاول رغم كل شيء.

أنظر إلى الظلال التي تركتني وانتظرت إلى جانبي. أبصر الرؤوس منزوعة العيون والآذان الموجودة فوق الطاولة... وبوثبة مباغتة خطف أحد الموجودين في البهو رأسًا موجودًا في الوسط طاولة، وهرع مباشرة إلى أسفل المصباح، فأسرع ظلان على الفور وانتزعا الرأس الذي في يده، وأعاداه إلى مكانه.

وراح حامل السكين يسلخ الرؤوس بسكينه، وسرعان ما أتم مهمته. يوجد الآن على الطاولة ثلاثة رؤوس مسلوخة الجلد. لم أعد أستطيع التمييز بينها؛ حيث تشبه بعضها. علاوة على أن أماكنها قد تبدلت. والآن لم يعد هناك من يمسك بي، مثلما لم يعد هناك من يعبأ بي. انتهزت هذه الفرصة وخطفت أحد الرؤوس الموجودة على الطاولة، وأسرعت إلى أسفل المصباح. لا بد أن جميع حواسي كانت على ما يرام. كنت أقبّل الرأس، وأقبّله. لعل هذا الرأس كان رأس الرجل الذي قال لي: «يا بني»، والذي طلبت الحصول على عينيه. الآن لم يعد هناك أهمية لهذا بالنسبة لي؛ فالرأس كان هو الرأس وأنا صاحبه.

***

دنتْ مني الظلال الثلاثة. وحينما فطنت لقدومهم أمسكت الرأس بكلتا يديّ وضممته إلى صدري بقوة. كنتُ أخشى أن أفقده. وكان يراودني شعور وكأن خلاصي الوحيد فيه. كيف حدث ذلك؟ لم أدرِ. فرغت يداي سريعًا، وكان قد انفتح تجويف عظيم في صدري. نعم كنت قد خطفت الرأس، وحين تلفتُّ حولي غمرتني الدهشة واليأس، رأيت أنني في مكان مختلف. لم يكن به لا طاولة ولا رؤوس. وظهرت أمامي مرآة أمسكت المرآة بيديّ –بالضبط مثلما أمسكت الرأس– ووضعتها بمحاذاة عينيّ. فوجدتُ بها ظلًّا ينظر إلى أعماق عينيّ. كنتُ أنا هذا الظل، وكل حركة يأتي بها كانت تخصني أنا. وخلال فترة وجيزة امتلأ المكان بالظلال. فهل كان ظلي هو الوحيد في هذه الغرفة؟ لقد كثرت المرايا في كل أنحاء الغرفة، لكنني أنا من يتكاثر فحسب!

رحتُ أصيح قائلًا:

- أنا، أنا، أنا!

دنت مني الظلال التي تحلقت حولي، وصاحت معًا:

- أنا... يا لها من كلمة جميلة هذه!

صحت مجددًا:

- أنا!

أَطلق من هم حولي صيحة قائلين:

- لقد نجحتَ، لقد نجحتَ!

ثم أردفوا:

- سيستقبلك الرئيس قريبًا. والآن كلنا أنت، وأنت كلنا. وسوف يوظفك الرئيس في العالم الخارجي. هل هناك سعادة أعظم من هذه؟

كان كل من رأيتهم منذ قدومي إلى المنازل ذات الستائر السوداء موجودين حولي. وكانوا ينظرون إليّ بإعجاب وكأنهم ينظرون لبطل. كانوا أيضًا يدنون مني، ويسعون للتوحد معي. كنا كحبات عنقود العنب؛ الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد.

قال أحدهم:

- ما من قوة تستطيع أن تفرق بيننا.

قلتُ:

- أنتَ أنتَ، وأنا أنا. لكنني في المحصلة أنتَ وهو. وكلنا أنا...

ساورني الشك واستبدَّت بي الحيرة، تنساب الكلمات من شفتيّ:

- خيال أم حقيقة؟ حلم أم يقظة؟

وتكون الإجابة على سؤالي:

- حقيقة ويقظة.

لكن هل هذا صوتي، أم صوت شخص آخر؟ الكل أنا، وكل الأصوات لي... هل إلى العالم الخارجي سوف أُبعث الآن؟ أود البقاء هنا. إنني موجود في كل المنازل ذات الستائر السوداء. إلى أين سآخذ هذا القدر من الأنوات وأمضي؟ يصغر العالم الخارجي ويصغر. لم يعد يتسع لي ويستوعبني.

- الرئيس يريدك.

من أين أتى هذا الصوت؟ هل يعني هذا أن الرئيس سيستقبلني أنا؟ أي أنا؟ فالمتحدث أنا، والمستمع أنا، والمنفعل نفسه أنا. حسنًا، لكن من هو الرئيس؟ هل هناك أنا آخر سواي؟ أنظر حولي مجددًا، أين الأنوات؟ صار كل ظل نفسه، وبقيت أنا في المكان ظلًّا مسكينًا مرتعشًا. يتفاقم الخوف بداخلي. تؤلمني ذاكرتي، لا أستطيع أن أحتفظ بالكلمات، كلمة واحدة فقط ينشغل بها بالي: الرئيس.

أصرخ:

- أين الرئيس؟ أود أن أرى هذه الكلمة متجسدة أمامي.

وإذا بصوت يملأ جنبات الغرفة:

- لا تقف، واتبعني فورًا!

يتوارد هذا الصوت من ست جهات. الجهة السادسة، لكن في أي طريق؟ أبصر الطريق في الجهة السادسة، وأنساق وراء شبح يتقدم في ذلك الطريق.

وبخطى هادئة نجتاز ممرًّا طويلًا، وصولًا إلى بهو فسيح تتوسطه طاولة ذات زجاج، سطحها فارغ. وعلى اليسار ثمة باب حديدي، يقف على جانبيه شخصان ببنادق ذات حراب. اضطرب حين أراهما؛ لأن الكلمات التي في ذاكرتي مثل: حربة، وبندقية، ومشنقة... راحت تتساقط أمامي متجسدة. أنظر إلى الظل الذي سرت وراءه؛ إنه يتحدث مع من يحملون البنادق ذات الحراب ليخلصوا

طريقي مما يعترضني. وبعد أن أنهى حديثه، عاد أدراجه ودفع بقدمه ما اعترض طريقي من الحراب والأغلال والمشانق، وأزالها من طريقي. أنتظر وعيني على الباب الحديدي. يهمس من بجانبي في أذني: - انتظر هنا. سوف ينفتح الباب بعد قليل وتُعطى الإشارة لك. عندئذ تُسرع على الفور وتدخل باحترام.

أقول:

- حسنًا، اتفقنا.

يقول:

- إنك جد محظوظ. قطعت الطريق سريعًا، وما هي إلا خطوة أو أدنى وتصبح مخلِّصًا.

أتلعثم قائلًا:

- حظ، حظ.. كيف؟

- لقد ثرثرتُ وتكلمتُ بما لا ينبغي. كان عليّ ألا أتحدث، فكل الأشياء ستتضح لك بعد لقاء الرئيس، وسوف يوجهك ويرشدك بعبقريته التي لا تضاهيها عبقرية أخرى؛ ربما إلى هوة سحيقة، أو إلى الخلاص والتحول لمخلِّص...

أهذي قائلًا:

- عبقرية، عبقري؟

أنظر حولي باهتياج، لكنني لا أرى من أتى بي إلى هنا. مفهوم، لقد انتهت مهمته وغادر منذ وقت طويل. تلبثتُ في هذا البهو الضخم وعيناي على الباب الحديدي والحراس المتسمرين أمامه. وكان الحراس ينتظرون متأهبين وبنادقهم فوق أكتافهم. لم يكونوا ينظرون إليّ، لكنهم كانوا على دراية بي. كنت أعلم أن كل حركاتي وسكناتي مراقبة.

ما إن سُمع صرير الباب الحديدي حتى ركزت انتباهي؛ فإذا بالباب الحديدي ينفرج. انصرفت نظرات الحراس إليّ، أما أنا فكنت في حالة تأهب وانتباه انتظارًا لإشارة قد تأتي منهم أو من الداخل. وفي هذه الأثناء لحظت أحدهم يشير إليّ بالمجيء، لكنني لم أستطع أن أدرك من أتى بهذه الإشارة؛ هل هو أحد الحراس أم يد امتدت من الداخل. ما إن رأيتُ الإشارة حتى أسرعت من فوري، لأقف أمام الباب بين الحارسين. مذعورًا من الصوت الخشن الذي أتى من الداخل: - ادخل!

أجهد إلى رؤية الداخل بخوف واضطراب، لكني أنذعر مجددًا من الصوت المزمجر: - ادخل!

أُصعَق ويتولاني الذهول. أشعر وكأن رأسي جمرة مستعرة وضعت تحت الماء، فأصدرَت أزيزًا وتصاعدَت منها الأدخنة. عندها لم أستطع أن أفهم حتى معنى كلمة «ادخل». يدوّي الصوت للمرة الثانية حتى أعماق رأسي: - ادخل!

وإذا بيد هذه المرة تُمسكني من كتفي وتوقفني وتُدخلني. استطعت أن أخطو خطوتين نحو الأمام وأنا أترنح. سمعت الباب الحديدي يُوصد، لكنني لم أستطع رؤيته. وإذا بي أجد يدي في يدَي ظل ظهر أمامي، وحاول أن يخبرني بأشياء. أراه وأسمع صوته أيضًا، لكنني لا أستطيع أن أفهم أو أستوعب ما يقول. ومن بين كلام كثير سمعته، عِلِقَت بذهني كلمتان: الرئيس، وعظيم.

وبعد قليل، إذا بباب آخر ينفرج أمامي. متى وكيف قطعت هذه المسافة؟ ترى أكانت الأبواب متداخلة في بعضها؟ يترامى من هذا الباب نفس الصوت وذات الكلمة: - ادخل!

يلف باطني وظاهري دخان كثيف. صار العمى في كل مكان؛ لا ترى عين عينًا. تطن في رأسي كلمة «رئيس»، تلك الكلمة التي لطالما آلمت مخي لأيام، وغطت على جميع الكلمات التي في ذاكرتي. وكأني في وقت استيقاظي الأول بالضبط. لا أستطيع أن أتذكر شيئًا، ولا أستطيع أن أفكر في شيء. لا يمكنني أيضًا أن أجزم أين أنا: رجل يتسكع في الفراغ... أم إنني ما زلت في ذات النقطة؟

تربتُ يد على ظهري. وأصوات في أذني، وكلمات في رأسي. وفي لحظة يخطر أمام عيني واحد تلو الآخر على نحو مجسَّم؛ استيقاظي الأول، رحلتي، دخولي المنازل ذات الستائر السوداء، والتغيرات التي عشتها هنا، ويدهمني شعور بالإرهاق كأنما استمر مجهودي لمئات السنين. تتوارد الكلمات في ذهني هذه المرة، مصحوبة بتداعيات مليئة بالخواطر والأفكار. وترن من جديد كلمة من مقطعين صوتيين: - ادخل!

يتصاعد الدخان من رأسي، ويتدفق الدم إلى شراييني... أدخل من الباب المنفرج جزئيًّا دون أن أتريث قط.

5

أمامي طاولة تبهر الأنظار، بل لعلها تخطف الأبصار. تعجز عيناي –اللتان بهرهما بريق الطاولة– عن إدراك تفاصيل المشهد لفترة. يجلس على الطاولة إنسان أشبه بظل لا يشبه قط من رأيتهم حتى الآن. تتعلق عيناي بصدر هذا الكائن الذي لا يشبه إنسانًا ملموسًا مثلما لا يشبه الظل تمامًا. إن صدره لا يُرى من كثرة الأوسمة والنياشين. إنني منذ أن صرت ظلًّا لا أدرك ما عليّ من لباس، لكنني لا أستطيع رفع عيني عن الأوسمة والنياشين التي تغطي صدر الشخص الذي أمامي.

لقد أدهشني لقاء شخص كهذا في المنازل ذات الستائر السوداء. لا أستطيع أن أجد في نفسي الشجاعة على مواجهته. أحوّل نظري إلى الطاولة أملًا في العثور على طريق للخلاص. يوجد عليها أقلام ذهبية وتحف لا يمكنني إدراك ماهيتنا. أشعر أن مَن أمامي يجيل نظراته فيّ. أتلفت قلقًا يمنة ويسرة، مبلبل الخاطر، ويزعجني إحساسي إنني تحت المراقبة.

لا أجد في نفسي الشجاعة لأن أتفوه بشيء، ومن ثم أحبس أنفاسي، وأنتظر وكلي آذان صاغية لما سوف يصدر عنه من كلام. الغرفة بلا نافذة، إلا أنها شديدة الإضاءة. أبحث عن مصدر هذه الإضاءة، لكنني لا أرى أي مصباح أو مصدر ضوء آخر. أظل أجيلُ النظر في الجدران الصماء الخرساء. تتسارع دقات قلبي شيئًا فشيئًا متأثرًا بارتياب يخالطه خوف. يصيبني هذا بالاضطراب، ولأول مرة أخشى دقات قلبي.

وقعُ أقدام... أفرح، وأحاول أن أنظر بطرف عيني. نهض الرئيس من خلف الطاولة، وراح يتمشى. تمتمتُ قائلًا: «الرئيس». وإذ تُذكَر هنا لفظة «رئيس»، فإن المقصود بها على الأرجح هو هذا الإنسان الأشبه بظل، فعلو قيمته واختلافه عن غيره يبدوان واضحين ومحسوسين. أرفع عيني لا أستطيع النظر، لكن يمكنني أن أراه وأحصي خطواته.

يتمشى الرئيس في الغرفة جيئة وذهابًا، أحبس أنفاسي وأتابعه. كان طويل القامة، شعره أحمر مجعّد، متغضن الجبهة، وردي الوجنات، رأسه كبير الحجم على نحو ما في غير اتساق. يخطر لذهني ما رأيته من رؤوس الواحد تلو الآخر، لكن هذا الرأس لم يكن يشبه أي واحد منهم. ولأن أهم مهمة في المنازل ذات الستائر السوداء هو التدقيق في الرأس ودراستها، كان عليّ أن أمعن النظر أكثر في هذا الرأس، وهذا ما كنتُ أفعله. فجأة أردت أن أحدّثه عن عظم رأسه، لكنني أطرقت برهة، فشيء كهذا قد يودي بي لهوة سحيقة. كان عليّ ألا أرتكب أي خطأ قط. إلا أنني لم أستطع أن أتمالك نفسي. وبأسلوب لا ينقصه المجاملة والإطراء قلتُ: - يا لروعة رأسك سيدي الرئيس!

لكنه لم يسمع ما قلتُه. ما زال يواصل تمشيته في الغرفة. تبسمت من تلقاء ذاتي. وفي هذه اللحظة بالتحديد التقيت وجهًا لوجه مع الرئيس. هنا تلاشت فورًا تلك الابتسامة المرسومة على وجهي. خوفي الوحيد أن التقي عينَي الرئيس. إنني أراه برمته، لكنني أتحاشى اللقاء بعينيه. وقف الرئيس أمامي ونظر إلى وجهي مليًّا، ثم تنفس بعمق وبدأ حديثه: - قالوا إنك تستطيع أن تمثلنا في الخارج.

تفحصني مجددًا لبرهة من الوقت. لعله كان يريد معرفة رد فعلي. ثم أضاف: - أنا على ثقة في رجالي، لا سيما وأن من يتابعك ويحدثني عنك هو واحد من أذكى الرجال. إنني في حقيقة الأمر لا أحب الرجال شديدي الذكاء! غير أنه يعبدني، أنا بالنسبة له بمنزلة إله. وفي وضع كهذا لا يسعني إلا أن أستفيد من ذكائه.

كنت أستمع لما يقوله الرئيس بكل جوارحي، بيد أني تحاشيتُ تمامًا النظر إليه. وفجأة، زمجر قائلًا: - هلا نظرتَ إليّ!

رفعتُ عيني وكأني نُوِّمت تنويمًا مغناطيسيًّا، واستلبتْ عيناه عينَيّ. طاش لبي فجأة. شُلَّ تفكيري، فلم أستطع أن أتذكّر كلمة واحدة. واصل الرئيس حديثه: - سوف أعهد إليك بمهمة في الخارج. إنني أثق بك، وسأظل، لقد قرأت باطنك وظاهرك. وقبل أي شيء عليك أن تجدد ثقتك بنفسك. سوف أنفخ فيك الثقة بالنفس، لكن يتوجب عليّ أن أخبرك ببعض الأشياء.

أطرق، ثم نظر إلى عيني بمزيد من الاهتمام والتدقيق. كنت أرتجف. وبعد أن تفحصني جيدًا بنظراته، واصل كلامه قائلًا: - إن لم يكن بإمكانك، فإياك أن ترحل. ابدأ من البداية ثانيةً، وتعال إليّ. إذا ما فعلت هذا تكون ثقتك بنفسك قد ترسخَت. لأن أدنى خطأ ترتكبه في الخارج قد يجر علينا المشكلات. ولو علِقتَ بين تروس دولاب دائر، فقد توقف عجلة التغيير ولو لبرهة. وبرهة هنا يتمخض عنها فراغ قدره قرن من الزمان. ومهما يكن من شيء فإن العالم الخارجي بأسره في قبضتي. وقد رأيت هذا بنفسك. إن شئتُ أعتصر من بالخارج كمنديل، وأصنع بحيرة دم.. وإذا ما هبّ أحد وأبدى أدنى مقاومة، فإنه يغرق متململًا في هذه البحيرة من الدماء وينقضي أمره.

وفيما كنت أستمع لحديث الرئيس، تجسدت أمام عيني الكلمات التي انسابت من بين شفتيه مثل: الدم، والمنديل، أعتصر، وكذلك الرجال الثلاثة المكبلين بالأغلال، وراحوا يتأرجحون على مشانقهم. وفجأة رأيت العيون. ثلاثة أزواج من العيون والآذان كانت قد أُحضرت إلى الرئيس داخل قبعة. بينها زوج من العيون السوداء أردت أن آخذه ولم أستطع، وأردت أن ألمسها وحيل بيني وبين ذلك... بدأت كلمتا «أب» و«ابن» تهويان على رأسي من كل صوب. أبصر زوجًا من العيون وعالمًا مضيئًا ينفتح أمامي. وقد أحسست بثقة وطمأنينة في هذا العالم الذي يضيؤه نور عيني أبي. كنت قد سموت وتعاليت؛ على الأقل

قدر سمو وعلو الرئيس. حينئذ خلّصتُ عيني من عينيه، وبدأت أتحدث قائلًا: - كل شيء على ما يرام سيدي الرئيس.

تتهول في قلبي جرأة غير متناهية. أنظر من المنازل ذات الستائر السوداء إلى العالم الخارجي الذي يتضاءل شيئًا فشيئًا أمامي. لي مطلب واحد فقط؛ أعطوني عيني أبي.

وما إن قلت ذلك، حتى انفجر الرئيس غاضبًا مثل البركان: - ماذا... ماذا قلتَ؟

قلت متوسلًا:

- العينان!

فقال الرئيس حانقًا:

- أي عينين؟

- عينا أبي.

- ما معنى أب؟ من لقنك هذه الكلمة؟ عليّ أن أقطع لسانه وأنتزع عينيه.

تلعثمتُ قائلًا:

- لا أحد، لا أحد البتة.

ولبثت وقد انعقد لساني من الخوف.

رأيت أن الرئيس يتقد سريعًا، ويخبو سريعًا. لا بد أنه جبان. وهذا أسوأ، لأن الجبناء شكاكون، وكذلك ظالمون عتاة بنفس القدر. استبد الخوف بقلبي مجددًا. صرت أتلوى وأتململ كي أستطيع الفكاك من أذرع أخطبوط الخوف.

كلمات؛ كل واحدة منها مثقلة بالمعاني المليئة بالفزع. تداعيات أفكار وخواطر مفزعة تنبثق من آبار متناهية العمق. وكلمة واحدة فقط لم أستطع أن أخط حدًّا لمعناها، ظللتُ متجمدًا مذهولًا بسبب دوي صداها: الدجال! الدم في كل مكان، والظلم في كل حدب وصوب. استولى الخوف على الأرض والسماء. هل ثمة أحد ممن التقيتُهم من قبل هو من لقنني هذه الكلمة؟ هل اكتشفَتها ذاكرتي من تلقاء ذاتها؟ وما هي العلاقة بين كلمة الدجال والرئيس؟ أرتعش كمن أصابته حمى. من أين جاءت أيضًا كلمة «حمى»؟ مَن تُصيبهم الحمى يهذون ويرتجفون. مدن بلا سكان وأغلال وحراب ومشانق ورؤوس... الدجال! يتصدع الجدار الذي كان قد استغلظ تدريجيًّا بيني وبين الماضي. البشر والمسافرون والظلال السوداء التي انعكست على الجباه، والعيون التي عميت لدى الظلال. تستدعي كلمة الدجال آلافًا من الأفكار إلى ذهني. الدجالون آلاف. مكتوب على جباههم جميعا أبشع الكلمات وأقساها: ظالم... ها هو ذا الجنون، ها هو ذا الخبل، وأنا دجال! أنا منبع اللعنة، وهأنذا أتسمر في العالم بأسره وكأني عمود.

- إلى من تنظر بهذه البلاهة؟ أي أب؟ أليست كل الرؤوس آباء؟

ألتفت، وأنظر، فأجد أن من يتحدث هو الرئيس. وهل أنا شخص عادي حتى يقول هذا؟ أرد عليه: - لقد سموت وتعاليتُ بالقوة التي أستمدها منك. وما من شيء قط يستعصي عليّ النجاح فيه الآن. ها أنا أطوي كلمة «أب» كما المنديل، وأرميها بعيدًا لئلا يحط هذا من سموّي الحالي.

يربت الرئيس على كتفي بسعادة، ويصيح:

- وهو كذلك، اتفقنا!

ألاحظ ابتسامة متغطرسة ترتسم على شفتَي الرئيس. يعمق الرئيس هذه الابتسامة، ويذهب ليجلس على الطاولة. أتسمر في مكاني، يومئ إليّ بيمينه. أقترب، يطلب إليّ أن أقترب أكثر. يفتح درج الطاولة، ويخرج منه جمجمة. أنظر، فأبصر خريطة العالم مرسومة فوق الجمجمة!

يقول الرئيس:

- ها هو ذا دستورنا. عندما تخرج إلى العالم الخارجي، عليك أنت أيضًا أن تحوز جمجمة كهذه. وترسم عليها خريطة العالم، وهكذا تكتب دستورك بنفسك.

وحينما رأى أنني أنصت إليه بانتباه، أضاف: - بإمكاني أن أستلب البشر بدستور الجمجمة فحسب.. هل تعرف ماذا يعني الاستلاب؟ إنه يعني سلخ الحواس ونزع ملكات التفكير كلها! وبعبارة أوضح، هو تفريغ المخ بتأثير الصدمة. ويهيِّئ البشرَ لهذه الصدمة ويكيّفهم عليها تلك الظلمة الحالكة في عيونهم، لا شيء سوى هذه الظلمة. وإذا لم تمح الماضي من رؤوس البشر فلن يزدهر لك الحاضر والمستقبل، لن تتحقق لك السيادة والسيطرة عليهم ما لم يحدث هذا.

وحينما لاحظ الرئيس انتباهي، لامسَت شفتيه ابتسامةٌ عذبة، وقال: - سوف أعطيك الآن كتابًا.

وحينما رأى أنني أنظر إلى وجهه بدهشة تامة، أوضح قائلًا: - لا تخف، يمكنك قراءته. ما إن تنظر إليه حتى تتشكل أبجدية جديدة في مخك، وتميز الكلمات على الفور. وستفتح كل كلمة جديدة تتعرف عليها طريقًا أمامك.

وانكفأ الرئيس مجددًا على درج الطاولة، وأخرج منه كتابًا، ومده إليّ قائلًا: - خذ هذا الكتاب، ولا تفارقه قط، طالعه باستمرار حتى لا تبقى في الظلمات، وتسير على ضوء كلماته وهديها.

أخذت الكتاب وضممته لصدري. كان كتابًا سميكًا، ذا غلاف أسود، أطراف أوراقه حمراء. وحينما رأى الرئيس أنني أحتضنه بإحكام، قال: - أحسنت. تمسَّك بهذا الكتاب جيدًا، إنه كل ما لديك، واعلم أنك لو أهملته للحظة واحدة فسوف تنزلق إلى هوة سحيقة...

قلت:

- أعلم سيدي الرئيس.
نهض الرئيس من طاولته، ودنا مني. وقفتُ متوحدًا مع الكتاب الذي أعطاني إياه. ربتَ على وجهي، أحسستُ بحرارة يديه في جسدي. ثم لثم وجنتي؛ اجتاحني طوفان من المتعة بملامسة شفتيه لوجنتي. كنت أود لو طالت هذه اللحظة، لأنني توصلت إلى أن أميز نفسي جيدًا، وفي تلك اللحظة كنت موجودًا بكامل حواسي، وكنت أحاول كذلك أن أدرك حاستي السادسة.
قال الرئيس:
- يمكنك الانصراف. إنني لن أدعك وحدك. لا تخف! فأنا موجود في كل زمان ومكان.

***

وما إن خرجت من غرفة الرئيس حتى احتشد حولي الكثير من الظلال. عيونهم جميعًا مسلطة على الكتاب. كنت قد دسسته جيدًا تحت إبطي. لقد صار قطعة مني، مثل قلبي، مثل عيني، مثل أذني. به أشعر أنني أكثر ثقة وطمأنينة. وكأنه صار عضوًا جديدًا يدعم سائر أعضائي. وهذا أيضًا كان يزيدني قوة. كان من الواضح أن من يتحلقون حولي ينظرون إليّ وهم يغبطونني. لكن ثمة نظرة إعجاب في عيونهم أجمعين. من حين إلى آخر كانت تبدو عليهم علامات الخوف والجزع.
قالوا:
- هل سترحل من هنا اليوم؟
قال أحدهم ذلك، ربما كلهم، لكن في تلك اللحظة لم يكن يسعني أن أتحرى الأمر، فاكتفيت بالرد: - في أقرب وقت...
قالوا:
- عندما قدِمتَ إلى هنا لأول مرة، كنا قد أدركنا أنك ستُكلف بمهمة خطيرة.
في هذه الأثناء سمعت أحدهم وقد أبان عن نفسه يقول: - هل سيكلف الرئيس أحدنا بمهمة في العالم الخارجي؟
فجاء الرد من ظل آخر:
- إن مهمتنا قد بدأت هنا، وستنتهي هنا.
وإذا بهم هذه المرة يهتفون معًا:
- إننا مضطرون للبقاء ظلالًا.
وأردفوا:
- ونجاح ممثلينا في الخارج إنما هو نجاح لنا أيضًا؛ لأن هؤلاء هم ممثلو المنازل ذات الستائر السوداء، ونواب الرئيس.
وقال آخر:
- أليس الوجود حول الرئيس هو أقدس المهام.

قلتُ:
- نعم، إن مهمتكم مهمة بالفعل.
وأردفت:
- يترامى إلى مسامعي وقع أقدام التحرر على مستوى العالم.
- نعم، نعم...
- نعم...
وحينما رأيت الأحاديث قد تداخلت واختلطت وأصبحت لغوًا لا طائل من ورائه، أخذت الكتاب في يدي ورفعته، ثم قلت بعدها بصوت عالٍ: - هذا ما أعطانيه رئيسنا.
فمدوا جميعًا أيديهم إلى الكتاب، وهتفَت حناجرهم في ذات الوقت: - وثيقة الإنقاذ!
استمَروا يمدّون أيديهم إلى الكتاب، وكان مطلبهم الوحيد هو أن يلمسوه ولو لمرة وحيدة. كانوا كلما مدوا أيديهم رفعتُ الكتاب بدوري لأعلى بعيدًا عن منالهم. وفي هذه الأثناء وقعت عيناي على جماعة من الظلال ينتظرون بعيدًا عني قليلًا. أمعنتُ النظر فيهم، فوجدتُ أنهم جميعا أنا... نعم، نعم كانوا أنا.. أنواتي التي تكاثرت. بدوا وكأنهم يخشون الاقتراب مني.
قلت لهم:
- تعالوا، تعالوا لنتحد ونتوحد معًا.
فقالوا:
- عليك أن تذهب أنت. عليك أن تمضي وحدك، أما نحن فسوف نفنى في المنازل ذات الستائر السوداء. لقد ولدنا هنا، وسنفنى هنا. إننا الكلمات التي طالما أصابتك بالضيق والاضطراب: فمنا «الأب»، ومنا «الأغلال»، ومنا «المشنقة»، ومنا «الخوف»، ومنا «الدجال». لا تشغل بالك بنا بعد الآن.
واختفت الأنوات التي كانت تقف على مسافة مني. حينئذ شعرت بهدوء في أعصابي وراحة في رأسي... وقفت ونظرت إلى نفسي: فإذا بي أرتدي قبعة سوداء وقميصًا أزرق وسروالًا أسود وحذاء. إنني في النقطة التي أدركتها مرورًا بالتغيير وصولًا إلى آخر. أتذكر الكتاب على الفور. إنه تحت إبطي، وأنا أحس وجودي.
تردد جوقة من المنشدين:
- سوف تنجح في مسعاك، سوف تنجح في مسعاك...
- سوف تنجح في مسعاك، سوف تنجح في مسعاك...
- سوف تنجح في مسعاك، سوف تنجح في مسعاك...
وعقب ذلك سمعتُ أنشودة عذبة يتردد صداها في أرجاء المكان: تتهجى الشفاه،

الجماجم الجماجم.
وتتهجى البلاد،
الجماجم الجماجم.
وتتهجى القارات،
الجماجم الجماجم.
أين تبدأ هذه الأنشودة وأين تنتهي؟ انضممت بدوري إلى جوقة المنشدين. وبمجرد أن نطق لساني اختلطت أصوات كل الكائنات بصوتي، وصارت جميعها وكأنها تنبعث من داخلي.
صرت أقول:
- هذه الأنشودة أنشودتنا جميعًا.
أسمع صوتي أنا، وأجيب على نفسي:
- إني ذاهب إلى العالم الخارجي وأنا أنشد أنشودتي.
أسير بخطى مسرعة نحو أماكن ما. لا ألتفت ولا أنظر ورائي؛ أنا وحدي، وكل شيء تابع لي ومرهون بي. العالم عالمي، والزمان زماني، والمكان ملك يميني؛ إن شئتُ أطوعهم لأغراضي، وإن أردتُ أعتصرهم في قبضتي.

***

لم يكن ضوء القمر ساطعا بالخارج. لا أدري كيف خرجت من المنازل ذات الستائر السوداء، ولكنني أحسُّ أنني أبتعد عنها خطوة خطوة. وفي النهاية غلبني فضولي ونظرت خلفي، فرأيت المنازل ذات الستائر السوداء على ضفة بحر التماثيل. أمن بحر التماثيل كنت قد مررت عند خروجي من المنازل ذات الستائر السوداء؟ أم أنني مررتُ من ضفته؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني لم التق أي تمثال قط إلى أن جئتُ إلى هنا. أسير وأنا أهتك حجاب الظلام. رأيت المنازل والتماثيل بكامل الوضوح. يلفني الظلام من حولي، وتحت إبطي كتاب تنوير المنازل ذات الستائر السوداء. أدرك أنني في الطريق الذي يحمل المسافرين إلى المنازل، ولكنني في هذه المرة أسير عكس الاتجاه. ولهذا يحتك المارة بأكتافي. أتوقف لفترة كي أتبين مكاني، يتدفق المسافرون عن يميني وعن يساري. يسير هؤلاء البشر –الذين لا يستطيعون أن يروني– إلى الخلاص مستلبين. أحس بالكتاب الذي أعطاني الرئيس إياه تحت إبطي. إنني على وعي بذاتي جيدا. أحب المسافرين حبًّا جمًّا. أنظر إليهم بصادق الحب مستمسكا بإحكام بكتابي. ورويدًا رويدًا يموج في أعماقي بحر حب عظيم.
أعود إلى منزلي وقلبي مترع بالحب والأمل، شاديًا بالأنشودة التي حفظتها في المنازل ذات الستائر السوداء، ممسكا بكتابي. تُدوَّن الأنشودة التي حفظتها في المنازل على الجبال والأحجار؛ يموج بها العالم بأسره. وتلهج بها

جوقة الإنسانية، وتردّ الجبال الصوت بالصوت، وتصطف الأحجار كالنوتة الموسيقية.

أسير، وأسير، وأسير. تتجاوب دقات ساعة الزمن مع إيقاع النشيد المتدفق من شفتي. أمامي رؤوس ترتسم الابتسامة على ثغورهم، وآلاف المسافرين يسرعون الخطى بغية الوصول إليها... قلة قليلة من بين هؤلاء ستستطيع أن تحرز ما أحرزته من نجاح. وقد لا يستطيع أحد منهم أن يبلغ هذه النقطة التي بلغتها، وأظل متفردًا.

6

إنني في غرفتي. هنا الغرفة التي استيقظت فيها لأول مرة. وفيها بدأت الحياة. أتيتُ إلى هنا مرورًا بالمدينة التي تركتها مضطرا والتحقت بالمسافرين زمنا. من جديد لم يكن هناك من أحد في المكان. لِمَ أتيتُ إلى هنا؟ لا أدري. لقد وظفني الرئيس في العالم الخارجي، لكنه لم يقل لي أين يتوجب عليّ أن أتواجد. ولم يحدثني أولئك الموجودون في المنازل ذات الستائر السوداء عن هذا الموضوع قط. لعل كل مكان بخلاف تلك المنازل هو بالنسبة لهم عالم خارجي... وما دام الوضع كذلك فإنه لا معنى للإشارة إلى مكان معين. ولأنني لم أستطع أن أتأكد من هذا، فقد عدتُ إلى منزلي بالسير عكس الاتجاه هذه المرة في الطريق الذي قطعته من قبل للوصول إلى المنازل ذات الستائر السوداء. أقول: «منزلي»، لأن هذا المكان هو المكان الوحيد الذي أعرفه، وهو نقطة البداية لي. هل كل بداية نهاية؟ وهل كل نهاية بداية؟ على الأقل الأمر كذلك بالنسبة لي. وسوف أبدأ من هنا مجددًا.

وحتى الآن لا يمكنني معرفة طبيعة المهمة التي سأضطلع بها. ووجودي وحدي هنا أمر يبعث على الفرح والسرور هذه المرة، إذ بتُ أعرف من أنا، وماذا أنا فاعل. أصبحت لي ذكريات، ولي أفكار موجهة للمستقبل. أعي اللحظة الآنية، وفوق كل هذا معي كتاب أستطيع قراءته. الشيء الوحيد الذي ينقصني هو الدستور... لذا يتوجب أن أعثر على الجمجمة فورًا، وعليّ أن أرسم خريطة العالم فوق الجمجمة التي أعثر عليها. أما قواعد هذا العالم ومبادؤه فموجودة بالأساس في كتابي.

أنشد أنشودتي سعيدًا منتشيًا. أستطيع أن أرسي دعائم ثورة جديدة هنا، وأستطيع أن ألقن أنشودتها لمن سينضم إليّ. بدأت هذه الأفكار تقلل من شأن المنازل ذات الستائر السوداء في نظري. ولا يزال العالم ـ الذي خططت لخلقه ـ يكبر ويعظم، ولن تسعه أي جمجمة على الإطلاق. إذن أي جمجمة يتعين عليّ أن أعثر عليها حتى يمكنني أن أرسم عليها خريطة عالمي؟ من أين يتوجب عليّ أن أبدأ العمل؟ لا بد أن أقرر هذا قبل أي شيء. يخطر ببالي أنه يتعين عليّ أن أعترض طريق المسافرين، وأخضعهم لأمري. ولو بدأت من هنا، فسوف تأتي البقية.

استغرقت في أفكاري. وبينما كنت أحلم بتشييد عالم جديد تمامًا، إذ بي أجد الرئيس أمامي. ولم تكن الأوسمة موجودة على صدره. تطوق رقبته قلادة منضود فيها عيون وآذان وشفاه. يتمشى في غرفتي وعلى شفتيه ابتسامة ازدراء. أنظر فاتحًا عيني على سعتها؛ نعم هنا غرفتي. ولكن كيف أتى الرئيس

إلى هنا. وبعد أن تمشى لفترة في غرفتي، أقبل ووقف أمامي تمامًا. تلبثت مشدوها مبهوتا، فبدأ الحديث مستهزئًا:

- حذار أن تتحامق، وإلا لن أتدخل، وأعلق عينيك وأذنيك وشفتيك في هذه القلادة. أنا من خلقتك. أنا الأعظم في المنازل ذات الستائر السوداء والعالم الخارجي وفي كل مكان[5]... من أنت حتى تستغرق في تخيلاتك وتصوراتك الذاتية؟ لقد هيأت لك الفرصة كي أمتحنك ليس إلا. ولو أسأتَ استغلالها ثانية، فسوف تلقى مصير من سبقوك.

وأشار إلى القلادة التي في رقبته، مبتسما ابتسامة استهزاء، وأردف:

- لا أريد فكرًا حرًّا ولا ذكاءً؛ كل شيء يبدأ بي، وينتهي بي.

خانتني يداي وتخلخلت قدماي حينما خرج الرئيس أمامي في لحظة لم أكن أتوقعها. أي أمر هذا أن يتأتّى للرئيس الوجود في كل مكان؟! وعلى حين فجأة إذا بكلمة تتردد في خاطري: الدجال! خرج الدجال من كونه مجرد كلمة، وظهر أمامي، وراح يتكاثر. لم يخل مكان حولي من الدجال، وراحت بعض الكلمات تتوارد إلى خلدي مثل: قبعة، وسلاح، ومشنقة، ورأس... البحار من دماء! والأشجار أعواد مشانق! ويتمايل العالم الخارجي أمام عيني كعلقة تمتص الدم. والرئيس في وسط هذا العالم تمامًا... ينظر إليّ، هذه المرة نظرة إشفاق.

أتوسل إليه قائلًا:

- أنقذني! يوشك هذا العالم أن يخنقني.

فيردُّ قائلًا:

ـ لا تخف! فكل ما رأيته في قبضتي، وأنت مشمول بحمايتي، لا أحد يستطيع أن يمس شعرة منك دون إذني.

أثوب إلى رشدي؛ أنا ممثل الرئيس. وليس لي ملاذ آخر سوى المنازل ذات الستائر السوداء. خلاص البشرية هناك. أتذكر كتابي. كتابي، أين كتابي؟ ها هو ذا. إنه لا يزال موجودًا على الطاولة بكامل بهائه، وينظر إليَّ. أسرع إليه وأفتح أولى صفحاته فورًا، أجد صورة تحتل الصفحة بأكملها. إنها صورة الرئيس بأوسمته ونياشينه الحمراء، وقبعته السوداء، وحذائه الأسود طويل الساق... وبين حذائه هذا خليط من أناس متناهين في الصغر والضآلة: نساء، ورجال، وأطفال. ولا يزال الرئيس يكبر ويتهول حتى يلامس رأسه الآفاق التي احمرت. أمامي عالم يملأ الرئيس كل أرجائه. قرأت كل شيء في نظرة واحدة، وفهمته. يا لهذه من أبجدية رائعة!

نظرت إلى غرفتي، لا أحد؛ أنا موجود بمفردي، وهناك أيضًا عالم خارجي. لقد خبّرني الرئيس بما سوف أفعله. وقبل أي شيء يجب عليّ أن أعثر على جمجمة، وعليّ أن أرسم عالمًا لنفسي، وأحدد دستوري. أنظر مرة أخرى إلى

كتابي؛ تبث صورة الرئيس في نفسي شعورًا بالثقة. أولى مهامي هي العثور على جمجمة، أعي ذلك ولكن كيف ومن أين؟

أطوي كتابي، وأفكر مستعينًا بذاكرتي. وجدتها، وجدتها... الطريق والمسافرون. لا بد أن هناك جمجمة في الأماكن القريبة من الطريق الذي يمر به المسافرون. وأظن أنني قد لمحتها فيما كنت ذاهبًا إلى المنازل ذات الستائر السوداء. «الجدول الأبيض»... من أين لي بمعرفة هذا الجدول؟ لا أستطيع التكهن، إلا أنني أرى ذلك الجدول شيئًا فشيئًا. ها هي الجمجمة هناك.. أي جمجمة، إنسان أم حيوان؟ لا أستطيع أن أفهم. على الأرجح أنها جمجمة أحد المسافرين... كيف ومتى يمكنني أن آتي بها إلى هنا؟ كتابي أمامي، وأنا جالس على الطاولة أمام النافذة أفكر في كيفية الوصول إلى الجمجمة.

أحس بذاتي في المنازل ذات الستائر السوداء. الرئيس أمامي، والهمس في أذني، والظلال المرتعشة حولي. أمزقُ كفن الوحشة، وأحطم نعش الخوف الذي أسقط بداخله أحيانًا. أصير أنا ذاتي، وتصير المنازل ذات الستائر السوداء هي ذاتها. والأهم من ذلك كله هو أن الرئيس كيان يمسك كل هذا في قبضته ويملأ ما بين الأرض والسماء...

سعادة وثقة تموج في أعماقي. نهضت عن الطاولة، وبدأت أتجول في الغرفة. أضيفت الكبرياء إلى السعادة والثقة. خرجتُ إلى الردهة بخطوات واثقة. في السماء شمس مبتسمة، وفي الأرجاء منازل متسقة ذات قرميد أحمر. مدينة مهجورة تلهج بأغنية الوحشة الخاصة بها. أنظر إلى هذا المشهد مبتسمًا، أنزع كلمة الوحشة عن المدينة. لستُ وحدي. فالمنازل ذات الستائر السوداء صارت تطوقني من الداخل والخارج. أصوات تملأ أذنيّ تتوارد من كل حدب وصوب. أدخل إلى حجرتي مجددًا، أمضي مباشرة وأجلس على الطاولة. يمر أقدس الطرق من أسفل نافذتي. فكل الطرق التي تفضي إلى المنازل ذات الستائر السوداء طرق مقدسة. ولكن هذا الطريق طريقي أنا؛ فمنذ أن عرفت ذاتي وأنا أتوحد مع هذا الطريق. أستند على ظهر الكرسي، وأحاول اكتشاف أكثر الجلسات راحة. أضع ساقًا فوق ساق، وأدفع الزمان حتى يهبط الليل بأسرع وقت ممكن، ويتدفق المسافرون إلى الطريق.

يمثل الرئيس هنا نموذجًا لكثير من الطغاة المستبدين، حين يعميهم غرورهم وجبروتهم فيُخيل إليهم أنهم آلهة هذا الكون الأعاظم، وأنهم من خلقوا البشر. تعالى الله عما يصفون علوًّا كبيرًا. (المترجم).

7

ينعكس نور القمر على الطريق. المسافرون! غيمة غبار خفيف ترتفع إلى عنان السماء، ورذاذ يخالطه الغبار يسقط من السماء، رائحة غبار تنتشر في أرجاء المكان. ما أسرع أن هبط المساء على المدينة! متى أصبح الزمان يأتمر بأمري؟ يمر المسافرون من تحت نافذتي واحدًا تلو الآخر. أصرف إليهم نظراتي مفعمة دومًا بالحب والإشفاق. أراهم وقد ارتاحوا ودبت فيهم الحيوية. لكنهم لا يبصرونني. والقبعات هي الأيدي المنقذة التي تربت على المسافرين. ولولا القبعات، من ذا الذي يمكنه أن يحفظ عليهم حيويتهم على طول الطريق؟ هي التي تحميهم من المشاهد الخادعة للعالم الخارجي، وتكفل لأعينهم النظر فحسب إلى هذا الطريق المقدس. يتقدم كل واحد من هؤلاء وقد توحد مع الطريق، وأدرك به خلاصه.

وقع أقدام... ودقات قلب حياة جديدة في هذه الأصوات. تتحول الأصوات شيئًا فشيئًا إلى طقطقات جماجم. وتتردد طقطقة عظام في أذني، وتتطاير جماجم أمام عيني. أنظر بإمعان أكثر، أرى «الجدول الأبيض» في الناحية الأخرى من الطريق. تدنو الجمجمة الموجودة هناك مني باستمرار. أعاود النظر إلى الطريق فأراه يمتد باتجاه الجمجمة الموجودة في «الجدول الأبيض» أنظر مرات ومرات، فأرى المنظر ذاته. وعليه دسست كتابي تحت إبطي وخرجت من المنزل ولحقت بالمسافرين بغية الوصل إلى الجدول.

إن الكتاب بمنزلة عضو من أعضائي. فمثلما لا أستطيع التخلي عن أذني وعيني، لا أستطيع التخلي عنه هو أيضًا. فبهذا الكتاب أدركتُ حاستي السادسة وكل شيء لي يتعدى حواسي الخمس، وتخلصت فيه من كوني شخصًا عاديًّا. لحقت بالمسافرين دون أن أتقاعس، خالقًا ذاتي من جديد. يزيدني المنظر الذي رأيته على طول الطريق همة على همتي. أتوق للوصول إلى الجمجمة الموجودة في «الجدول الأبيض» بهذه الهمة والحماس. وعلى طول الطريق هناك من يتمددون، ومن يَحْبون، ومن يزحفون، ومن قضوا نحبهم دون أن يصلوا إلى المنازل ذات الستائر السوداء. ولم أكن قد رأيت مثل هذه الأشياء في رحلتي الأولى. أثمّة أشياء تغيرت، أم أنني لم أفطن إليها آنذاك؟ يُولد لديّ شعور بالإشفاق. أتململ من أجل الوصول إلى الجمجمة على جناح السرعة. أقل ما يتوجب عليّ هو أن أمد يد العون لهؤلاء المسافرين. وليس لهؤلاء في حقيقة الأمر ما ينتظرونه مني. لعلهم حتى لا يرونني. فكلٌّ منهم مهموم بنفسه. لقد كان المسافرون في زماني أعلى همة وأكثر قوة. هذا معناه أن المسافرين يصابون شيئًا فشيئًا بالضنى والهزال. ولعلها رحلة تنزلق من الأقوياء نحو الضعفاء. أدرك من الماضين زحفًا أن لا نصيب لمن تأخر. وهذا

يعني أن الرئيس قد عهد إليّ بالمهمة في الوقت المناسب. وإنني الآن أعي قداسة هذه المهمة أكثر من ذي قبل، ألا وهي مد يد العون إلى المسافرين الضعفاء فورًا وقبل فوات الأوان.

ورحتُ أحدّثَ نفسي:

- سأعلق الستائر السود على نافذتي، وسأضع الجمجمة التي سأحصل عليها من «الجدول الأبيض» خلف الستائر، لا بل أمامها. وسوف أكفل لمن أنهكوا وخارت قواهم التوقف والاستراحة تحت نافذتي. وهكذا سوف أنفخ فيهم ثقة وأملًا جديدين.

تزداد باستمرار طموحاتي الموصولة بالمستقبل. أعدو وأعدو من أجل تحقيق هذه المطامح. تؤلمني ساقاي. هل تسرب الزمان من بين يدي وضاع مني؟ إن السعي إلى إدراك المستقبل ملك لي دون غيري. لا يمكنني التشبث بأهداب الزمان. الجمجمة هي الأمل، الجمجمة هي المستقبل... هذا هو السبيل إليها. وفي اللحظة التي آخذها في يدي سوف أتعلق بأهداب الزمان كمن يمسك بعرف فرس، وأعود إلى غرفتي في طرفة عين.

أنفصل عن الطريق حينما أصل إلى «الجدول الأبيض» لم يلحظ المسافرون أنني انفصلت عنهم. إنهم لم يلحظوا أصلًا وجودي بينهم. فالحقيقة الوحيدة بالنسبة لهم هي الطريق، والفعل الوحيد هو الرحلة. لقد وهبوا كل كياناتهم لهذه الرحلة، ونسوا أنفسهم.

وبعد قليل دلفتُ إلى طريق ضيق، وتوقفت برهة أرقب الغبار المتطاير فيه. ينتشر هذا الغبار –الذي أثرته بقدمي– على طول الجدول. هذا غباري، وهذا طريقي. وأنا بطل ملحمي. أتقدم في هذا العالم متجاوزًا الزمان والمكان. إنني على يقين من أنني سأبلغ مرادي. أبطال الملاحم يبلغون مرادهم. يستطيعون ـ بإشارة من يمينهم ـ إيقاف الزمان، وطي المكان، ويقدرون على صنع عالم جديد تمامًا.

- من أين تستقي هذه الأفكار؟ امحها من رأسك، وسد مجددًا الثغرة التي انفتحت من الماضي على ذاكرتك. ومَنْ أولئك أبطال الملاحم؟ إن الزمان والمكان في يدي، وأنت تمثلني.

وقفت أنصتُ وقد استبد بي الفزع. أهو صوت الصمت؟ كنت قد ابتعدتُ كثيرًا عن الطريق والمسافرين. أمسكت بكتابي بمزيد من الإحكام. صوت من هذا؟ لو قلت إنه يشبه صوت الرئيس، فليس هناك أحد في المكان. إنه ليس صوتًا، وإنما إلهام... كلمات تحذيرية ألقاها الرئيس في خلدي. يريد أن يصدني عن تشويه الواقع والحقيقة. إنه أعظم رئيس، ولا عظيم غيره، وهو موجود في كل مكان. يراني في كل لحظة، ويسمع ما يدور بخلدي.

استجمعتُ شتات نفسي، وبدأت أسير مجددًا. ثمة رائحة. إنها رائحة جيفة... هل هي جثة أحد المسافرين المتوفين؟ كلا كلا؛ المسافرون لا يموتون. وإذا ما

اقتضت الضرورة فإنهم يحملون جثامين موتاهم فوق أكتافهم ويصلون إلى أهدافهم. إن الشمس لا تطلع عليهم في أي وقت. فالرحلة تنتهي قبل شروق الشمس، والذين لا يتأتى لهم إتمام رحلتهم، يمضون إلى الفناء في حقيقة الأمر.

هناك ركمة في الأسفل؛ شبح تحت ضوء القمر. اقترب، تشتد رائحة الجيفة. اقتربت بقدر كافٍ، ولم تتبق إلا مسافة قصيرة جدًّا بيني وبينها. ثمة جمجمة بيضاء وسط الركمة تمامًا. أنظر إلى الجمجمة بسعادة. وفي طرفة عين وجدت نفسي فوق الجمجمة. هممت بأن أمسكها بيدي اليسرى والكتاب الموجود تحت إبطي بيدي اليمنى. أقف منتصب القامة، وأنظر إلى الجمجمة التي في يدي. إنها جمجمة حيوان... ينتابني شعور بالإخفاق... أوشك على اليأس. عليّ أن أمضي وأحصل على جمجمة من المنازل ذات الستائر السوداء. لا يمكن النكوص من هذه النقطة والارتداد إلى الوراء. لا يسعني أن أفعل هذا. السبيل الوحيد هو الاكتفاء بما في يدي. أتلفت حولي. لا أحد. أمسك الجمجمة من فكها السفلي. لا بد أنها جمجمة حصان. لقد كان الحصان والإنسان ثنائية لا تنفصل، لمئات السنين، وربما لآلاف السنين. والآن يجب أن أحمل هذه الجمجمة إلى منزلي عبر الطرق التي لا يمر منها المسافرون. فلو رأى المسافرون الجمجمة التي في يدي، قد ينقلب كل شيء رأسًا على عقب. وقد يتعقبونني، وحينئذٍ أكون قد أُخذت على حين غرة. تثور بداخلي آلاف الهواجس. وأسقط نهبًا للتردد هل أمضي بالجمجمة أم لا. يسري الخدر في يديّ. لا أستطيع أن أدس كتابي تحت إبطي. سقطت الجمجمة من يدي أو كادت. أشعر بتنميل في مخي. وإذا ببرق يضيء كل كياني:

- لقد نجحتَ. وما تمسكه في يدك هو جمجمة حصان... إنك وإن لم تستطع أن تتعلق بعرف حصان الزمن، فقد أمسكتَ به في يدك. هيا انطلق!

- جمجمة حيوان!

- انظر جيدًا. إنها جمجمة حصان.. لا تنس أن المسافرين يقدسون الحصان. ولذا يمكنك أن توجّه من سيأتون إليك بهذه الجمجمة.

قلت:

- فهمتُ يا فخامة الرئيس.

ما سمعته كان صوت الرئيس، ولكن لم يكن هناك أحد في أرجاء المكان. وكان ما سمعته هذه المرة قادمًا من الخارج. ولم يكن إلهامًا أو ما شابه، خاصة وأننا قد تبادلنا الحديث. فالرئيس فيّ، وفي العالم بأسره. أدس الجمجمة بعناية تحت قميصي، وأمسكها بإحكام. يجب ألا يراها مَنْ يخرجون عليّ. أحمل كتابي في جانب، والجمجمة في الجانب الآخر. أسير واثق الخطى. تئن الأرض تحت قدمي. لست ممتطيًا صهوة حصان الزمان، لكني أمتلكه،

وأحمله في يدي. ما إن أمسكت بالمكان أيضًا، حتى صار المخلّص فيّ؛ وأصبح مالكًا لذاتي ولكل شيء. أسير إلى اللامتناهي الذي أحدده أنا.

وحينما دخلت غرفتي، كان مصباح الغاز مشتعلًا. منذ متى وهو مشتعل؟ يخيل إليّ أنه مشتعل منذ أن عرفته. أصير وكأنني أتذكر أنني قد أطفأته؛ لعله خطأ. وحينما نظرت من النافذة لاحظت المسافرين. أي أنه لا يزال هناك مسافرون في الطريق. أشم رائحة غبار، وأسمع وقع أقدام يترامى من النافذة المفتوحة. جذبتُ الطاولة الموجودة أمام النافذة ووضعتها أسفل المصباح بالضبط. وأسدلتُ الستائر بعناية. وفي هذه الأثناء أوصدتُ النافذة أيضًا. عدتُ ونظرت إلى النافذة مجددًا، فإذا بي أرى أمامي ستائر سوداء. أكانت الستائر السوداء.. سوداء دومًا؟ لم أرد أن أجهد ذهني في هذا الموضوع، وعدتُ فورًا إلى الطاولة، ووضعت الجمجمة والكتاب عليها. وتأهبت لإزاحة ستائر النجاح. لقد قال الرئيس إنني نجحت ساعة أمسكت بالجمجمة في يدي. انتظرت زمنًا لعلّي أسمع صوتًا قد يأتيني من الرئيس، أو إلهامًا يقع بخلدي. وكأن كل شيء سوف يبدأ بي، وينتهي كذلك.

أنظر إلى الجمجمة –التي أحضرتها– في ضوء مصباح الغاز. يمكنني القول إنني قد صرت خبيرًا في هذا الموضوع. فقد سبق أن تفحصت جماجم كثيرة في المنازل ذات الستائر السوداء. إنها جمجمة مستطيلة نوعًا ما، حدباء الفك، عظيمة الأسنان إلى حد ما. ومحاجر عينيها نظيفة تمامًا، بيضاء ناصعة البياض. أما عظم الرأس فهو لامع وأملس. ولم يسبق لي أن رأيت جمجمة تتسم بهذا القدر من الجمال والتناسق. وحينما رأيت الجمجمة ناصعة البياض تتلألأ أمامي، تغشاني نور، وانكفأت على الجمجمة مهتاجًا، ولم أستطع أن أصطبر، فأمسكت بها في يدي. وداهمتني رغبة لا أستطيع لها دفعًا. ورحت في تلك اللحظة أقبّل الجمجمة، وكلما قبّلتها، استرخت أعصابي، ودبت في كل أوصالي حرارة نار تشع بأعماقي. أسبح في بحر من المتعة. أود من صميم قلبي أن تطول هذه اللحظات. ينبسط أمامي طريق النجاح المضيء. أقبّل الجمجمة وأقبّلها. كنت قد أحسست برغبة كهذه لأول مرة في المنازل ذات الستائر السوداء، وغرقت وقتها في المتعة حتى أذني. وكانت عاقبة ذلك هي النجاح. وإنني الآن وحدي، أستطيع أن أتصرف كما يحلو لي. وكل ما هو موجود هنا هو ملكي: الكتاب، والجمجمة، والطاولة، والمصباح. وهذه الغرفة هي غرفتي أصلًا. كل هذه الأشياء قطعة مني. هي عشقي وغرامي وكل ما لي. الحصان وجمجمته، والزمان ومداره، وعرف الحصان وأهداب الزمان... تتراص هذه الكلمات بمعنى وبغير معنى. والجمجمة في حضني.

وقبيل انتصاف الليل أخذت الجمجمة، ووقفت أمام النافذة، وأزحت الستار، وفتحت الزجاج، وثبّتُ الرأس على الجهة الخارجية للنافذة، ورحت أنظر إلى المسافرين من فرجة الستار الذي أزيح. وبعد فترة لاحظت أن المسافرين

يبدون وكأنهم يتوقفون تحت نافذتي. دققت النظر أكثر. كان من الواضح أن المسافرين لم تكن لديهم نية النظر إلى النافذة. قضيت الليلة بتمامها أتابع المسافرين، ولم يحدث أي شيء مختلف. وحين أضحي النهار خلا الطريق، ولم يبق أي أثر للمسافرين. وعلى أثر هذا أخذت الجمجمة من النافذة ووضعتها على الطاولة. وكان ضوء النهار قد بدأ ينفذ إلى الغرفة. أطفأت المصباح بنفخة. حينئذٍ أدركت أن ضوء الغرفة قد غطى على ضوء المصباح وأفقده بهاءه.

وتذكرتُ أنني فيما كنت أغادر هذا المكان طويت فراشي ووضعته في خزانة الملابس. فأخذت فراشي من هناك، وفرشته على الأرض، وحينما أويت إلى الفراش أدركتُ أنه لم يتبق أي أثر من الظلال الموجودة في المنازل ذات الستائر السوداء. إنني ملتحف بملابسي، مدرك لذاتي، مرهق مكدود، يغالب النعاس عينيّ... كل هذه دلائل التحول مجددًا إلى كيان مادي ملموس. ومنذ تلك اللحظة قررت أن أعيش الليل نهارًا، والنهار ليلًا. وإلا كيف كان يمكنني أن أخفي وجودي؟

وحينما استيقظت كان المساء قد بدأ يسدل سدوله على غرفتي، فانتفضت من فراشي على الفور، وأشعلت المصباح، وطويت فراشي، وأعدته مكانه مجددًا، وأخذت الرأس الموجود على الطاولة، ووضعته أمام النافذة مثل أمس. ثم رحت أنظر إلى الطريق من بين فرجة الستار الذي أزيح. وما هي إلا لحظات حتى بدأ المسافرون يتوافدون ويتزايد عددهم شيئا فشيئا. بيد أنه لا أحد منهم قط يلتفت وينظر إلى النافذة. يعتصرني شعورٌ باليأس. لا بد أن ثمة خطأ أو عيبًا. أفتش في ذاكرتي، لا يسعني أن أمسك طرف خيط في هذا الموضوع. ولا يرد تنبيه من الرئيس أيضًا؛ لا إلهام، ولا همس! أترنح في الوحشة خوفًا من أن أكون قد صرت شخصًا منسيًّا.

وبعد طول انتظار ويأس، تذكرت كتابي فجأة. كيف نسيته وهو خارطة طريقي الوحيدة؟ أسرعت من فوري إلى الطاولة، وأخذت الكتاب في يدي، وفتحت الصفحة الأولى مجددًا، فكان أول ما استرعى انتباهي أناس متناهون في الصغر محتشدون بين فردتي حذاء الرئيس الطويلتين. كنت قد طالعتُ هذه الصفحة من قبل. وهذه المرة وضعت إصبعي على الطرف العلوي الأيمن للصفحة كي أفتح الصفحة الثانية. انتظرت لحظات لعله ترد إشارة من مكان ما. ولما لم يحدث ما انتظرته، هممت بفتح الصفحة. كنت أستطيع أن أفتحها. لم يكن هناك حائل قط. قلبت الصفحة بانتباه، فإذا بي أرى جمجمة عظيمة، وآلاف الأيدي تمتد إليها! وقد جحظت عيون المتطلعين إلى الجمجمة على سعتها، وفي أحداق كل واحد منهم صورة الجمجمة. كنت أطالع بكل وضوح انكسار البشر واستلابهم أمام الجمجمة. فكرت للحظة لِمَ لم يكن للجمجمة التي لدي نفس التأثير؟ نظرت إلى الجمجمة الموجودة في الكتاب بمزيد من

الدقة والإمعان، فرأيت خارطة عالم فوق هذا الرأس. هذا معناه أن أهم ما ينقص الرأس الذي أحوزه هو هذه الخارطة.

كيف لم أفكر في رسم خارطة العالم فوق الجمجمة. مع أنها كانت مرسومة فوق الجمجمة التي أظهرها لي الرئيس. كيف نسيت أيضًا أن الرئيس طلب مني أن أرسم خارطة العالم فوق الجمجمة التي سوف أقتنيها. هل هذا نسيان، أم خلل عقل؟ في وضع كهذا كان يأتيني تنبيه من الرئيس. فكرتُ مرة أخرى، فأيقنت أن تنبيه الرئيس يأتي حال ارتكابي خطأ، لا في حال النسيان. هذا معناه أنه من الآن فصاعدًا يتوجب عليّ أن أصلح ذاكرتي بنفسي. أي أمر هذا حتى يمكن أن يحدث خلل في ذاكرة جديدة بهذا القدر؟ لعله سهو وقتي أو النزق والتسرّع لدى تعلم أشياء جديدة...

أسرعتُ إلى النافذة فورًا، وتلقفت الرأس، والتقطتُ أنفاسي على الطاولة. وشرعتُ في العمل على الفور. حددت –أولا قبل أي شيء– مكان المنازل ذات الستائر السوداء فوق الرأس. وكان هذا المكان هو الطرف المحدب للفك تمامًا. لِمَ اخترت هذه النقطة؟ لقد مضت إليها يداي من تلقاء ذاتها في حقيقة الأمر. لعل ذلك دافع في اللاشعور كان قد تشكل في المنازل ذات الستائر السوداء... وكان يتوجب عليّ مجددًا أن أبحث في سر وضع النقطة الأولى هنا، حتى لا أضطر إلى النكوص وأنا في منتصف الطريق. نظرتُ بإمعان، وفكرت، وجدت أن انفتاح الفك وانغلاقه يمكن أن يؤثر في العالم الذي سوف يتشكل على الرأس بأسره. ومثلما كان يمكن لهذه النقطة أن تضمن تحقيق توازن العالم، كان يمكنها أن تكفل اتحاد وانفصال البلدان الواقعة فوق الفك مع البلدان الواقعة أسفله. وعند الضرورة كان يمكن أن تزيح القارات بعضها، ويؤدي هذا الوضع إلى نشوء تكوينات جديدة. نعم لقد كانت المنازل ذات الستائر السوداء مركز توازن هذا العالم. كنت قد ألممت بتقنية رسم خارطة كهذه بكافة تفاصيلها. طويت الكتاب، ونحيته جانبًا. كان يمكنني أن أرسم خارطة العالم عن ظهر قلب فوق الجمجمة. شرعت في العمل مهتاجًا يحدوني الأمل. رسمتُ القارات أولًا، ثم الدول... وهذا كله رسمته وفقًا لمركز المنازل ذات الستائر السوداء.

وبعد أن فرغتُ من رسم الخارطة، أمسكتُ الجمجمة بيدي، ورحتُ أتفحصها بإمعان في ضوء المصباح. وقتلت كل شيء فحصًا. كان العالم بين يدي، وكان بوسعي أن أفعل ما أشاء في هذا العالم بحركة من يدي. وكان المنزل الذي أوجد فيه ملاصقا للمنازل ذات الستائر السوداء تمامًا. وكانت البحار والقارات قريبة كل القرب من بعضها بعضًا ملتصقة التصاق الشفاه بالشفاه. وكان يُسمع خرير ماء الأنهار. وها هو ذا أصبح لدي دستور الآن.

وضعت الجمجمة فوق الطاولة، ونظرت إلى الكتاب مجددًا. انفتحت أمامي الصفحة التي بها صورة الرئيس. وفطنت هذه المرة إلى الخارطة الموجودة

تحت قدمي الرئيس. وكانت خارطة العالم هذه صعبة المنال، ولا يمكن إدراكها بسهولة. وكان البشر المتناهون في الصغر الموجودون بين فردتي حذاء الرئيس موجودين في هذا العالم. كيف لم أفطن لهذا الأمر من قبل؟ فتحت الصفحة الثانية؛ فإذا بخارطة العالم مرسومة فوق جمجمة مستديرة. والبشر يمدون أيديهم بغية التعلق بهذا العالم. وبعد هذه التفاصيل الجديدة التي رأيتها نظرت إلى الجمجمة التي بحوزتي والخريطة المرسومة فوقها. وجدت الجمجمة التي معي ليست مستديرة، بل على النقيض من ذلك كانت مفرطة الاستطالة. أطرقت، ثم قنعت بأن هذا القدر الضئيل من الاختلاف لن يغير أشياء كثيرة.

رغم شتى الصعاب، نجحت في النهاية. وفيما كنت أتفاخر بيني وبين نفسي بهذا النجاح، تغشى نور الفجر غرفتي. فأطفأت المصباح على الفور، وأسدلتُ الستائر السوداء على نافذتي بإحكام. وبسطتُ فراشي، وتمددت فوقه. سوف أنتظر المساء في سهد وأرق، فالحياة بالنسبة إلي تبدأ حينما يسدل الليل سدوله على غرفتي.

8

يهبط المساء رويدًا رويدًا على الطريق. وضعت الجمجمة أمام النافذة. أنظر إلى الطريق من فرجة الستار. كنت قد تعلمت أبجدية جديدة تمامًا، وبعلمي هذا أيضًا كنت قد وضعت العالم فوق هذه الجمجمة. وبرأيي كان كل البشر يستطيعون أن يقرأوا الأبجدية التي تعلمتها بنظرة واحدة. وبعد أن تعلمت أبجدية بهذا القدر من الأهمية، واكتسبت قدرًا لا بأس به من المعلومات، كان بإمكاني أن أعلّم هذه الأبجدية بسهولة لمن سينشغل باله بالجمجمة من المسافرين. وكنت أستطيع أن أدجّنهم بما يتماشى مع تعاليم الرئيس، لأصل بهم إلى مستوى يتوافق والمنازل ذات الستائر السوداء. ومنذ هذه اللحظة كنتُ مستعدًا لمهمتي الجديدة. يحل ظلام المساء، ومن بعده يسطع نور القمر على الطريق. أنتظر، فبعد قليل سوف يُهتك حجاب الصمت؛ ويستيقظ الطريق الذي ظل نائمًا طوال النهار، ويطغى وقع الأقدام من كل حدب وصوب، وتفزع هذه المدينة الكبرى ـ التي أوجد بها ـ بسماعها وقع هذه الأقدام.

رائحة غبار... أركز انتباهي؛ يظهر المسافرون. إنهم يتوافدون صوب نافذتي على عادتهم. وحينما أراهم أنفعل، وأنا أحلم بقادم الأيام. مر الفوج الأول من تحت نافذتي، وفي إثره الفوج الثاني والثالث أيضًا. إنهم لم يلحظوا بعد الجمجمة الموجودة على نافذتي. عليّ ألا أيأس، عليّ أن أنتظر متحليًّا بالصبر. وسوف أنجح هذه المرة. وإن لم يُكتب لي النجاح، فستكون العاقبة وخيمة؛ حيث أبقى أتخبط في الوحشة. وحينئذٍ يصبح وجودي عبئًا عليّ، ولا أستطيع الفرار حتى من نفسي.

هل نقص شيء فيما فعلتُ؟ لا بد أن هناك سهوًا أو غفلة. فلو أنني ارتكبتُ خطأ، لنبَّهني الرئيس. عليّ أن أمسك الجمجمة مجددًا في يدي، وأقابلها بالصفحة الثانية من الكتاب، فلطالما كانت هذه الرغبة تثور وتخبو، غير أنها لم تكن لتدوم. لا أستطيع أن أبرح مكاني بأي حال من الأحوال. ظلت عيوني تتردد بين الجمجمة والمسافرين. وانتصف الليل، ولم يتغير شيء إلى الآن. وكم هو ترتيب هذا الفوج الذي يمر؟ رأسي يغلي مثل قِدر، وألم يمتد من وسط جبيني إلى كل أوصالي... أقف وعيوني مسلطة على المسافرين.

أنظر باهتياج، أبصر أحدهم يقف أمام نافذتي... يرفع رأسه وينظر إلى الجمجمة. يداخلني سرور وانفعال. وقبيل الساعات المتأخرة يتعلق مسافر آخر بها، وبعد فترة أخرى يظهر ثالث. ثلاثة أشخاص تحت نافذتي الآن وقد تعلقت عيونهم بالجمجمة. ينعكس ضوء الفجر على الطريق الشاغر. يقفون وكأنهم تسمروا في أماكنهم، وصوّبوا نظراتهم إلى الجمجمة. أنقر بأصابعي

على زجاج نافذتي كي أجذب انتباههم. لكنهم لا يحركون ساكنًا، وكأنهم توحدوا مع الجمجمة. فتحتُ الزجاج جزئيًّا وصحتُ: - تعالوا ادخلوا، لا تخافوا!

لا يبدون أي رد فعل... أصيح مجددًا:

- اقترب شروق الشمس، تعالوا إليّ إن كنتم لا تريدون أن تفنوا!

لا يظهرون أي رد فعل، ولا يغيّرون هيئتهم. هبط ضوء النهار على الطريق أو كاد. وكان هذا كارثة بالنسبة لهم! فالمسافر الذي تصيبه الشمس مقضي عليه بالفناء. أعلم هذا علم اليقين. تُرى هل تحوّل هؤلاء الثلاثة إلى تماثيل حينما سطع عليهم ضوء النهار؟ في هذه الحالة من الممكن أن تمتلئ واجهة نافذتي بالتماثيل. تراني تحولتُ إلى فرع للمنازل ذات الستائر السوداء. لا يمكنني أن أعرف ماذا سأفعل. لعلهم بمجرد أن يبصروا ضوء النهار يفرون إلى الداخل. لا يمكنني أن أجازف بخطر كهذا... فبقاؤهم هناك قد يتمخض عنه عواقب غير متوقعة قط.

أنطلق إلى الردهة باهتياج لا يُطاق أصابني جراء آلاف الاحتمالات التي تصطرع في رأسي. أهبط الدرج وكأنني أطير، وألقي بنفسي إلى الطريق. أدنو من الرجال الثلاثة على مهل. إنهم لا يشعرون بوجودي، وينظرون إلى الجمجمة وكأنهم قد سُحروا. أمعن النظر، أرى صدورهم تنخفض وتعلو؛ أفرح لأنهم لم يتحولوا إلى تماثيل بعد. أتحسسهم بيدي، لا يعبؤون بي. أحس بحرارة أجسادهم في يدي. لا أستطيع أن أتمالك نفسي. أصيح فرحًا: - الشمس تشرق! خطر الموت! إنكم على وشك الضياع. لا تتوقفوا، الحقوا بي!

أبدوا رد فعل، وحولوا أنظارهم تلقائي. وعليه دخلت على الفور المنزل عدوا. كنت على يقين من أنهم سيلحقون بي؛ إذ أدركتُ من حركاتهم أنهم فهموني.

صعدت إلى الردهة وثبًا على الدرج. وكنت قد تركت باب الغرفة مفتوحًا. وحينما جئت إلى واجهة الباب تنحيت جانبًا على الفور. لم يستطع الرجال الثلاثة –الذين جروا ورائي بأقصى سرعة– أن يتوقفوا، ودخلوا الغرفة. أغلقت الباب على الفور، ورحت أراقب ما سيحدث بالداخل من ثقب المفتاح. لقد أسرت ثلاثة مسافرين، وخطوت أولى الخطوات المكللة بالنجاح. لكن قلبي كان يخفق. أكان هذا خوفًا؟ أم قلقًا؟ أم اضطرابًا؟ لم أستطع القطع بمشاعري. كنت سأحاول أن أتبين الموقف بالنظر من ثقب المفتاح. ووفقًا لهذا كنت سأتصرف.

مضى الرجال حتى انتهوا إلى الجدار وتوقفوا. لم يكن هناك أبعد من هذا حتى يذهبوا إليه. وبعد أن تلبثوا فترة هكذا، التفتوا ونظروا إلى الباب. وحينما رأوه موصدًا، توجهوا إلى النافذة. وحينما أطلوا منها على الخارج، هدأوا واطمأنوا وكأنهم ثابوا إلى رشدهم. مد أحدهم يديه وأخذ الجمجمة التي على النافذة، وحملها ووضعها على الطاولة. وجاء الرجلان الآخران اللذان رأيا هذا بدورهما إلى الطاولة. كان ثلاثتهم ينظرون معًا إلى الجمجمة. ثم أخذوها في أيديهم

وتناوبوا تقبيلها، ووضعوها مجددًا على الطاولة. ثم شبكوا أيديهم فوق صدورهم وراحوا يحدجونها بأبصارهم باحترام وإعزاز.

بلغت سعادتي ذروتها إثر تصرفهم هذا. إنهم كانوا يجلّون الجمجمة، وينظرون إليها وكأنهم ينظرون إلى شيء مقدس وعظيم. كنت أعلم أنهم لن يبرحوا هذا المكان. هم الآن بشر العالم الذي رسمته. ومنذ ذلك الحين كنت وحدي أستطيع أن أحدد حياتهم. لم أستطع الاحتمال أكثر. فتحت الباب ودخلتُ. انتبهوا لدخولي، فالتفتوا إليّ وراحوا يرمقونني بنظراتهم. كانت نظراتهم فاترة حتى إنني لم أستطع الجزم بأنهم يروننني. كان عليَّ أن أتحدث حتى أستطيع أن أتفهّم الوضع بوضوح وجلاء، فقلت: - يا أصدقائي، أنا مُخَلِّصكم. أنا رئيسكم. لقد فُوضني الرئيس الأبدي الموجود في المنازل ذات الستائر السوداء. وبدخولكم إلى هنا قد بلغتم مقصدكم.

قال ثلاثتهم معًا منفعلين:

- المنازل ذات الستائر السوداء!

وكانت أعينهم تبرق وتتلألأ.

أدركتُ أنهم يبصرونني ويسمعونني أيضًا. أسعدني هذا. والآن عليّ أن أعرف ماذا يعرف هؤلاء.

قلت:

- ألا تعرفون المنازل ذات الستائر السوداء؟

فتهجوها وهم ينظرون إليّ بعيون متسائلة: - المنازل ذات الستائر السوداء؟!

فبدأتُ حديثي لهم قائلًا:

- لقد خرجتم بقصد الذهاب إلى هناك. بيد أن طريقكم انتهى هنا. وهذا أفضل لكم حقًّا. وسوف نضطلع هنا بمهام أعظم ذات صلة بالمنازل ذات الستائر السوداء.

- هنا؟ أين نحن؟ نحن أين؟

أفهم من كلمات هؤلاء الرجال الثلاثة أنهم مدينون لي بالولاء والإخلاص، ويأتمرون بأمري منذ تلك اللحظة. وسيبقى كل ما أضعه في ذاكرتهم ويدوم.

- أنتم في إحدى شُعب المنازل ذات الستائر السوداء. وقد انتهت رحلتكم بنجاح. وإنكم في طريقكم لأن تصبحوا منقذين. وعما قريب سيصبح كل واحد منكم مُخَلِّصًا. وبعدها سوف تنشئّون مخَلِّصين. وبذلك تتحقق الثورة المنشودة في فترة وجيزة. لا تخافوا، وجددوا أملكم باستمرار.

أدرك من نظراتهم أنهم يستمعون إليّ بكل جوارحهم. والتقطيبات البادية في جباههم إنما هي دلالة عن أنهم يصدقونني ويؤمنون بي. وحينما رأيت أنهم لم يسألوا سؤالًا واستوعبوا جيدًا ما قلته، رفعتُ الكتاب الموجود على الطاولة،

وقلتُ: - ها هي خارطة الطريق التي أعطاني إياها الرئيس. كل شيء مدون هنا في هذا الكتاب.
حوّلوا نظراتهم إلى الكتاب، فوضعته مجددًا على الطاولة، وأخذتُ الجمجمة في يدي، وأردفتُ: - وهذا أيضًا دستوري. به سوف نأسر الناس ونشكلهم حتى يتسنى لهم أن يروا طريق الخلاص.
عقدوا أيديهم فوق صدورهم، وانحنوا انحناءة يسيرة مثلما وقفوا لأول مرة أمام الجمجمة، وقالوا: - لقد بايعنا على السمع والطاعة، وجددنا الثقة التي فقدناها. وتفتحت ذاكرتنا المنغلقة على الكلمات والأحداث الجديدة. وها نحن نبصر ونسمع ونحيا! وتتوارد كل كلمة إلى ذاكرتنا محملة بكثير من المعاني لا معنى واحد.
صحتُ:
- لقد نجحتم، نجحتم!
كان البريق الذي في عيني كل واحد منهم ينتشر على وجهه كابتسامة. يملأ الضوء المخلّص للنجاح والسعادة الغرفة... وفي هذا الضوء العظيم صحت بأعلى صوتي: - أنا الرئيس!
نظر الرجال الثلاثة مرة إليّ، وأخرى إلى بعضهم، ثم هتفوا معًا: - عاش رئيسنا!
تجسد وميض السعادة –الذي برق في عيني كل واحد منهم وارتسم على شفتيهم– في كلمات، فتحدثوا وهم ينظرون إلي: - أنا قائد.
- وأنا صاحب مؤسسة.
- أما أنا فعامل.
وهتفوا معًا:
- عاشت حكومتنا!
تشكلت هذه الحكومة مع بزوغ الفجر، وراحت تبسط نفوذها على العالم في شكل موجات زلزلتْ الجمجمة، فراحتْ تبسط أمامنا عالمها المرسوم عليها. التقتها بيديّ وقلتُ: - هذا هو دستور هذه الحكومة العظيمة.
فقالوا:
- دستورنا!
قلتُ:
- لكن هذا ليس بكافٍ. ويستلزم قوانين تُصاغ في ضوء هذا الدستور. وسوف تُفعّل هذه القوانين على الرؤوس، وهكذا نستطيع تشكيل الناس بالقوانين العملية الملموسة لا بالقوانين النظرية المجردة. إننا نعلم أن الناس يفكرون بعيونهم. ويمكنكم أن توجهوا من يفكرون بعيونهم كيفما تشاءون.
فقال القائد:

- اتفقنا. لكن أين الشعب؟ ألا يستلزم الأمر وجود مجتمع من أجل ممارسة الحكم.

قلتُ:

- الشعب في كل مكان. وما هذا الذي تسميه الشعب؟ إنه سرب من النمل. تستطيع أن تجده في كل مكان. إذا كانت لديك حكومة، تستطيع أن تجد لها شعبًا. إن لم يكن هذا الشعب فذاك... وهناك حكومات كثيرة تأسست في المنفى، وحكمت شعوبًا.

قال القائد:

- في المنفى!

أطرقتُ إثر سماعي هذه الكلمة. من أين تبادرت إلى عقلي كلمة منفى هذه؟ ولكي أتدارك الموقف، قلتُ: - نعم... إن حكومتنا أسمى حكومة، وسوف تحكم شعوبًا عديدة. إنك قائد. لا تشغلن بالك بصغائر الأمور. اهتم فحسب بأوامري.

تأثر القائد بكلماتي هذه وأطبق صامتًا، وأحنى رأسه أمامه احترامًا.

نظر صاحب المؤسسة والعامل بدورها إلى القائد، ثم حوّلا نظراتهما الخجولة المرتعشة إليَّ، ووقفا وقفة إجلال وإكبار. ها قد أسستُ حكومتي. إذن ماذا بعد؟ كنتُ في مواجهة عصيبة لمشكلة عسيرة. وفي خضم هذا المأزق تذكرتُ الكتاب الذي أعطاني إياه المخلّص. كيف نسيتُ سريعًا هذا الكتاب التنويري الذي أظهرته لرجالي باعتباره خارطة الطريق؟ ولأنني نصَّبتُ نفسي رئيسًا في تلك اللحظة، فسوف أذكر الرئيس الموجود في المنازل السوداء باسم المُخَلِّص. فكل شخص يمكن أن يكون رئيسًا، لكنه لا يمكن أن يكون مُخَلِّصا. وحتى يتسنى للرئيس الشروع في مهمته عليه أن يمضي بإذن المُخَلِّص. وبهذه الأفكار أخذتُ كتابي، وفتحت الصفحة الثالثة على الفور. أطالع مقبرة شاسعة لا حد لها ولا نهاية، تعجّ بمئات من البشر ينبشون قبورًا دون توقف، ويملؤون جوالق على عجل ويحملونها معهم. وعلى صعيد آخر هناك بنّاؤون يشيدون بناءً في موضع هذه القبور التي أزيلت. أدقق، إنه يشبه مبنى مدرسة. أي أمر هذا؟! فالمنطقة لا تصلح للسكنى، فكيف ببناء المدارس! وتُزال شواهد القبور التي تربط الراقدين فيها بأحفادهم واللاحقين لهم بعضهم واحدة بعد أخرى. ينتابني مزيج من مشاعر الخوف والفرح والاهتياج... وتتواتر في ذهني كلمات: المسافرون، والموتى، والقبور، والتلاميذ، والحياة الجديدة، والمنازل ذات الستائر السوداء، والظلال، والمخَلِّص... وفجأة تمسك بمؤخرة عنقي يد تدفعني نحو الكتاب. أرى أن الإجابة على كل الأسئلة موجودة في الصفحة التي أمامي، وأعي كل شيء. وضعتُ الكتاب فورًا على الطاولة، وأومأت إلى القائد بأن يقرأ الصفحة الثالثة جيدًا. وأقبل الاثنان الآخران كذلك، وانكفأ الثلاثة معا على صفحة الكتاب. تنحيت قليلًا إلى الخلف، كي يقرأ رجالي الصفحة التي أمامهم بشكل أفضل ويحفظونها.

وكان رجالي قد بدأوا على الفور يقرأون أبجدية المنازل ذات الستائر السوداء. ومن ثم استطاعوا أن يعوا الصفحة التي أظهرتها لهم ويستوعبوها بكافة دقائقها وتفاصيلها. وقد أسعدني هذا سعادة بالغة. أخرجت فورًا حقيبة السفر الموجودة تحت خزانة الملابس. وأخذت القلم الذي بداخلها، وعدتُ إلى رأس الطاولة من جديد. يبدو أن رجالي قد غاب وعيهم، أغلب الظن أنهم توحدوا مع الصفحة التي يطالعونها. لم أوقظهم حتى يحفظوا كل شيءٍ جيدًا. لقد كانت ذاكرتهم الشاغرة مهيأة لالتقاط كافة ما يُوضع أمامها.

ربّتُ على كتف القائد وقلتُ:

- هل انتهيتم؟ هل حفظتم؟

قال القائد:

- كأنها أبجدية اخترعت خصيصى من أجلنا... إننا نستطيع أن نقرأ كل شيء بنظرة واحدة.

قلتُ:

- الآن أنصتوا إليَّ جيدا! سأكتب خطة عملنا على الجدار. وعليكم أن تحفظوها حتى تستطيعوا المضي قدما في طريقكم. هذا أول قانون أحدثكم عنه.

قال صاحب المؤسسة:

- الكتابة؟! إننا لا نعرف الكتابة ولا القراءة.

قلتُ:

- أنتم قد قرأتم بالفعل الآن...

قال القائد:

- نعم لقد اكتشفنا أبجديتنا.

قلت:

- حسنًا إذن. هذه هي الأبجدية التي سأكتب بها؛ الأبجدية التي تعلمتها في المنازل ذات الستائر السوداء. هل هناك أبجدية سواها حتى أتعلمها؟! وأنتم عن أي أبجدية تتحدثون؟ وماذا في ذاكرتكم أصلا؟ إنها ذاكرة عمرها ساعتان. لكن سعتها عظيمة للغاية ومهيأة لالتقاط كل شيء. وها أنا ذا أكتب الآن، وأنتم بدوركم تقرؤون.

كانوا ينظرون إليَّ بدهشة بالغة. ولعلي لو تحدثت أكثر أو انتظرت، لساءت الأمور. ولهذا بادرت إلى الكتابة فورًا على جدار الغرفة الأبيض إلى جانب نافذتها المواجهة للباب، وقد انعكس عليه ضوء الطريق. يرد في ذهني وقع الرقم ستة، فرحتُ على الفور أدون القانون ذي المواد الست وهي: 1ـ سنمضي –في أقرب وقت– إلى أقرب مقبرة، ونبدأ في نبش القبور، وننقل ما نعثر عليه بداخلها من جماجم إلى هنا.

2ـ بعد الفراغ من إخلاء المقبرة، سنبدأ في إجراء الفحوص والدراسات على ما جمعناه من جماجم.
3ـ بعد أن نأنس إلى هذه الجماجم، سيأتي الدور على رءوس الأحياء. سنجتمع على جانبي الطريق ونقطع رءوس أولئك الذين يقاومون التحول إلى مسافرين، ونأتي بها إلى غرفتنا.
4ـ وبعد أن نضمن أن الجميع قد صاروا مسافرين، سنمد يد العون للمسافرين. ونحمي من تقطعت بهم الأسباب وتخلفوا في الطريق من الشمس، ونحول دون هلاكهم، ونلحقهم مجددًا بركب المسافرين بعد أن نكسبهم قوة جديدة. وسنقوم بتوطين من لم يستطيعوا استجماع قواهم في المنازل الشاغرة للمدينة، ونتولى تعليمهم.
5ـ بعد أن يتحصل لنا القدر الكافي من الرجال، سنشيّد مدرسة في المقبرة التي أخليناها، نلقّن فيها تلامذتها –بشكل عملي– كيف أن الماضي كان ظلامًا حالكًا. وبذلك نُنَشِّئ أناسًا أسوياء للغد وقادم الأيام.
6ـ بعد كل ما تقدم، تحين المرحلة الأخيرة. أي مرحلة هذه؟ وما طبيعتها؟ سوف يتضح في أوانه. وآمل أن نصل إلى مرحلة نتجاوز فيها حواسنا الخمس.
- ها هو ذا انعكاس الأسهم الستة للمنازل ذات الستائر السوداء علينا. والآن ثبتوا عيونكم على الكتابات المدونة فوق الجدار. وانقشوا هذه الكتابات في ذاكرتكم جيدًا.
قلتُ هذا، ورحتُ بدوري أطالع ما كتبته.
كيف كتبتُ هذا؟ ومن أين لي بمعرفة هذه الأبجدية؟! إنها وليدة تلك اللحظة. لعلها كانت إلهامًا جديدًا من المُخَلِّص. وكان رجالي الثلاثة أيضًا يستطيعون قراءة ما كتبته دون تعتعة. أدركت أنها الأبجدية المشتركة للثورة الكبرى. كان بمقدور كل من يؤمن بالثورة أن يقرأها بسهولة ويسر. هل هذا يُعد تطورا للحاسة السادسة؟ مما يعني أن الرقم ستة يشير إلى قدرة المرء على تجاوز حواسه الخمس.
راح رجالي يقرأون ما كتبتُه شيئًا فشيئًا بصوت مسموع. جلستُ على مقعدي، وفتحت كتابي، ورحت أحدّج مجددًا الصفحة الأولى، وتفحصت الصفحة الثانية والثالثة أيضًا بذات الطريقة. استبد بي الفضول للنظر في سائر الصفحات، لكنني لم أستطع. لم أتلق إلهامًا ولم يهمس لي المُخَلِّص بمطالعتها. استمر رجالي الثلاثة يقرأون ما كتبته. وكانت هذه الأبجدية وكأنها انعكاس أكثر بدائية للأبجدية التي في كتابي. لأنها لم تكن تملأ ذاكرة المرء بنظرة واحدة، وكانت تُقرأ تهجيًا، بينما كان ما يحكيه الكتاب بإشارة واحدة، يُعبر عنه بحروف كثيرة. أظن أننا حينما نصل إلى المرحلة السادسة، سيكون بمقدورنا نحن أيضًا استعمال هذه الأبجدية.

***

يتغشى الظلام الغرفة شيئًا فشيئًا، ويدنو منا وجه الليل الأسود. وأنا مشغول بكتابي، ورجالي مشغولون بالكتابة الموجودة فوق الجدار. وحتى الآن كنت أتطلع إلى الطريق ليلًا، وألزم الفراش نهارًا. أما اليوم فقد اختلفت هذه القاعدة هي الأخرى. واستحالت كل الساعات إلى ساعات عمل. شعرت للحظة أنني تعبت وغالب النعاس عيني. لكن الغفلة للحظة قد تؤدي إلى أخطاء فادحة لا يمكن علاجها. نهضت توًّا على قدمي كي أستجمع قواي. سحبتُ مقعدي إلى أسفل الطاولة، وناديت رجالي: - هل حفظتم ما على الجدران؟

فأجاب القائد:

- أجل يا سيدي ونقشناه في ذاكرتنا.

- إذن اتله على مسامعنا...

راح القائد يقرأ بالضبط مثل آلة صوتية مبرمجة، ووجهه متجه إليّ.

قلت:

- أحسنتَ. هل هناك شيء غير مفهوم؟

- كلا يا سيدي.

- وهل حفظ صاحب المؤسسة والعامل كذلك وفهما كل شيء؟

فقالا معًا:

- حفظناه عن ظهر قلب واستوعبناه سيدي الرئيس.

- وهل ثمة أمر لم يتأتّ لكما فهمه.

- كلا يا سيدي. فهمناه كله.

قال القائد والنور يبرق في عينيه والكبرياء ترتسم على وجهه، وهو ينظر إليّ: - في انتظار أوامرك الجديدة سيدي الرئيس!

قلت:

- أحسنت. سعدتُ بهذا. إنكم في الأصل أناس أكفاء، أعلم هذا. وإلا من أين كنتم ستفكرون في التطلع إلى النافذة؟ البداية حسنة للغاية، وأؤمن أن الخاتمة ستكون أجمل أيضًا.

أخذت الكتاب والجمجمة من على الطاولة، ووضعتهما في حقيبة السفر الموجودة تحت خزانة الملابس ورجالي يتابعونني بدهشة. قفلتُ: «الحقيبة»، ودسستُ المفتاح في جيبي. وأقبلت مجددًا إلى الطاولة، وبدأت أتحدث: - لقد انتهت في الوقت الراهن مهام الكتاب والجمجمة. وسوف أعود إلى الكتاب مجددًا بعد الفراغ من إخلاء المقبرة التي حدثتكم عنها. أعرف أنني سأجد تعليمات سديدة في الصفحة الرابعة. وسأسن قانونًا جديدًا لكم يتماشى مع هذا.

ناديت القائد رافعًا صوتي:

- أيها القائد!
استفاق القائد فورًا، وأحنى رأسه أمامي، وقال: - أمرك سيدي الرئيس.
- سنمضي الآن إلى المقبرة. إنه مكان أعرفه حق المعرفة. فاستعدوا للمهمة: أي اضبطوا حواسكم الخمس على عملية فتح القبور.
قالوا:
- حواسنا الخمس طوع أمرك. وحينما ندرك حاستنا السادسة فسوف نضبطها هي الأخرى وفق ما تراه.

9

حين خرجنا من المنزل كان ضوء القمر قد عم الدنيا. وكان ثمة طريق أسفل النافذة الموجودة في الناحية اليمنى من المنزل، هذا الطريق قد بدأ يحمل المسافرين إلى المنازل ذات الستائر السوداء. وكي أستطيع أن أحتفظ برجالي بمنأى عن المسافرين، أغلقت باب البهو الذي يفضي إلى الطريق. ثمة باب صغير في الناحية السفلى من البهو. خرجنا منه، ورحنا نسير إلى أسفل. لم أكن قد رأيت هذه الأماكن من المدينة من قبل. وكلما تقدمنا كانت المنازل تصغر، وتبدو عشوائية في غير اتساق. وبعد فترة غابت المنازل عن الأنظار ورحنا نسير في خلاء مجدب. وحينما انتهينا إلى ربوة جرداء بدت المدينة خلفها مترامية الأطراف، وبدا منزلنا واقعًا في إحدى ضواحيها المنعزلة. ولقد أثارت كلمة «منعزلة» في نفسي حالة من الامتعاض لم أدرِ له سببًا، ولم أستطع استدعاء أية أفكار أو ذكريات تتعلق بهذه الكلمة. نعم، كان منزلنا واقعًا في إحدى الضواحي المنعزلة للمدينة.

وكانت هناك مقبرة في الجهة الخلفية للربوة. كنتُ أعرف هذا المكان. إلا أنني لا أذكر متى وكيف رأيته. كان ضوء القمر يسقط على شواهد القبور الرخامية فتزداد بريقًا ولمعانًا، وأشجار السرو البري تبسط ظلالها فوق القبور. شواهد القبور تظلم تارة وتضيء أخرى وكأنها كائنات حية. لبثتُ منشغل البال لفترة بهذا المشهد. ثمة رياح خفيفة تبث الحركة والحيوية في المشهد بتمامه. ولاحظت أن رجالي أيضًا قد ظلوا منشغلي البال بمنظر المقبرة.

قلتُ:

- أيها القائد، ما هذا المكان؟

قال:

- إنه مقبرة!

كان يشوب صوته قلق. وكان قلق الرجلين الآخرين باديًا من وقفتهما. وكي أبث الراحة والطمأنينة فيهما قلت: - هل سبق لكم أن رأيتم هذا المكان؟

قال القائد:

- كلا يا سيدي. أظن أنها المقبرة التي حدثتنا عنها... إننا بعد أن التقينا بك، لم نعد نتذكر أصلًا ما قبل ذلك. وحينما رأيناك لاحظنا أن ذاكرتنا قد فرغت فجأة.

ضحكت في داخلي، لأنني كنت أعرف مسبقًا أنني سوف أتلقى ردًّا كهذا. فلو أنهم تذكروا ما مضى، لتعذر بالطبع أسرهم وانقيادهم لي. أما أنا، فهل كنت قد رأيت هذا المكان من قبل؟ كنت أعرف أنني رأيته، ولكني لا أذكر متى وكيف. قد حدّثتُ رجالي عن هذا المكان، أتراها إشارة جديدة ألهمنيها المُخَلِّص؟ فهو

في كل مكان. وعليّ أن أؤمن بهذا. ولو نسيته، قد أسقط نهبًا للوحشة. وفيما أنا مستغرق في هذه الأفكار ترامى إلى أذني صوت القائد: - سيدي الرئيس! أليست هذه هي المقبرة التي حدثتنا عنها؟

لم يرقني سؤاله عن هذا مرة أخرى. وإذا لم نشرع في العمل على الفور، قد تحدث مشكلة. كان من الممكن أن تنفتح ثغرات غير متوقعة في ذاكرة رجالي. وكي أتدارك الموقف بدأت الكلام فورًا: - سننزلُ الآن وعلى الفور إلى المقبرة، وسنشرع في العمل.

سرتُ بخطى سريعة إلى المقبرة الموجودة في سفح الربوة، ورجالي يمضون في إثري في الحال. وحينما دخلنا المقبرة، خرق العامل حاجز الصمت هذه المرة بقوله: - مقبرة كالتي ننشدها بالضبط!

وهنا كان عليّ أن أقيم نظامًا تسلسليًّا؛ إذ كان من الممكن أن تتعرض الحكومة إلى هزة وهي ما تزال في طور التأسيس.

التفتُ إلى العامل قائلًا:

- من الآن فصاعدًا عليك أن تهمس إلى صاحب المؤسسة بما تود أن تقوله، ليقوله هو للقائد، لينقله القائد بدوره لي.

تثاءب القائد باسطًا ذراعيه ينفض حالة الخمول والكسل، واستدار إليّ بأسلوب الواثق من نفسه، وقال: - أمرُك سيدي الرئيس.

قلت:

- أحسنت! هذه هي الحكومة. أنت الآن رئيس الحكومة. وغدا من الممكن أن يكون رئيسها صاحب المؤسسة أو العامل أيضًا.

رحنا نسير في المقبرة منتهكين حرمة القبور القديمة واطئين بأقدامنا مطارق القبور المتهدمة. وكلما خشخش العشب الجاف تحت أقدامنا ارتجفنا. يبدو أن هذا المكان مقبرة لأهل قرية أو مدينة؛ فبعض القبور هنا من رخام، والبعض الآخر بدا متهدمًا ونهبًا للإهمال. ولعل ذلك من حسن حظي؛ حيث يسهل فتح القبور المتهدمة، ولهذا كان يتوجب علينا البدء بها. ولعله كان من الأنسب ترك القبور الرخامية الفخمة واستعمالها كأحواض للزهور في حديقة المدرسة المزمع بناؤها هنا في هذا المكان. كان من الأفضل بعد أن يتم بناء المدرسة الإبقاء على بعض الإشارات التي تذكّر بأن هذا المكان كان مقبرة في الزمان الغابر. وبعد جولة استطلاعية طويلة وجدتُ القبور المهملة كافية لنا. التفتُّ إلى القائد قائلًا: - لقد حددت القبور التي يمكننا فتحها هذه الليلة. وعلينا الشروع في العمل على الفور، ولنحصل على بضع جماجم حتى مطلع الفجر؛ حيث يتعين علينا العودة إلى المنزل قبل الضحى.

قال القائد:

- أمرك سيدي!

كان صاحب المؤسسة والعامل يقفان على جانبي القائد، والقائد يتلفت حوله قلقًا، لكنه لم يكن بمقدوره أن يسأل إطلاقًا عن القبور التي حددتها. فشعرتُ بسعادة غامرة، فهذا يعني أنهم قد سلّموا بعظمتي.

انتهيتُ إلى واجهة كوخ صغير على حافة المقبرة. التفتُّ لرجالي وقلت وأنا أشير إلى الكوخ: - هنا يتوفر ما يلزمنا من أدوات مثل المعول والمجرفة والجولق. كانت هذه الأدوات تُستخدم حتى اليوم من أجل دفن الموتى. ومن الآن فصاعدًا سوف تُستخدم من أجل إخراج رفاتهم من القبور.

تُرى كيف لي بمعرفة هذا الكوخ ومكانه؟! ربما ساقتني غريزتي إلى هنا. وربما هو إلهام من المُخلّص. دخل رجالي الكوخ دون تباطؤ، وخرجوا وقد تناول العامل معولًا، وصاحب المؤسسة مجرفة، والقائد جولقًا. أمسكتُ القائد من كتفه، وأشرت إلى ساحة مهملة إلى الأمام قليلًا؛ حيث بعض القبور التي تتناثر في جنباتها الأحجار، وتنتشر الحشائش الجافة فوقها.

قلتُ:

- ابدأوا من هنا.

هرعوا في التو إلى المكان الذي أشرت إليه، يتقدمهم القائد ومن خلفه الآخران. وبإشارة من القائد ضرب العامل أول معول، وشرعوا في العمل. رحتُ أتجول في أرجاء المكان وأنا أستمع إلى أصوات المعول والمجرفة. وبين الفينة والفينة تتهاوى على مسامعي الأوامر العسكرية الصارمة المقتضبة التي يصدرها القائد. وكأنني كنت أرى الموتى وقد ارتجفوا ذعرًا وهم يسمعون وقع أقدامي. كنتُ أنا الرئيس هنا. وكان على الجميع هنا: تحت الثرى وفوقه أن ترتعد فرائصهم من هيبتي. إنهم يرتعدون... تتشكل الثورة من جديد في رأسي. الموتى خاضعون للأحياء... الموتى الذين يحاولون الفرار من قبورهم! تغمرني الكبرياء والزهو وأرى طريقًا عظيمًا ومضيئًا منفتحًا أمامي؛ في نهايته عالم جديد تمامًا، عالم المستقبل الباهر.

جاوز الليل نصفه وأوشك الفجر أن يولد. كانت أصوات المعول والمجرفة والأوامر المقتضبة للقائد لا تزال تسود المقبرة. وحينما دنوت من رجالي رأيتُ أنهم فتحوا ثلاثة قبور، ووضعوا ثلاث جماجم مستديرة فوق قبر مجاور بعد تنظيفها مما علق بها من أتربة. لم أحسب أنهم يستطيعون العثور على كل هذا القدر من الجماجم السليمة في هذه القبور المتهدمة. نظرتُ، فإذا هم منهمكون في القبر الرابع.

قلتُ:

- عظيم. يكفي هذا القدر هذه الليلة. لقد بدأنا بداية طيبة. وبوسعنا أن ننبش الكثير من القبور في الأوقات اللاحقة. لأننا سنكون قد تمرسنا واكتسبنا مهارة في هذا العمل. والآن لنغلق القبور، ونأخذ الجماجم ونمضي. أمسك صاحب المؤسسة والعامل في إحدى يديهما جمجمة وفي الأخرى المعول والمجرفة.

وأخذ القائد بدوره جمجمة. وأعدنا المعول والمجرفة مكانهما القديم، بعدها سلكنا طريق المنزل.

نسير ونحن نطأ بأقدامنا الحشائش الجافة والقبور العتيقة والأحجار المهشمة وآلاف الجماجم، ورجالي الثلاثة يسيرون إلى جواري وفي يد كل واحد منهم جمجمة. يخالجني شعور لذة الفوز والانتصار. تسلقتُ الربوة بخطى واثقة، ورجالي إلى جواري. وكان الفجر قد بزغ أو كاد. نتوقف عند الحد الفاصل بين المدينة والمقبرة. تشحب وجوه رجالي باستمرار. يقلقني شحوبهم هذا، لكنني أعرف أن ذلك بسبب التعب والإرهاق. تقبع خلفنا المقبرة وقد غطت في النوم مجددًا تحت أشجار السرو البري. وأمامنا مدينة تتأهب لتشييع آخر المسافرين... ترى كم تودع هذه المدينة من المسافرين؟ إذا ما نظرتُ إلى ظاهرها، أجدها تبدو أمامي هادئة وساكنة وكأنها قد خلت من أهلها أو كادت. وبعد أن شردت أذهاننا لفترة في هذا المشهد المثير، رحنا نهبط من الربوة إلى المدينة.

دخلنا الغرفة، حينئذٍ اصطدمنا بضوء مصباحها الخافت. طلبتُ من القائد أن يضع الجماجم على الطاولة ويتنحّوا من هناك. وإذ يتغشى نور الفجر الغرفة، أطفأتُ المصباح. ثمة رائحة غاز تزكم أنفي؛ تهبُّ في إثرها نسمة صباح باردة تلطف وجهي وتثلج صدري...

قلتُ:

- أيها القائد! فلينظف كل واحد الجمجمة التي أحضرها جيدًا.

وبينما كان رجالي ينظفون الجماجم الأخيرة، إذ كنت أطالعهم بدوري. وها هم أخيرًا أنجزوا مهمتهم.

قلتُ:

- الآن، لا تحولوا أبصاركم عن الجماجم، ولتجعلوها في أذهانكم وقلوبكم، ولا تبرحوها حتى في أحلامكم.

راح الرجال الثلاثة يحملقون في الجماجم تارة ويلتقطونها تارة أخرى، ومرة يضعونها على صدورهم، وأخرى يقبّلونها. وحينما رأيت أنهم أنسوا الجماجم، أخرجتُ حقيبة السفر السوداء من تحت خزانة الملابس، والتقطتُ منها ثلاثة أقلام، وسلمتها إلى القائد. وقلتُ: - الآن ليرسم كل واحد منكم خارطة العالم فوق الجمجمة التي أحضرها.

يقف رجالي والأقلام في أيديهم يحدقون إلى الجماجم. أدركتُ أنهم لا يعرفون من أين سيبدؤون، مما يعني أنه كان عليّ أن أبيّن لهم نقطة البدء.

قلتُ:

- أيها القائد!

- أمرُك سيدي الرئيس!

- اجذب الجمجمة أمامك، وضع عليها القلم. الآن سأبيّن لك نقطة البداية. ضع القلم على فك الجمجمة، وضَع نقطة على الطرف تمامًا.
وضع القائد نقطة على الطرف المحدب من الفك بالقلم كما قلتُ له، ثم التفتَ إليّ.
- وضعتَ النقطة، أليس كذلك؟ حسنا! هنا موضع المنازل ذات الستائر السوداء. وبالطبع فإن المكان الذي نوجـد فيه إنما هو داخل هذه النقطة.
- فهمتُ يا فخامة الرئيس.
أقبل القائد على العمل بحماس، وكان صاحب المؤسسة والعامل ينظران إليه ويفعلان الشيء نفسه. وفي هذه المرة كان صرير القلم قد حل محل أصوات المعول والمجرفة التي في المقبرة، وحلت رائحة الحبر محل رائحة التراب. فرغوا من رسم خارطة العالم على الجماجم التي في أيديهم كالتي رسمتها بالضبط. وبعد رسم الخارطة التفتوا إليَّ مجددًا بنظرات متسائلة. ولعل الوقت كان قد اقترب من الظهيرة، إذ ارتفعت حرارة الغرفة نوعًا ما.
قلتُ:
- حسنا! بوسعكم أن تخلدوا إلى النوم الآن. ولن أبين لأحد المكان الذي سينام فيه. يستطيع أي منكم أن ينام حيثما يريد.
وحينما رأيت أن كل واحد من رجالي قد انزوى إلى ركن، ذهبتُ بدوري، وأخذت فراشي، وبسطته في وسط الغرفة مثل كل مرة، واستلقيتُ فوقه.
***
أويت إلى فراشي ثانية دون أن أخلع ثيابي. كان شخير الرجال الثلاثة يملأ الغرفة، أشعر باحتقان في عيني، وخدر في مخي، لكنني لم أستطع النوم إطلاقًا بسبب الشخير. وفي النهاية عيل صبري، فبرحت الفراش، وهززت رءوس القائد وصاحب المؤسسة والعامل، فانقطع شخيرهم، إلا أنهم لم يستيقظوا. ذهبت مجددًا، وأويت إلى فراشي، فعاد شخيرهم يتردد من جديد. نهضت مجددًا، وهززت رءوس الرجال، وقطعت شخيرهم؛ حيث اكتشفت الحل البسيط للمشكلة. لكنني كنت قد أصبت بالتعب والإعياء. وتكرر هذا الأمر.. كم مرة؟ لم أدر. ولكن في النهاية صرتُ لا أسمع شخيرهم. بيد أنني لم أستطع النوم على الإطلاق. وهذه المرة لا تنفك تخطر أمام عيني المنازل ذات الستائر السوداء والظلال والجماجم والقبور. لم أستطع الفكاك من هذه المناظر سواء أغمضت عيني أو فتحتها. تثقل جفوني شيئًا فشيئًا، لكنني قليلًا ما كنت أمنع نفسي من النظر إلى الغرفة فاتحًا عيني جزئيًّا. وفي النهاية ثقلت جفوني لدرجة لم أستطع معها أن أرفعها ثانية رغم ما بذلته من مجهود. وعلى الرغم من أنني كنتُ كمن غاب عن الوعي، كان شعوري بالوحشة يزلزلني، فأستفيق. غير أنني لم أكن أستطيع أن أفتح عينيّ. كنت كمن يغلبه النعاس؛

وكأن النوم كان يتراكم عليّ طبقة فوق أخرى، ولم يعد بمقدوري أن أدفعه عني.

***

أتجوّل مع أبي في المقبرة. تارة يمسك بإحدى يديّ الصغيرتين، وأخرى بيدي الأخرى. أرفع رأسي وأتطلع إلى وجهه. أجده لا يضحك قط، وإنما عابس مكفهر. أنظر إليه باعتباره أقوى رجل في العالم. ولم أكن أشعر بخوف من أي شيء قط ما دام بجواري. غير أن وجهه العبوس طالما كان يخيفني ويفزعني. نسير دون توقف. ولا يدع معصمي الصغير الذي يمسكه بإحكام. ويدي بتمامها في كفه غاية في الحرارة...

أقول له:

- أبي الحبيب، أنت تؤلم يدي، أود أن أسير بنفسي.

يرد بحدة:

- سِر! لن أدع يدك.

أنكمش داخل ذاتي كسلحفاة داخل درقتها، وأسير متعثر الخطوات، وأنا متعلق في يده. تنفذ أشواك الحشائش الجافة للمقبرة إلى كعبيّ. تنغرس فيها. أحس بدماء ساخنة تتسرب في حذائي. وبعد مسيرة طويلة ومضنية نقف عند رأس قبر صغير نخر السوس مطرقته الخشبية وتهدمت الأحجار في جنباته. ترتخي يد أبي، وتتحرر يدي. ويسكن ألم أشواك تلك الحشائش الجافة التي انغرست في كعبيّ. أقف إلى جوار أبي واضعًا يديّ في جيوب سروالي القصير. عيون أبي مسلطة على القبر الصغير. أراه حزينًا يوشك على البكاء. غير أن عينيه كانتا جافتين تمامًا. لا ينظر إليّ، ويتمتم وكأنه يتحدث إلى نفسه: - هذا قبر أخيك الأكبر... مات وأنت لا تزال رضيعا. وقتها كان في الثالثة من عمره.

- أهنا سوف يرقد أخي إلى الأبد يا أبي الحبيب؟

تنفرج أسارير أبي، ويحوّل نظراته إليّ، ويقول:

- هنا سيرقد.

ويردف خافضًا من صوته:

- ليته عاش.

ويرفع صوته مجددًا ويقول:

- لو كان لك أخ أكبر، لحماك. وما كنتَ لترتكب شتى الحماقات وأنت تمشي هكذا متسكعًا.

- ولِمَ ليس لي أخ أكبر يا أبي؟ فالجميع لديهم، ولكن...

أوشكتُ على البكاء؛ اغرورقتْ عيناي. لا بد أن يكون لي أخ أكبر كسائر الأطفال. وفي هذه الأثناء يقبض أبي على معصمي مجددًا، ونغادر القبر.

أمضي هذه المرة مع أبي إلى قبرين كبيرين متلاصقين تغطي واجهتهما حجارة مفلطحة.

يقول أبي:

- هذان قبرا جدك وجدتك.

يترك أبي يدي، ثم يرفع كفيه إلى السماء، وتبدأ شفتاه تتحركان. لا يسعني سماع ما يهمس به. بعدها يمسح وجهه بكفيه، وينفخ في اتجاه القبور. ويأخذ بيدي، وينظر إلى وجهي بعذوبة ويقول: - علينا أن نجلّ القبور ونحترمها.

وحينما يرى والدي أن قدميّ فوق القبر، يقطب جبينه ويتغير وجهه ويقول:

- اسحب قدميك. إن وطأ القبور بالأقدام ليس أمرًا حميدًا. إذ يتأذى من بداخلها ويغضبون من هذا. أيجوز للمرء أن يطأ بقدميه صدور أجداده؟

أنحّي قدمي من فوق القبر فورًا. وأنظر إلى وجه أبي خَجِلًا. وتظل عيون أبي السود متعلقة بالقبور، ويتطلع إليها طويلًا. أنتظر بدوري دون أن أتفوه ببنت شفة. يأخذ أبي مجددًا بيدي في كفه، وأجهد هذه المرة ألا أطأ بقدمي القبور وأنا أسير، وتخز الحشائش الجافة قدمي. ويُخيّل إليّ أن أيادي ستمتد من القبور وتجذبني من قدميّ. ترتعد فرائصي فزعًا رغم وجود أبي إلى جواري. لكن لا يسعني أن أقول له شيئًا. وأسعى لمسايرة خطواته الواسعة حتى أبتعد عن هذا المكان بأسرع وقت ممكن.

عدنا من المقبرة، وذهبنا إلى أمي. وكانت قد استوقدت نارًا تحت حجر المصلّى الذي تطوقه أشجار البلوط. تسوي رقائق الخبز الذي فردته من عجين القمح فوق الحجر، وشمس الصيف قد تعلقت فوق ربوتنا تمامًا، حرارتها مستعرة. ظل أشجار البلوط وارفًا فوق أمي، غير أن وجهها كان ينضح بالعرق. وكثيرًا ما كانت تقلب الخبز الذي بسطته على حجر المصلى بالمِطرحة التي في يديها. ولطالما كانت ألسنة لهب النار المستعرة تلفح وجهها. وكان حطب البلوط يحترق ويصدر حسيسًا. وكلما خبَت ألسنة اللهب تقلب أمي النار وتسعرها بالمسعار الذي تمسكه في يديها. تمسح العرق المتراكم على جبينها والمنهمر فوق عينيها بطرف ردائها القطني، وشعرها الأسود المنسدل على جبينها وحاجبيها الأسودين الكثين مترعين بالعرق.

وقفتُ مع أبي في ظل أشجار البلوط على مقربة من أمي. وكان قميصي الذي التصق بجسمي يبرد. انفعالي في المقبرة، والنار المستعرة هنا، والشمس المعلقة في سماء الربوة كل ذلك جعلني أتصبب عرقًا. كنتُ أرتجف عندما بدأ عرقي يبرد في الظل الوارف لشجرة البلوط. جلس أبي القرفصاء إلى جوار الملاءة التي وضعت أمي بداخلها رقائق الخبز التي سوّتها. ورحنا نتقاسم الخبز، ونأكله لقمة لقمة. ورأيت دموع أمي التي سالت فوق الخبز. وكانت هذه الدموع تصير إدامًا نأتدم به. وبينما كان أبي يبتلع لقمة بعدما لاكها في فمه قال: - تعال، واجلس إلى جواري.

ذهبت بدوري، وجثوت على ركبتي بجوار أبي.
قال أبي:
- ليتك تأكل، لِمَ تحملق فيّ؟
وكنت أنظر إلى أمي ويداي على ركبتي دون أن أحرّك ساكنًا.
قالت أمي:
- كُلْ يا صغيري. انظر ها أنا ذا أجعل من دموعي إدامًا تأتدم به. تُرى ألا يعجبك إدامي؟
كان قلبي يحترق. ناديت على أمي وكأني أتوسل إليها:
- أماه، أريد ماءً.
- لا يوجد ماء يا صغيري. وها أنت ذا ترى أنني أنثر دموعي بدلًا من الماء. هيا كل هذا الخبز المبلل حتى تذهِب ظمأك.
راوحت نظري بين أبي وأمي. وفي هذه الأثناء ناولتني أمي رغيفًا لفّته بيدها. أخذت الرغيف وقضمت منه لقمة. فأخذت اللقمة تكبر وتكبر في فمي.
قالت أمي:
- هل أعجبك قبر أخيك؟
فقال أبي:
- إنه طفل وقح وتافه. لقد وطأ بقدميه قبري جده وجدته...
قالت أمي:
- طفل سيئ الخلق!
قلتُ وأنا أشعر بالذنب:
- لم أطأهم!
قال أبي:
- اصمت، اصمت، لقد وطأتَ بقدميك القذرة خاصرتي جدك وجدتك. كان من الواضح منذ البداية أنك ستكون وبالًا علينا في النهاية. من الأفضل أن يُطوى سجلك من الآن. آه ليت ابني البكر كان حيًّا.
فقالت أمي وهي تنظر إلى أبي بامتعاض:
- لا تتحدث هكذا. إنه لا يزال طفلًا غِرًا. إن شاء الله يحسن الله عاقبته، وليحفظه لنا المولى الذي أخذ أخاه الأكبر.
قال أبي:
- أي طفل هذا. لقد داس بقدميه قبور شقيقه الأكبر وجده وجدته.
ورأيت الدموع تطفر لأول مرة من عيني أبي. إن الآباء لا يبكون، إنما تبكي الأمهات. فالبكاء يناسب الأمهات. وفي تلك اللحظة كانت دموع أبي تنهمر فوق

الخبز. اغرورقت عيناي، ورحت أبكي وأنا أحاول في الوقت ذاته أن أتماسك. وفي النهاية لم ألبث أن انفجرت بالبكاء.

فقالت أمي:

- اصمت!

وقال أبي:

- اصمت، اصمت.

وفي هذه الأثناء أقبل علينا بضعة رجال من الغرباء. أشار إليّ أحدهم وقال:

- ابنكم؟

قالت أمي:

- أجل.

- ليته لم يكن!

قالها أبي وهو ينظر إلى الأرض. فاحتضنني الغريب فورًا. وفي تلك اللحظة لم تلبث أن خبت النار تحت حجر المصلّى.

فقالت أمي:

- ساعدوني حتى أوقدها. لا يزال لديّ عجين في القصعة.

وحينما رأيتُ أن أحدًا لم يساعد أمي، حاولتُ الإفلات من بين يدي الرجل حتى أساعدها. بيد أن الرجل كان يعتصرني بذراعيه فلم أستطع التملص منه، لأنني كنت كلما تململت للتملص منه، كان يزيد من إحكام ذراعيه حولي. لم يكن بوسعي أن أتنفس. ولم يكن أبي وأمي يبديان تعاطفًا معي.

***

فتحت عيني مذعورًا، وجدتُ الغرفة شبه مظلمة. ولا يزال الرجال الثلاثة يغطون في نومهم. وماذا عني؟! هل أنا في نومي أم صحوي؟ هل كل ما عشته منذ قليل كان مجرد حلم؟! هل أنا ذلك الطفل؟! وكأني كنتُ أعرف المقبرة التي تجولتُ فيها. أجئتُ أنا أيضًا من أب وأم؟ ألا تكون المقبرة التي تجولتُ فيها قبل قليل هي ذات المقبرة التي عملنا على هدمها فيما بعد. هل كان لي جد وجدة وأخ أكبر؟ أكانت تلك الأماكن هي الأماكن التي قضيت فيها طفولتي؟ وأين كان والديّ؟ ما أشبه عيون الرجل الذي ناداني يا بني فيما كان ذاهبًا إلى المشنقة بعيون الرجل الذي تجوّل بي في المقبرة ممسكًا بيدي الصغيرة! هل كان ذلك الرجل أبي حقًّا. أليست عيونه موجودة لدى المخلّص الآن؟! آلاف التساؤلات تتهافت على ذاكرتي. ولكن لا إشارة تتعلق بحياتي الماضية. كل ما أعرفه هو أنني استيقظت في هذه الغرفة. وبين استيقاظي هذا وحياتي السابقة ثمة أسوار غليظة منيعة، يطوف عليها رجال مسلحون! أغمض عينيّ بخوف، وأدفن رأسي تحت الغطاء.

هل الأحلام حقًّا تعبير عن العقل الباطن؟ ألم يكن من شكّل عقلي الباطن هو المخلّص؟ لقد طاش لبي أو كاد. عواصف مخيفة تعصف بذاكرتي، وزلازل مروّعة تضربها... لم أستطع التحمل. انتفضت من فراشي. أصلحت هندامي، وطويت فراشي ووضعته في مكانه. يجب ألا تبقى عليّ أي أمارة قط تتعلق بما رأيته قبل قليل. فأدنى هفوة قد تعجل بزوال سلطتي على رجالي. ذهبت إلى النافذة كي أستجمع وعيي، ونظرت إلى الطريق. لا أحد. لا يزال المساء يهبط بظلاله على الطريق. ولعله لم يحن قدوم المسافرين بعد. أسدلتُ الستار، وجئتُ إلى رأس الطاولة. ثمة ثلاث جماجم فوقها. أشعلتُ المصباح. أشعر هذه الليلة بحاجة إلى أن أختلي بنفسي. عليّ أن أرسل رجالي في المساء، لأبقى وحدي.

ذهبت إلى القائد. طوّقت رأسه بذراعيّ بإحكام. إنه يغط في نوم عميق. وكزتُ خاصرته بقدمي. تحرك مغمغمًا بأصوات غير مفهومة. كان عليّ أن أوقظه. نخزته ثانية، فلم يستيقظ، فناديته هذه المرة: - انهض فقد حل المساء!

وما إن سمع القائد صوتي حتى انتفض منتصب القامة قائلًا:

- أمر سيدي الرئيس.

- هيا أيقظ أولئك الذين يستلقون كالجيف.

هرع القائد على الفور إلى جانب العامل وصاحب المؤسسة، وأيقظهما ركلًا. وها هم أولاء الرجال الثلاثة الآن قائمون.

قلتُ:

- أيها القائد!

- أمرُ سيدي الرئيس.

- اجتمعوا حالًا حول الطاولة، فالكسل هو نهايتنا.

فتحلق الرجال الثلاثة فورًا حول الطاولة، ولم يكن يبدو عليهم أدنى كسل، بل كانوا يتدفقون حيوية ونشاطًا.

قلت:

- ليأخذ كل واحد منكم الجمجمة الخاصة به، ويبدأ في فحصها.

فأخذ كل واحد منهم جمجمته ووضعها على صدره، ثم أمسكوا الجماجم في أيديهم، ووقفوا تحت المصباح، وراحوا يفحصونها. أما أنا فقد طفقت أجوب الغرفة حينًا، وأدنو من النافذة حينًا آخر، وألقي نظرة على الطريق، فإذا بوقع أقدام يقرع مسامعي فتغمرني السعادة؛ فالزمان الذي حسبته توقف، إذا به يصبح جوادًا من جديد وراح يعدو. اقتربتُ من رجالي، لقد بدوا وكأنهم توحدوا مع الجماجم ذات الخرائط الموجودة في أيديهم. لقد اجتازوا المرحلة الأولى. رغم هذا سألتهم: - لقد توحدتم تمامًا مع الجماجم، أليس كذلك؟

- أجل يا سيدي.
قلت:
- إن الجمجمة جزء من حياتنا؛ وفوق هذا فهي أهم أعضائنا.
قالوا:
- لا حياة لنا بدون جمجمة من بعد الآن.
صدّقتُ على ما قالوه بهز رأسي، وأنا أحدج وجوههم. وتعمدتُ أن يسود الصمت لبرهة. بعدها قلتُ بإشفاق: - حان الوقت، وهبط المساء على الدنيا. اذهبوا هذه الليلة أيضًا إلى المقبرة ذاتها، وليأتِ كل واحد منكم بجمجمة أخرى. انصرفوا على الفور، وسأنتظركم هنا.
ظلوا مشدوهين أول الأمر على أثر كلماتي هذه. بدا القائد وكأنه يهمّ بأن يقول شيئًا ما. غير أنه عدل عن ذلك لما نظر إلى وجهي. وسار الثلاثة معًا إلى الباب وهم ينظرون أمامهم، وخرجوا، ومضوا في سبيلهم.
وبمجرد أن مضى رجالي أخذت الجماجم الموجودة على الطاولة ووضعتها أسفل خزانة الملابس. وكانت غرفتي على الهيئة التي عليها دائمًا. كنتُ أقف في ضوء المصباح الخافت. نظرتُ، فوجدت ظلي وقد امتدِ إلى النافذة وراح يرتعش. لا أجد في نفسي وسعًا لأخطو خطوة. ظللت ذاهلًا متجمدًا، بالضبط مثل التماثيل الموجودة أمام المنازل ذات الستائر السوداء.
أرفع عينيّ وأنظر إلى النافذة. فإذا بي أرى أمامي عينًا سوداء، حالكة السواد، ثقب أسود جاهز لأن يبتلعني... أخشى الاقتراب من النافذة. وأتحاشى النظر إلى الخارج. وقع أقدام يتردد صداه من الطريق، ورصاص يخترق مخي. فقد مخي كل قدرة على الفهم والإدراك؛ انقطع اتصالي بذاكرتي. لَكَمْ كنتُ محتاجًا إلى إشارة من المخلّص في تلك اللحظة! هل أنا في مأزق؟! أستجمع كامل شجاعتي وأخطو خطوة باتجاه خزانة الملابس. رأيت أنني استطعت السير. تقدمتُ مبتهجًا. سوف أطالع الكتاب الذي أعطاني المخلّص إياه. لا بد أن به إشارة، أهتدي بها إلى مَخْرَج من المأزق. ضجيج يتبعه همس. أقف كلي آذان مصغية. أهو إشعار من المخلّص؟
- لا تعجلْ إلى مطالعة الكتاب! وواصل عملك، أنت في الطريق الصحيح!
تسمرتُ في مكاني. لم يكن بوسعي أن أمضي إلى الأمام أو أنكص إلى الخلف. كان هذا صوت المخلّص. أطرقت حابسًا أنفاسي حتى أستطيع أن أسمع صوته مجددًا. يزداد صمت القبور ووحشتها فتصبح الوحشة هذه المرة ثقيلة لا تُحتمل. أبحث عن حركة في غرفتي. لا حيلة لي سوى أن أنتظر مجيء رجالي وأنا أتلوى ألمًا بين أذرع الزمان الغليظة. سرعان ما ألفتهم وتعودت عليهم. إنهم يبعثون الحياة في دنياي. ودونهم كل الأمكنة قِفار موحشة... لقد بات كل واحد منهم قطعة مني. يطول الزمان ويطول، ويتأخر مجيء رجالي.

انتفض لسماع طرق الباب. فرحة عارمة تملأ جنبات نفسي، وانفعال يلف قلبي...

أصيح:

- ادخلوا!

يملأ صوتي الغرفة كلها. ظننت هذا الصوت صوت المخلّص. تُرى أكان هذا صوتي أنا؟!

- لا تهذي!

صوت مَنْ هذا؟ إنه صوت المخلّص؛ يحذرني من أن أنزل نفسي منزلة أعلى. إنه بجواري دائمًا لا يفارقني، وهو مخلّصي الحقيقي. وبدونه أسقط في هاوية الوحشة. أعي هذا الآن أكثر من أي وقت مضى. وفي هذه الأثناء ينفرج الباب، وينفذ رجالي الثلاثة إلى الداخل وكأنهم أشباح. وفي يد كل واحد منهم جمجمة. يضعون الجماجم على الطاولة، وينظرون إليّ. أظن أنهم لاحظوا أنني أخذت الجماجم التي كانت موجودة على الطاولة.

قلتُ:

- عدتم مبكرًا.

فقال القائد:

- لقد أتينا على الساحة التي أشرت إليها. فإذا بها ستة قبور كاملة، محونا معالمها بعد أن نبشناها.

تمتمتُ:

- ستة.

فقال القائد:

- عفوًا؟

تظاهرتُ بأنني لم أسمع، وقلت رافعًا صوتي:

- عظيم. هذا نجاح باهر. إننا في فترة وجيزة نستطيع أن نسوّي تلك المقبرة بالتراب، ونشرع في بناء المدرسة. اخلدوا الآن إلى النوم حتى يحل عليكم مساء غد وأنتم أقوى بعد أن نلتم قسطًا أوفر من الراحة.

قال القائد:

- ألا نرسم الخرائط على الجماجم؟

- لقد انتهتْ هذه المهمة. ولا حاجة لكم بعد الآن لأن تجلبوا المزيد من الجماجم. وسنكدّس ما استخرجناه ليلًا من جماجم في جانب. سنكون بحاجة إليها عند افتتاح المدرسة. ولا حاجة كما قلتُ من قبل ـ لهدم القبور رصينة البناء. يكفي تحطيم الأحجار الموجودة في واجهاتها. وسنستخدمها ـ مثلما قلتُ ـ كأحواض للزهور أو ما شابه.

كان رجالي الثلاثة ينظرون إليّ ببلاهة. أدركت أنهم لم يستطيعوا فهم ما قلتُ. لقد كان الخطأ خطئي في حقيقة الأمر؛ حيث تحدثتُ عن بعض الأشياء في غير أوانها. وكانت هذه الأشياء بالنسبة لهم مفاهيم تجريدية يعجزون عن استيعابها. كان بوسعهم أن يستوعبوا فقط ما يرونه رأي العين بتفاصيله. نظرتُ، فوجدتُ أن عيونهم على الجماجم التي أحضروها.

قلتُ لهم:

- الآن نظِّفوا جيدا تلكم الجماجم التي أحضرتموها، وضعوها تحت خزانة الملابس. رصّوها حول الجماجم التي رسمتم عليها خارطة العالم هناك.

راح رجالي ينظفون الجماجم على الفور، وأنا أتمشى في الغرفة ثانية. وبعد فترة أخذتُ الفراش وبسطته على الأرض. وأخيرًا رأيت أن رجالي قد أنجزوا مهمتهم. فدنوت منهم وقلت وأنا أشير إلى الفراش الموجود على الأرض: - انتهت مهمتكم. بإمكانكم أن تناموا الآن.

راوحوا نظراتهم بيني وبين الفراش. كان من الواضح أنهم لا يريدون النوم في فراشي، ويتوجسون من هذا.

صحتُ قائلًا:

- ناموا!

فقال القائد:

- سيدي، وأنت؟

- لا ولن يحق لكم أن تسألوا... إنني أعطيكم هذا الفراش حتى تناموا هذه الليلة نومًا صحيًّا أكثر.

وحينما لمسوا تصميمي، استلقى ثلاثتهم على الفراش فورًا. وغطيتهم بالغطاء حتى أبعث فيهم الشعور بالطمأنينة، فراحوا في النوم في التو.

كان النظام الذي وضعته يسير دون خرق. وكم مر من الوقت؟ لا أدري. لعله مر كثير من الوقت. كان رجالي الثلاثة يخرجون في المساء، ويعودون في الفجر مرهقين منهكين. وكان هذا الوضع يكشف عن نفسه كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله. ولم أكن طويتُ فراشي بعد فيستلقون فيه بمجرد مجيئهم. وما يكاد يهبط المساء حتى ينهضوا في التو كالساعة المضبوطة. وقد ظل عَقْرَبَا هذه الساعة يتأرجحان بين المقبرة والمنزل. وتحول صرير درجات السلم الخشبي إلى أنشودة تشيعهم في المساء وتستقبلهم في الفجر.

وبمجرد أن يخرج رجالي من المنزل، كنت أمضي إلى النافذة، وأزيح الستائر جزئيًّا، وأطالع الطريق، وأنتظر عودة رجالي بعد مرور آخر مسافر منه. وما هي إلا بضع دقائق، حتى يعود رجالي إلى المنزل يطرقون بابه، ويدخلون الغرفة بعد أن يتلقوا الإذن مني. وهكذا لم أكن أبقى وحيدًا وقتًا طويلًا. فسرعان ما كان يمر وقتي بين المسافرين ورجالي. بيد أن بقائي وجهًا لوجه

مع رجالي طيلة اليوم بعد أن يستيقظوا كان قد بدأ يزعجني. وفي النهاية وجدتُ حلًّا لذلك. كنتُ أخرج إلى الردهة بينما هم نائمون، وأتابع منازل المدينة وشوارعها. وبمرور الوقت، كنت أبرح المنزل وأتجول في المدينة المهجورة، أبحثُ وأدققُ. لم تعد تفزعني الشوارع التي تصطلي بأوار شمس الصيف والأسقف التي تصدر أزيزا تحت قيظها. قد توحدتُ روحًا وجسدًا مع هذه المدينة. كان واضحًا أن أهل هذه المدينة قاطبة قد صاروا مسافرين منذ زمن بعيد، ونزحوا عنها. فأثناء تجوالي طيلة اليوم لم يتأتّ لي رؤية كائن واحد يتحرك. ومن جهة أخرى كنت أتصور أنني سأملأ هذه المدينة يومًا ما. أتوق إلى أن ينتهي أمر تلك المقبرة، حتى يأتي الدور على من هم على قيد الحياة في هذه المدينة. كنت أعتقد أنني أستطيع جمعهم في فترة وجيزة. وأن هذا المكان يمكن أن يغدو محطة مهمة للمسافرين شأنه شأن المنازل ذات الستائر السوداء.

وذات غروب كنت قد عدتُ إلى المنزل، وغالبًا ما كنت أعود في هذه الآونة. لأن رجالي كانوا لا يزالون نائمين. كانوا يستيقظون في موعدهم بالضبط. وكنت أنتظر وقت استيقاظهم واستعدادهم للخروج. لم يستيقظ رجالي هذه المرة. بدأتُ أنتظر بفضول، وقد جنَّ الليل، وخيمت ظلمته على الغرفة. وبدأ يترامى من الطريق وقع أقدام يتعالى. لا يزال رجالي يغطون في نومهم. وكأن أنفاسهم قد تباطأت، غير أنهم لم يستطيعوا أن يستيقظوا على الإطلاق. دنوتُ من الفراش، وانتظرتُ فترة، ثم جذبت الغطاء من فوقهم. ظلوا ككومة أسماك فوق الفراش، نظرتُ، فوجدت القائد يحاول أن يفتح عينيه جزئيًّا. قلتُ: - لقد مرت ساعة الاستيقاظ، بل فات موعد الذهاب. ورغم هذا لا تستيقظون! ماذا حصل لكم؟ هل أنتم مرضى أم ماذا؟!

قال القائد مندهشًا:

- مرضى؟!

كان له أن يندهش. فهذه الكلمة لم يكن لها أي معنى قط في ذاكرتهم حتى الآن. ولكي أقطع الطريق على المزيد من تداعي الأفكار زمجرتُ قائلًا: - انهض!

انتفض ثلاثتهم معًا، وألقوا بأنفسهم حول الطاولة. طويتُ الفراش، ووضعته في مكانه.

وقلتُ:

- عقابًا لكم، من الآن فصاعدًا لن تناموا لدى عودتكم من المقبرة.

قال القائد دون تريث:

- أمرك يا سيدي!

- ماذا تنتظرون؟! هلموا إلى عملكم.

فقال القائد وهو ينظر إلى الطاولة:

- تم إخلاء المقبرة يا سيدي الرئيس.
قلتُ:
- متى؟ ليلة أمس؟ رائع، لكن لِمَ لم تخبروني؟
- لم تسل ولم نجرؤ على الحديث.
قلت:
- جميل!
أشعلتُ المصباح حتى أستطيع أن أرى وجوه رجالي من كثب. نظرتُ إلى الجدار المدون عليه المواد الست. ما زالت الكتابة على حالها دون طمس أو خدش.
قلتُ:
- الآن ألقوا نظرة من جديد على تلكم المواد الست. يجب ألا تنسوها حتى لا تتخبطوا وأنتم تنهضون بالمهام الجديدة.
- لقد ألقينا نظرة يا سيدي الرئيس.
قلتُ:
- كيف؟ وأنتم حتى لم تنظروا إلى الجدار بعد.
قال القائد:
- هذه الكتابات راسخة في أذهاننا. يكفي أن نعود إلى عملنا.
- إذن قُلْ: لنرَ على أي مادة جاء الدور.
ووضع الرجال الثلاثة أيديهم على جباههم. من الواضح أنهم كانوا يجهدون إلى استجماع أشياء ما في رءوسهم. ولمّا لم يأتني رد صحتُ حانقًا: - أي أمر هذا؟
هوت كلماتي هذه كالمطرقة فوق رءوسهم، فترنحوا أو كادوا، وبحثوا عما يتشبثون به.
بدأت الكلام حتى أرفع عنهم هذا الضيق:
- المادة الثالثة... لقد نفذنا المادتين الأوليين. والدور على الثالثة. أرى ثمة مشكلة اتصال بينكم وبين عقولكم. ولا سبيل إلى تلافي الأخطاء دون علاج هذه المشكلة. لا بد من اتساق أعضائكم مع حواسكم.
فقال القائد برهبة ودهشة:
- المادة الثالثة!
رأيتُ أن الرهبة والدهشة اللتين ارتسمتا على وجه القائد، قد انعكستا بدورهما على صاحب المؤسسة والعامل. وبدوا وكأنهما في مأزق، يجب استنقاذهما منه. فأشرتُ فورًا إلى الهدف الجديد: - الدور الآن على الأحياء!
انتفضوا، ونظروا إليّ بعيون جاحظة، وسأل القائد متلعثمًا:
- الأحياء؟!

لم يكن هناك معنى لمزيد من الانتظار. كانت المادة المدونة على الجدار واضحة تمامًا. بيد أنهم كانوا يعانون من عسر في الفهم. وكي ألطّف الأمر، رحت فورا أشرح لهم الأمر: - سنبحث عمن يقاومون المضي إلى المنازل ذات الستائر السوداء في كل مكان، ونقطع رأس كل من يأبى أن يصبح مسافرًا، ونأتي بها إلى هنا. وهكذا سيدرك الجميع حزمنا وحسمنا. بالطبع سيرتاع الكثيرون منهم، ويجدون نجاتهم في اللوذ بنا. وبعد هذه النقطة سوف ننتقل إلى المادة الرابعة. سوف نربّي من يلوذون بنا. وبعد الحصول على النتيجة سنشرع في بناء المدرسة في المقبرة التي أزلناها، وبذلك نبسط سطوتنا على المدينة بأسرها. وإذ نقوم بكل هذا، علينا ألا ننسى المنازل ذات الستائر السوداء.

نظرتُ إلى وجوههم. كان واضحًا أنهم استوعبوا ما قلته. وحينما لحظتُ هذا، واصلت كلامي: - هل هناك ضرورة لمزيد من الشرح والإيضاح! على أي حال كل هذا مدون على الجدار. والآن اقرأوا مواد هذا القانون مرة أخرى.

وما انفك رجالي الثلاثة ينظرون إلى وجهي مندهشين، لا حركة ولا كلمة. كان عليّ أن أشرح لهم بشكل عملي، لا بشكل نظري حتى يمكنني الحصول على نتيجة. وكان الأمر قد آل إليّ مجددًا. كان عليّ أن أضع أمامهم رأسًا قطعته أنا بيدي. وبعد قراري هذا صرّحتُ: - أرى أنكم لم تألفوا الجماجم بعد. خذوا الآن ما أحضرتموه منها، وابدأوا مجددًا فحصكم لها، وارسموا على كل واحدة منها خارطة العالم مثل سابقيها.

هرع القائد من فوره، وكشف الغطاء الخشبي الصغير الموجود أسفل خزانة الملابس، وجثا على الأرض، وراح يخرج الجماجم واحدة بعد أخرى. وكان صاحب المؤسسة والعامل يقفان خلفه. وأقبلوا جميعًا إلى الطاولة وكل واحد منهم يحتضن جمجمة. عندئذ تذكرت أن الأقلام في حقيبة السفر المقفلة، فمضيت بدوري، وأحضرتها وأعطيتها لرجالي.

وقلتُ:

- ابدأوا عملكم الآن.

خامرني الشك هل كتابي والجمجمة التي أحضرتها من الجدول الأبيض موجودان في حقيبة السفر أم لا! لأن نظري لم يقع عليهما فيما كنت آخذ الأقلام. وددتُ أن أمضي ثانية وأفتح حقيبة السفر لأتبيّن هل هما موجودان هناك أم لا. لكني لم أستطع أن أفعل هذا. وفي النهاية حاولت التخلص مما يساورني من شكوك وأنا أنظر إلى رجالي الذين يعملون على الطاولة. وبعد فترة ذهبت إلى النافذة، وأزحتُ الستار، ورحت أتطلع إلى المسافرين.

كنت قد استغرقتُ في التطلع إلى المسافرين الذين يمرون تحت نافذتي، حتى سمعت وقع أقدام يقترب. نظرتُ فإذا بالقائد متسمرًا إلى جواري تمامًا

وعيناه على الأرض. أسدلتُ الستار بإحكام على الفور، وقلتُ للقائد: - تكلم، هات ما عندك!

فقال بصوت خائف مرتعش:

- لقد رسمنا خارطة العالم على الجماجم يا فخامة الرئيس.

- حسنًا. هل أنتم واثقون الآن من أنكم مستعدين للمهمة الجديدة.

قال القائد:

- نحن...

عنّفته قائلًا:

- لا تراوغ!

وسرتُ بخطوات سريعة إلى الطاولة. وكان القائد يقف إلى جواري بهدوء وكأنه ظل. وقفتُ أمام الطاولة، وعلى جانبي القائد صاحب المؤسسة والعامل. كان الثلاثة ينتظرون معًا وعيونهم على الطاولة.

سألتهم مجددًا:

- مستعدون الآن لقطع الرءوس، أليس كذلك!

لم أظفر برد على سؤالي. ظلت نظراتهم حائرة تراوح بين الطاولة والمصباح والجدار والنافذة. وللأسف لم يكن ممكنًا أن تتوافر لديهم شجاعة قطع الرءوس إطلاقًا. لا بد أن إزهاق روح إنسان كان بالنسبة لهم أمرًا مخيفًا. ظلوا يتململون لا يجدون مهربًا يائسين. أعلم أن قلوبهم تخفق مثل عصفور يتململ في قبضة إنسان. ولو أنني تحاملت عليهم أكثر، فسيرضون بالذل والهوان وينسحقون، ويتردون في يأس عميق، ويظلون يدورون حول أنفسهم مثل الأشباح ويرمقونني بنظرات تائهة. ولعل وصول الأمر إلى هذه النقطة، كان من الممكن أن يسفر عن ردود أفعال غير متوقعة. ومن ثم كان عليّ أن أبحث عن سبل للحيلولة دون ذلك فورًا.

بدأ ينمو بداخلي شعور بأن البشر مثل الحشرات يجب سحقهم. وبينما كان ينتابني هذا الشعور ويتفاقم، إذ كان عليَّ فورًا أن أقطع رأسًا وأضعه أمام رجالي. يجب أن يلمسوا رأسًا داميًا ساخنًا قُطع لتوه حتى يقهروا الخوف، ويسيروا بثقة إلى النجاح. عليّ أن أتصرف سريعًا لأصل بهم إلى هذه النقطة، حتى أسير إلى المستقبل.

قلتُ:

- مفهوم، مفهوم! حذار أن تتحركوا من هنا، سأعود على الفور، انتظروني!

كان رجالي متسمرين في أماكنهم، ولم يتجاسروا حتى على النظر إليّ، والرد عليّ. توجهت على الفور إلى الباب، وخرجت إلى الردهة. وفي هذه الأثناء لم أنس أن أغلق الباب. كنت على ثقة من أنهم سيبقون في أماكنهم، ورغم هذا لم أمضِ قبل أن أغلق الباب.

***

وبينما كنت أهبط السلّم، إذ كانت درجاته تصدر صريرًا آخر. لم أكن أشعر بخوف أو اضطراب؛ بل كنت أشعر بنشوة متعاظمة هي نشوة المضي لأداء مهمة جليلة. وصلتُ مباشرة إلى حافة الطريق، وكان المسافرون يسيرون وعيونهم على الطريق.

تذكرتُ رحلتي، وتجسد لي الموت واعترض طريقي. كنت أراه ببالغ الوضوح في كل مسافر. كنت أحب هؤلاء أكثر من حبي لنفسي. كيف لي أن أقطع رأس أحدهم؟ وما الفرق بين قتل أحدهم وبين قتل نفسي.

لقد بدأتُ حياتي هذه بوصفي مسافرًا. كيف يمكن لامرئ أن يقطع رأسه؟ أتردد، ويتعاظم هذا الشعور بالتردد، ويتبعه شعور بالإشفاق، ثم شعور بالخوف... صراع يحتدم بيني وبين نفسي.

بالموت وحده ستبدأ الحياة الأبدية؛ أؤمن بهذا. عليّ إذن أن أقطع رأس أحب المسافرين إلى قلبي! أكون أو لا أكون؛ أفكاري مضطربة مشوشة... لا بد من اتخاذ القرار فورًا لتدارك الموقف. كل ثانية تمر قد تؤخر نجاحي ألف سنة. نجاحي يعني أنني أوطّد المنازل ذات الستائر السوداء. أمام عيني علم من الدم الأحمر. يزيد حمرته شعور الرغبة في القتل بداخلي. لن أستطيع فعل ذلك. ترتعش يداي، وأنهار.

عدتُ إلى المنزل، وقفت أمام الباب، ونظرت إلى الداخل من ثقب المفتاح. كان رجالي الثلاثة يقفون متسمرين حول الطاولة بلا حراك، وعيونهم على الطاولة... انتظار صامت. سيمنحهم نجاحي حياة جديدة، ويذكي فيهم الشجاعة. ولو أنني عدتُ صفر اليدين، لكان بمنزلة انتحار لنا جميعًا. أوشكت على الوصول إلى حافة هاوية الانتحار.

أهبط السلّم مجددًا، وأصل إلى حافة الطريق. أنظر إلى المسافرين بأمل أخير وشجاعة أخيرة. إنهم لا يرونني. يسيرون نحو هدفهم. تتحطم شجاعتي، وأعود إلى المنزل من جديد. أروح وأجيء مرات ومرات بين الطريق وباب الغرفة، ويتحول هذا إلى رواح ومجيء لا ينتهي.

لا أدري في أي مرة، قبضتُ على أحد المسافرين وجذبته إليّ. لم ألق منه أي مقاومة تُذكر. أجذبه من قميصه، يأتيني كشاة وديعة طيعة. لكنه لم يرفع عينيه وينظر إليّ. ورغم أننا بعدنا كثيرًا عن الطريق، كان ينظر إلى الطريق لا إليّ. لم يكن الطريق يُرى في واقع الأمر، لكنه كان ينظر إلى جهة الطريق. نظرتُ، فوجدتّنا انتهينا إلى الطريق المؤدي إلى المقبرة. ترتعش يداي. وأغيب عن الوعي أحيانًا. يتفتح ذهني تارة وينغلق أخرى. خدر يسري في أناملي، وتشنج في جسمي. أترك المسافر الذي أمسكتُ به، لكنه يدنو مني بدلًا من أن يبتعد عني. أدركتُ أنني قضيت عليه بإقصائه عن الطريق والمسافرين. أعتقد أنه لم

يعد للحياة معنى بالنسبة له. لقد فقد هدفه منذ زمن بعيد؛ وبعد فقد الهدف ماذا عساه أن يفعل؟

- أحمق! أبله! أرعن!

إنه صوت الرئيس. أشعر بأن كل خلايا مخي تعمل وتتحرك، فأحس بقدرة خارقة على الفهم والاستيعاب. لا يمكنني أن أضع عبقريتي على المحك. الجنون... أنا على خط رفيع بين الجنون والعبقرية. كلا كلا! إنه ليس الرئيس. أنا الرئيس؛ إنه صوت المخلّص... المخلّص بجانبي، وطالما كان بجانبي فلا أخشى شيئًا قط. أخرجتُ السكين الذي في جيبي. زرعته بلا وعي في مؤخرة عنق ذلك الرجل الواقف بجواري. خر مترنحًا. يهرّ، ولا يصرخ، ولا ينطق. يهرّ فحسب بشكل غريب. أشعر بسخونة في يديّ، نظرتُ، إنه دم! صُعقتُ حين رأيته وسقطتُ فوق المسافر الذي طعنته بالسكين.

وحينما أفقت، رأيتُ قميصي الأزرق وسروالي الأسود وقد تلطخا بالدماء الحمراء. جثوت. أمامي مسافر يتمدد بطوله جثة هامدة، لا يهرّ ولا يتنفس... انتزعتُ السكين من مؤخرة عنق الرجل ببالغ همتي، ووضعتها على حنجرته، ورحت أحزّ. وبعد مجهود لا أستطيع أن أجزم كم استغرق من الوقت، فصلتُ رأسه عن جسده، وأخذته في يديّ. وصلتُ إلى المنزل بشق الأنفس، أحمل في يميني سكينًا داميًا، وفي شمالي رأسًا يقطر دمًا ساخنًا. صعدتُ السلم، وفتحتُ الباب سريعًا دون أن أنظر من ثقب المفتاح على ما يجري بالداخل، ودخلتُ.

التفت إليَّ رجالي بنظرات ذاهلة على أثر دخولي المفاجئ عليهم. وحينما رأوني أمامهم، وفي إحدى يدي سكين وفي الأخرى رأس مقطوع تقطر منه الدماء طاش صوابهم. كنت أعرف أن ملابسي غارقة في الدماء. ودون أن آبه برجالي، أحضرتُ السكين والرأس ووضعتهما على الطاولة. تغطي الطاولة طبقة من الدم المتخثر، وبعض بؤر من الدماء، ورجالي يحدجون الرأس في ذهول.

قلت:

- ها هو ذا رأس أحد العصاة. انظروا إليه جيدًا. انظروا حتى تدركوا أنكم لستم أعداء له، بل أصدقاء حميمين.

تلفح رياح الخوف الباردة وجوه رجالي... ينظر ثلاثتهم إلى الرأس بعيون جاحظة. حينئذٍ لحظت أن عيني الرأس مفتوحتان مما زاد الرعب في قلوبهم. أسبلت جفنيه فعاودت عيناه التفتح ثانيةً، واتسعت مُقلتاهما شيئًا فشيئًا! نظرتُ فرأيتنا نحن الأربعة في مقلتيها، عندئذ صحتُ: - نجحنا! نجحنا!

خطف القائد الرأس الدامي فورًا، واحتضنه، فصبغ الدم قميصه! وضع الرأس مجددًا على الطاولة. وفعل صاحب المؤسسة والعامل نفس الفعل بدورهما، أصبحت الدماء تلطخ ثيابنا جميعًا. فصحت هذه المرة بحماس أكثر: - هيا يا

فتياني! ابحثوا بدوركم عن العصاة، واقطعوا رءوس أولئك الذين يأبون المضي إلى المنازل ذات الستائر السوداء، وافصلوها عن أجسادهم. فالليلة هي ليلة الرءوس المقطوعة.

نظر الرجال الثلاثة أولًا إليَّ، ثم إلى الباب. ثم خرجوا ومضوا بخطوات واثقة. كنت أؤمن أنهم سيعودون وفي يد كل واحد منهم رأس. وفي هذه الأثناء، رأيت السكين الذي فوق الطاولة. وبمجرد أن التقطته هرعتُ خلفهم وقلتُ: - لقد نسيتم السكين، السكين! عاد القائد أدراجه والتقط السكين من يدي، وهرع ثانية إلى صاحب المؤسسة والعامل. وبعد أن خرجوا من المنزل، عدتُ بدوري ودخلت الغرفة. ومثلما كان يحدث في الأيام التي أرسلتهم فيها إلى العمل في المقبرة، رحت أنتظر نور الفجر وأنا أنظر إلى الرأس الدامي القائم تحت المصباح. سيعودون حتمًا قبل الفجر.

يستبد بي شعور بالخوف؛ ماذا لو بادر هؤلاء أيضًا إلى قطع رءوس المسافرين؟ كنتُ قد قطعتُ رأس أحدهم، وادعيتُ أنه رأس أحد العصاة. ماذا لو حاولوا أن يلعبوا اللعبة ذاتها! لقد سلكتُ مسلكًا كهذا بسبب ضيق الوقت. فالمخلّص كان قد وبخني بكلام جارح، فاضطررتُ لفعل ذلك. تُرى أكان الأمر كذلك! ماذا عساه يقول! تراني أغضبته بطلب قطع رأس المسافر؟! لو كان الأمر كذلك، أما كان يتوجب أن ينذرني؟! وكلما تواترت الأسئلة وتلاحقت، طال الوقت وكأنه ليس بمنقضٍ. تمر مراحل حياتي وذكرياتي أمام عيني مرات ومرات بدايةً ذكرياتي. استيقاظي الأول، ورحلتي، ودخولي المنازل ذات الستائر السوداء، وتسلمي الكتاب من المخلّص، وعثوري على جمجمة حصان عند «الجدول الأبيض»، قيامي بأسر الرجال الثلاثة، والمقبرة، وأخيرًا قطعي رأس ذلك المسافر... تخطر كل هذه الذكريات أمام عيني، وقد ملأت كل مراحل الزمان. أعيش حياتي من بدايتها. وهذه المرة أدرك جيدًا أن الحياة تستنسخ، وأن لحظة حياة يمكن لها أن تتحول إلى مئات السنين.

وكثيرًا ما تثير كلمة «أب» تداعيات كثيرة في رأسي. الأب المعلق في المشنقة، والأب الذي لم أستطع أن آخذ عينيه من المخلّص، والأب الذي تجول بي في المقبرة وأنا طفل صغير، وزوج العيون السوداء الذي عكس صورتي حينما وُضع أمامي... النور المقدس الذي ينعكس من عالم والدي. الغرفة التي يضيئها زوج من العيون التي تبرق وتلتمع في الرأس الذي لم أعرف صاحبه قط. مصباح الغاز مشتعل. ما أنا؟ أين أنا؟ لعلي مصباح، مصباح مرتعش كي يضيء الغرفة ونفسي. الرءوس في عقلي وأمامي...

انتصف الليل، ولا ضوء للقمر في الخارج.. تخيم الظلمة الحالكة على كل مكان. أما غرفتي فمضيئة. أنا مصباح. ماذا لو أطفأتُ المصباح، ولذت بالظلام.

يُقرع الباب. أنظر؛ لا أنبس ببنت شفة. وبعد فترة، ينفتح الباب، وينسل رجالي الثلاثة إلى الداخل. وفي أيديهم رءوس دامية، وثيابهم غارقة في الدماء. كاد

هذا المنظر أن يخنقني. أرى الرءوس الدامية على الطاولة، والسكين الدامي أيضًا! أتذكّر قلادة العيون والآذان التي علّقها المخلّص في رقبته. وأشعر بوخز في رأسي. أجهد كي أداري اضطرابي عن رجالي. أنادي عليهم بآخر أنفاسي: - أحضروا الرءوس الجديدة، أحضروا الرءوس الجديدة!

يخرج الثلاثة معًا دون تلكؤ. أتنفس بعمق كي ألملم شتات نفسي. لا أعرف كم انقضى من الوقت؛ نور الصبح تغشى غرفتي. أتلفّتُ حولي بارتباك. لا يزال رجالي غير موجودين بالمكان. يكشف النور عن نفسه أكثر. لا يسعني الإمساك بالليل، وكأنه يتعجل الانحسار عن غرفتي. أين المخلّص؟ منقذي أنا. أمامي أربعة رءوس دامية، وسبع جماجم تحت خزانة الملابس. لا صوت يصدر منها؛ يخفت ضوء المصباح شيئًا فشيئًا. التصق الخوف بقلبي كالقار. لا أستطيع أن أذر ظلام قلبي على الغرفة. يدهمني النهار.

- أيها القائد، أيها القائد!

هذا صوتي. أصيح مجددًا، لكن دون جدوى. أنادي على رجالي. الغرفة صماء، والباب مغلق بإحكام. وضوء النهار يتسرب من ثقب المفتاح... وبرك الدم المتخثر فوق الطاولة. ويصطبغ ضوء النهار الوردي بعد فترة قصيرة بحمرة الدم. تفيض الحمرة التي تملأ غرفتي على الخارج. تصاب تلافيف مخي بالاستسقاء، وينطفئ بريق عينيّ. هل أُصبتُ في المخ؟ تتشوّش ذاكرتي، وترتعش قدماي. أتحامل على نفسي كي أظل واقفًا على قدمي. أخِرُّ على الأرض، وأبدأ في الحبو باتجاه خزانة الملابس. لا يسعني أن أعتدل. أجذب حقيبة السفر الموجودة تحت خزانة الملابس، وأخرجها، وآخذ كتابي من داخلها. أشعر وكأنني أسترد وعيي. اعتدل محتضنًا كتابي. لا أستطيع النهوض. أجثو على ركبتي، وأحاول أن أفتح كتابي؛ أحس بلزوجة في صفحاته. أنظر... الدماء تلطخ يديّ! تقطر الدماء من صفحات الكتاب. أتزلزل خوفًا... قهقهة تملأ الغرفة... أحس بسخونة في وجهي؛ أرى ضوء الشمس هذه المرة، فيبعث وجودها الروح بداخلي قليلًا. أنتظر. والانتظار هو أشد لحظات حياتي خوفًا. تظلم عيناي، وتنسدل عينا أبي السوداوان أمامي كالستار. تصدر الحشائش الجافة خشخشتها، تمامًا كتلك التي في المقبرة. يبتلع رأس أبي المدمى الرءوس الأربعة الموجودة على الطاولة. تتساقط كلمات الدجال واللعنة من ذاكرتي أمام عيني. تتحول إلى بحر دم أتخبط فيه. كيف أنجو من بحر الدم هذا. جثماني، أين أنت يا جثماني؟! رأيتك فيما كنتُ ذاهبًا إلى المنازل ذات الستائر السوداء؛ وقتها كنت قد نفذتَ إلى أعماقي، وقد رأيتك. اخرج! لشد ما أحتاجك؛ تعال، ساعدني، أنقذني!

جلبة مضجرة لا تحتمل تترامى من النافذة إلى غرفتي! أقبض بإحكام على كتابي الملطخ بالدماء، وأزحف صوب النافذة. ستائر مفتوحة، وطريق يحمر شيئًا فشيئًا. تتعالى الجلبة ويعظم الضجيج، وتصبح أكثر إضجارًا. أهي جلبة

شبيهة بالجلبة التي سمعتها أمام المنازل ذات الستائر السوداء؟ كلا كلا، فهذه غير محتملة وقاتلة! أقاوم وأعتدل، وأنظر من النافذة. آلاف من البشر أمام نافذتي، يتحلّقون حول بحيرة دم. أنظر بإمعان؛ فإذا بثلاث جثث ممددة على الأرض! أشرئب ناحية الطريق؛ إنها جثث القائد وصاحب المؤسسة والعامل غارقة في الدماء! عيون جموع الناس ـ قاتمة السواد ـ مسلطة عليّ. أين القبعات؟ من أولئك أصحاب العيون قاتمة السواد؟ تُرى هل هم المسافرون؟ تُرى كيف تخلصوا من وطأة القبعات؟! تتخلخل ركبتاي، وأهوي مثل غِرارة فارغة. أفكر في الهرب، لكن كيف؟

- الموت للملاعين أعداء الإنسانية.

من يهتف بهذه الكلمات التي تأتي من كل الجهات وتسيطر على العالم بأسره؟ يوجهني الوعي أم اللاوعي؟ ومضة واحدة من المنازل ذات الستائر السوداء، أو همسة من المخلّص من الممكن أن تنعشني من جديد. يدا جثماني الباردتين تعبثان بوجهي... لكنني لا أستطيع أن أراه. ماذا لو رحلت من جديد كي أدركه؟ براكين مشتعلة في مخي، تحوّل كل الكلمات إلى حمم نارية، ولا أستطيع أن ألتقط أي كلمة قط. كلمة واحدة تكفيني حتى أستطيع أن أرى ومضة أهتدى بها إلى طريقي.

ينفتح بابي على حين فجأة. ويتقاطر آلاف البشر إلى غرفتي. فيتوقف قلبي أو يكاد...

أئن قائلًا:

- من أنتم؟ وماذا تريدون؟

أمن شفتيّ انسابت هذه الكلمات؛ هذه الكلمات الباردة قارسة البرودة...

- نهاية ظلم الإنسان لأخيه الإنسان!

من يقول هذا؟

طوفان من الحمم ينهمر عليّ... كل شخص هاجمني كأنه كرة نار قذفها بركان... لا أستطيع أن أتنفس. أقدام تتنقل فوقي. قدم غليظة تطأ حنجرتي... وكلمات تملأ أذني: - مت، مت، مت! لقد تحررت مدينتنا. قل أين قوى الظلام التي كانت خلفك؟ أنت الدجال؛ وأنا المهدي، وأنا عيسى... لقد هلك الدجالون. وسوف تتحرر الإنسانية من جديد. مزّق كتاب الظلام هذا!

ينزلق كتابي من يدي، ولا يسعني الإمساك به. صفحات ممزقة منثورة في جنبات المكان؛ خشخشة ورق تملأ الغرفة. لا يمكنني أن أرى شيئًا على الإطلاق. انمحت المشاهد، ومزقت الأصوات أذني؛ لا أستطيع أن أسمع شيئًا قط. أتحشرج. تمثُل الرءوس الدامية أمام عيني! الدماء في كل مكان! وجسدي صنبور دم، يتدفق في الغرفة بغزارة!

10

الدجال والمهدي وعيسى... أعيش حياتي القصيرة من جديد؛ تتكاثر كل مراحلها باستمرار. المنازل ذات الستائر السوداء، والمخلّص، وأنا ورجالي... يبتعد الدجال باستمرار؛ يتركني غارقًا في بحر من الدماء ويمضي دون أن ينظر حتى ورائه. يحيط بي عيسى والمهدي، يتكاثرون باستمرار، ويرمقونني بعين الإشفاق والرحمة. أشعر براحة في جسدي، ويزول عنه توتره.. أمامي مشاهد قبور منبوشة، وجماجم، ورءوس مقطوعة وقطرات الدم! أعجز عن تحريك جسدي الممدد على الأرض غرقًا في دمائه، وتنمحي تلك المشاهد شيئًا فشيئًا.

إنني في مدينة تعج بالناس، في منزل حجري من طابقين يقع أقصى المدينة في أعلى موضع فيها. أحملق في المدينة من أدناها إلى أقصاها: أرى سهلًا شديد الاستواء في نهايتها. من هنا ألحظ كافة مفردات المدينة. وها هي المنازل ذات الستائر السوداء في ذلك السهل؛ وأمامها آلاف من التماثيل... وكأنه لا علاقة لمن يعيشون بالمدينة بما يجري في السهل. تجنح ظلمة المساء من السهل إلى المدينة. وبعد فترة يهاجم الليل الحي المنعزل الذي يقع فيه منزلي وكأنه ثور أسود هائج. تتقلص المنازل في حلكة الليل مضيئة عيونها الصغيرة الباهتة. تتردد فيها صيحات أطفال وأنّات نساء وسعال رجال وأصوات ارتطام أوانٍ وأطباق؛ طعام العشاء في المنازل التي تفيض حيوية ونشاطًا. تنتشر الأضرحة في أماكن متفرقة من المدينة، وتضيء الشموع منافذها. يوجد الأحياء مع الموتى جنبا إلى جنب يعانق بعضهم بعضًا. أضل مكاني شيئًا فشيئًا، وأعجز عن أن أميز أين أنا. ميت أنا أم حي؟ يفرغ العالم أمتعته وأثقاله أمام عيني. هذا العالم والعالم الآخر أمامي؛ يختلط فيّ الموت والحياة. لا يسعني التشبث بهذا العالم، ولا المضي إلى العالم الآخر.

يدخل جلاد أسود ضخم الجثة غرفتي، يمسك بسيف ماضي الحدين... يتردد صدى كلمات: «الدجال، والمهدي، وعيسى» في رأسي. أرى أسنان الجلاد البيضاء وسيفه اللامع فيقشعر بدني كمن ضربته عاصفة ثلجية في وسط سهل مجدب؛ أعجز عن النطق، ولا يسعني أن ألملم شتات ذهني! أنظر حولي مرتاعًا، أرى امرأة ورجلًا طاعنين في السن... وحينما أدرك أنني لست بمفردي، أشعر بنسيم غامض بداخلي؛ فأبتهج، وأثوب لرشدي تدريجيًّا. أتحرك لكني أعجز عن النهوض. أشعر بتعب يسيطر على كل أوصالي. تتجول المرأة العجوز بحجابها الأبيض في الغرفة. ويتمدد رجل مسن، أشيب الشعر، غائر الوجنات، شاحب الوجه في فراش أرضي منزو في الركن الأيسر للغرفة، وقد سحب الغطاء عليه حتى فكه، وراح يحملق في السقف في صمت، ولا يحرّك

عينيه قط. لعله ميت... يقف الجلاد بمهابة أمامي وقد ركز عينيه المظلمتين الواسعتين عليّ. من الواضح أن المرأة العجوز والرجل المسن لا يبصران الجلاد. ولا ينم موقفهما عن شيء غير عادي. عيون الرجل على السقف، وعيون المرأة العجوز على الأرض. تمر المرأة العجوز من أمام الجلاد وتقبل عليّ. ومثلما كانت غير فطنة لوجود الجلاد، لم يكن بدوره يعبأ بها. لا تزال عيونه عليّ. ترفع المرأة عينيها، وتتوجه ببصرها نحوي. وحينما ترفّ عيناها تنهمر الدموع فوق وجنتيها. وتعجز نظراتها المفعمة بالشفقة أن تخلصني من العيون المظلمة المسلطة عليَّ. لساني منعقد، وشفتاي مطبقتان. ولا يسعني أن أنبس للمرأة ببنت شفة. ويتردد في أذني صوتها وقد أوشكت على البكاء:

- إنه مريض بالسرطان؛ ولا أَمَلٌ في شفائه حتى نجري له جراحة ونغرق في الديون في غير طائل.

أحوّل نظراتي إلى النافذة؛ فأرى مدينة متوهجة يعيش فيها الأحياء جنبًا إلى جنب مع الموتى. أنظر مجددًا إلى الغرفة بيأس. أبصر المرأة العجوز تكفكف دموعها بطرف حجابها الأبيض، وتسوي حجابها بيديها المتغضنتين. وفي هذه الأثناء يصرف الرجل المسن طريح الفراش نظراته نحوي. أراقبه بطرف عينيّ. تتحرك أجفانه ببطء، وتُسبل على عينيه. لا تزال نظرات الجلاد الأسود المخيفة والمظلمة مسلطة عليّ. تتحرك جفون الرجل، ويترامى إليّ صوته المرتعش والضعيف:

- لِمَ ستستدينون بسببي؟ لا أستطيع أن أترككم من ورائي بائسين لا حول لكم ولا قوة. لا أريد أن أعيش بعد. اتركوني لأموت دون أن ألحق الخسران بأحد. لا تمنّوا عليّ، فإني أريد الرحيل غير مدين لأحد. لقد ظهر الفساد في الأرض حقًّا، وآلت نواصي البشر وأزمّة أمورهم إلى الملاعين. إنني أود الرحيل قبل أن أفقد المزيد من كرامتي وآدميتي. فليحفظكم الله!

انغرستْ كلمات الرجل في مخي. اللعنة، والأب، والمنازل ذات الستائر السوداء... تستدعي هذه الكلمات خواطر وأفكار مضجرة لا تُحتمل في ذهني. يبتسم الرجل المريض ناظرا إليّ. أتلوى كي أستطيع أن أقول له شيئًا وأتمكن من حل المعضلة التي تواجهني، ولكن دون جدوى. أصير وكأنني سأتعرّف على هذا الرجل. وكأن لي سابق معرفة به: كأن المنازل ذات الستائر السوداء والمقبرة ذات صلة به. ومن هذه المرأة العجوز؟ إنها لا تثير أي حركة في مخي. وفي هذه اللحظة تمامًا تتحدث المرأة العجوز مجددًا:

- لا تحزن يا بني. فتوكل والدك يمكن أن يبدد الكابوس الذي حل بنا. كن على يقين من هذا.

يشهق الرجل محاولًا أن يرفع رأسه من على وسادته، ويقول:

- ماذا فعلتِ؟ ماذا فعلتِ؟

تقول المرأة:

- هذا ولدنا.
- هل نسيتِ ستار اللعنة الذي أُسدل بين الأب وابنه! لمن ينحاز قلب الأم! لا عليك يا امرأة، اتركيهم ليكتشفوا بأنفسهم ماذا جرى. وإلا لن يستطيع أحد أن ينقذهم. لقد صارت عقولهم أسيرة لهذه الحياة القصيرة والمظلمة. هؤلاء هم شلالات الماء القذر المتدفق بيننا وبين أجيال المستقبل. دعك ولا تشغلن بالك حتى يجف نهر الماء الآسن هذا مع هذا الجيل، لتنجو أجيال الغد.

ترفع المرأة العجوز كفيها إلى السماء، وتُسمع الشهقات التي علقت بحنجرتها. وفي تلك الأثناء يُدخِل الرجل المسن رأسه تحت الغطاء، وتُسمع الأنّات التي تؤلم مخي. تمسح المرأة يديها على وجهها، وتتمشى بالغرفة، تبدو وكأنها ساخطة على نفسها. لا تنظر إلى وجهي، كأنها نادمة على ما قالته لي. لقد تحدثت معي وهي تحسب أن الرجل المريض نائم. بيد أنه كان قد سمع ما تحدثنا به، وشارك في الحديث. أشعر بخدر يسري في مخي: من أنا؟ وما هذه الكلمات المتطايرة في ذهني. وهل كانت هذه هي الغرفة التي استيقظت فيها في وقت من الأوقات؟ محتمل أن أكون قد عشت كل الأحداث في هذه الغرفة، وأعيش المزيد منها أيضًا. ظللت منكمشا مثل الدعسوقة[6]. لا أمس لي ولا غد...

شعرتُ بوخز في مؤخرة عنقي! التفتُ ونظرت: الجلاد! كيف كنتُ قد نسيتُ وجوده؟ وجهه فاحم السواد وعيناه مظلمتان: ظلام حالك يخيم على عيوني. يكشّر الجلاد عن أسنانه البيضاء التي تشبه اللؤلؤ، ويشهر سيفه البراق فوق رأسي تمامًا، ويضحك ضحكة لست أدري سرورًا أم حنقًا؟! ترى من هذا المخلوق المخيف ومن بعثه؟! تراه يمثل الموتى أم الأحياء؟! أم تراه يمثل المنازل ذات الستائر السوداء؟! أحتفظ برأسي قائمًا تحت السيف البارد البتار. الآن لا حدَ فاصلٌ بين الموت والحياة عندي. أفكار مؤلمة وموجعة تصطرع في رأسي. الرجل المسن يريد أن يموت من أجلي. والمرأة العجوز غير راضية على موته من أجلي. أما أنا فأتخيل أنني أخرج عليهم ذات يوم وأقول:

- انظروا، ها قد صرنا أغنياء، ولم تعد لنا حاجة لأحد.

ولهذا السبب كنت أود أن يعيش الرجل المسن. وإن لم يكن ذلك فأي معنى للحياة؟! وإن كان لا بد من الموت فلنمت معًا، ولو كنا سننهي كل شيء، فلننهِه معًا. تبدو هذه الأفكار شديدة الغرابة بالنسبة إلي، لدرجة أنها لا تحرك في ذهني أي أفكار. لو استطعت ببعض الأفكار البسيطة، فسوف أستطيع أن أمد أبعاد حياتي إلى الخلف وإلى الأمام وإلى العمق، وأصل إلى الأبعاد الثلاثة وأنجو.

- أنت أحادي البعد، أحادي البعد أنت! وتعيش الزمان أيضًا أحادي البعد. أنا لا أريد الموت من أجلك. إنني أريد أن أموت كي أتركك وحيدًا في بحر اللعنة حتى تنجو أجيال الغد. وعليكم أن تغتموا كل الغم في دائرة اللعنة كعقرب

ينتحر في طوق نار سقط فيه، حتى تنهار المنازل ذات الستائر السوداء، وينمحي مشهد الدجال المظلم الذي يسيطر على كل حدب وصوب.

يصرخ الرجل المسن بهذه الكلمات من تحت الغطاء، وينعت المخلّص بأنه الدجال. أنظر إلى الفراش بانفعال، لكنني لا أستطيع أن أرى أي تغير قد طرأ؛ فالرجل المسن يتمدد في سريره دون حراك، والجلاد لا يزال شاهرًا سيفه فوق رأسي. على غير إرادة مني أحوّل نظراتي إلى الجلاد. إنه يدنو مني أكثر، ويهوي بسيفه على رأسي أكثر. أنا بين الحياة والموت. أرتجف باستمرار.

وفجأة ينطلق الجلاد من النافذة، ويطير كطائر صوب وسط المدينة، ويخلّف السيف الذي في يده أثرًا لامعًا في السماء؛ وينفتح هذا الأثر اللامع بالضبط مثل مجرة «درب التبانة». وفي النهاية يهبط الجلاد في وسط المدينة تمامًا، ويقف منتصبًا كنُصُب تذكاري. لا أصدق عينيّ؛ إنه المخلّص! كيف لم أفطن لأول وهلة إلى هذا الشخص الخالد الذي صاغ كل حياتي؟ كان عليّ أن أعرف أنه لن يتركني وحدي في أي وقت من الأوقات. أحسبني قد انطلت عليّ خدعة المرأة العجوز والرجل المريض. أكان كلّ منهما شبحًا خادعًا. لم أستطع أن ألتفت وأنظر إلى الغرفة رغم أنني كنت أود بشدة أن أفعل ذلك. لا تزال عيوني على النُصُب الموجود في وسط المدينة. أتوحد في تلك اللحظة مع المخلّص.

ينظر أهل المدينة إلى المخلّص الذي وقف منتصبًا كنُصب في ساحة المدينة. تتجهم وجوههم. يزررون ستراتهم بأيديهم البيضاء الناعمة كالقطن. ثم يتبادلون ابتسامات تسمها الريبة. يخلعون القبعات التي على رءوسهم، ويؤدون التحية للنُصب وينحنون أمامه.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى يحتشد أهل المدينة عن بكرة أبيهم حول النُصب. ويفد الفقراء المرتّقة ملابسهم بدورهم للوقوف أمام النُصب، ويقتربون منه على استحياء. يبتلعهم النُصب فجأة. ينظر أهل المدينة إلى ما يحدث. وبعد فترة ينصرفون باحترام. ولا يزال النصب يبتلع من يدنو منه من الفقراء، ويعظم، حتى يغطي الساحة بأكملها. ويظل يعظم ويعظم حتى يغطي المدينة بأسرها، حتى تجد نفسها فوق كتفيه. ولا يبدو في الأفق لا ضريح ولا مقبرة، وتنطفئ شموع الأضرحة التي تتشبث للبقاء في أماكن متفرقة من المدينة. وتختفي كل الأضرحة. يغطي السيف الموجود في يد النُصب أفق المدينة، ويتحول الليل إلى نهار.

أناس فقراء قادمون من أحياء المدينة المنعزلة يمتزجون بالنُصب في جانب، وفي جانب آخر أناس أثرياء مرفهون يمسحون بأيديهم الناعمة على كتفيه... وأجيال جديدة خارجة من النُصب تنمو وتترعرع سريعًا؛ وعلى شفاه كل واحد منهم أنشودة:

- تتهجى الشفاه:

الجماجم الجماجم!
وتتهجى القارات:
الجماجم الجماجم!
هذه أنشودتي. إنها الأنشودة التي حفظتها في المنازل ذات الستائر السوداء! ها هو ذا النصر.. ها هو ذا المخلّص، ونُصب عظيم يكبر.. يتملص العالم المضاء بالسيف الموجود في يد النصب من الظلمات. أنظر إلى الأفق، فأرى سيف المخلّص وقد تحول إلى درب التبانة في أديم السماء.
من أين يخرج هؤلاء الفقراء المعدمون! لِمَ يبتلعهم النُصب دون توقف؟ هل ما رأيته مجرد نصر خادع؟ لِمَ لا يسعني أن أحرك شفتيّ، والمشاركة في أنشودة الأجيال الجديدة. أود أن أقفز من النافذة، وألقي بنفسي في يدي النصب؛ لا أستطيع أن أتحرك. أنظر إلى الغرفة: لا يزال الرجل المسن والمرأة العجوز موجودين فيها. ترى هل هما من يمنعانني؟ أنا ممثل المخلّص. ولكن لِمَ تحول المخلّص إلى نُصب؟ ولِمَ لا يهتم بي؟ وأين رجالي؟ القائد وصاحب المؤسسة والعامل! ليأتوا إليَّ ولننشد معا أنشودتنا، ربما نستطيع أن نُسمِع صوتنا للمخلّص.
تبحث عيوني عن المنازل ذات الستائر كحيلة أخيرة: أمامي سهل خالٍ تمامًا من البشر يمتد إلى غير انتهاء! كابوس يجثم على صدري؛ لا يمكنني الفكاك منه.
ثمة هزيمة، ثمة رحيل!
تنطفئ الليالي والأيام في السهل وتضيء دون أن تقترب من المدينة؛ سيف يعلو المدينة... لا أستطيع الخروج من الغرفة مطلقًا؛ إنني متابع لليل والنهار ليس إلا. ولا يمكنني أن أهبط المدينة. ولا يزال الرجل المريض يحملق في السقف؛ وما تزال المرأة العجوز تروح وتجيء في الغرفة ليل نهار. تتولد سيوف من السيف الذي يزين سماء المدينة، وتُشهر نحوي. توشك السيوف أن تلامس شعري. أرتجف. أشعر أن جسدي سيف بارد... هل أنا من يتحول إلى سيف، أم أن السيوف هي من تتجسد فيَّ؟! كلمات تنخر في مخي: الدجال، والمهدي، وعيسى...
فجأة ينشطر رأسي شطرين. ويسقط مخي على البساط الخشن البالي الموجود على الأرض؛ يتلوى أمامي مباشرة مثل الحلزون، ويتقدم نحو المريض طريح الفراش مخلفًا آثارًا لامعة. أنحني بلا وعي كي أمسك بمخي، لكنه يسرع فجأة. أبدأ في الجري وراءه، لكنني أعجز عن اللحاق به. وبعد فترة تتقطع أنفاسي؛ أقف وأنظر بيأس خلف مخي. ما هذا؟ إنه يتحول إلى نسر، ويحلق في الهواء؛ يكاد يغطي الغرفة بأكملها. ينظر الرجل المسن إليه وقد جلس القرفصاء على سريره، وأخذ يطلق صيحات الفرح. وتبسط المرأة العجوز يديها، وهي مبتسمة، وتقول:

- انظروا، انظروا لقد جاء ملاكنا الحارس. الحمد لله، والشكر لله.
أنظر بدهشة تارة إلى الرجل المسن، وأخرى إلى المرأة العجوز. لقد دبت فيهما الحيوية إلى حد كبير، وارتسمت الطمأنينة على وجهيهما. أنظر إليهما وأقول متوسلًا:
- ذلك مخي، مخي!
تحوّل المرأة العجوز نظراتها إلى الرجل المسن وتقول:
- لقد نطق ابني، نطق ابني!
يبتسم الرجل المسن للمرأة العجوز قائلًا:
- نعم، ملاكنا المخلّص، استأصل لعنة المنازل ذات الستائر السوداء من رأسه، وألقاها. سينجو الجميع!
رأسي خالٍ تمامًا، وكأن حملا يزن أطنانًا رُفع من عليه. أنتفض، ولكنني أضطر إلى أن أجثو على الأرض كي أتفادى أجنحة النسر. وهنا ينطلق من النافذة المفتوحة، ويمضي. يقبل عليَّ الرجل المسن والمرأة العجوز مسرعين، ويجثوان إلى جواري، ويدنوان مني. أنهض متعلقًا بهما، وينهضان بدورهما ممسكين بي. وننظر معًا إلى النسر. إنه يطير محلقًا فوق المدينة، ويذهب ليحط على قمة النُصب. صمت الموت يطبق على المكان.. آلاف البشر حول النسر. ولا وجود للنُصب ولا للسيف! يتعانق البشر الذين تراصوا وتلاحموا حول النسر، ويتبادلون القبلات. هنا بشر من كل الطبقات والأعمار. يحاول النسر أن يطويهم تحت جناحيه. تضيء الشموع المتلألئة في الأضرحة المدينة. وتحلق الحمائم التي طارت من الأضرحة فوق الناس، وتهدل بلفظ الجلالة. المدينة تناديني، أود أن أطير مثل حمامة من النافذة. أصرخ وأنا أنظر إلى الغرفة ومن هم بجانبي منفعلًا:
- أماه! أبتاه! هيا لنمضِ ولنحتمي بأجنحة النسر، ونشارك في أنشودة الحمائم. ها هي أنشودة جديدة تولد من هديل الحمائم؛ تحملها أجنحة النسر إلى السماوات والأرض. وتدعونا الأضرحة والعالم إلى السعادة والأبدية.
***
صمت، صمت موات يتعمق ويتعمق باستمرار. أنظر حولي؛ لا أحد! نزيف دافئ أشبه بالدم يصيب أحد أعضائي. فجأة أفطن إلى الدم يتدفق بغزارة من جسدي! تتشوش عيناي، ويتشوش المشهد، ويسود ظلام... إنني على الأرض، أرقد مستلقيًا على ظهري. أحاول أن أزيح حجاب الظلام بيدي لكن دون جدوى. أين الرجل المسن والمرأة العجوز؟ لو أستطيع أن أسمع حتى أنفاسهما، فسوف أستجمع قواي. وكأن الظلام والصمت لا ينتهيان... ثم ينجلي الظلام وينحسر؛ أجد شيخًا طاعنًا في السن أبيض اللحية يقف منتصبًا عند رأسي. من هذا الرجل؟ لم أره من قبل قط. أود التشبث به مثل آخر نفس أتشبث به وأنا على عتبة الموت، وأهمس إليه:

- من أنت؟ وأين أنا؟

ينظر الرجل ذو اللحية البيضاء إلى وجهي، ويبتسم ابتسامة عذبة. يبعدني تصرفه هذا عن المخاوف ولو قليلًا. ويبدأ الرجل ذو اللحية البيضاء يحكي وهو ينظر إليّ:

- أنا الولي الذي دفن جثمانه! أنا مَن حدثك جثمانك عنه وأنت في طريقك إلى المنازل ذات الستائر السوداء؛ حاول أن تتذكر... لقد أخبرك أنك ستدرك الحقيقة وتصل إلى الخلاص عندما تدفن جثمانك.

وأردف قائلًا وهو ينظر إليّ بإشفاق:

- وها قد حانت تلك اللحظة. هلّا نظرتَ إلى جثمانك. إنه يتمدد غارقًا في دمائه.

أنظر بدهشة: حقًّا يتمدد جثماني على الأرض غارقًا في الدماء، وأنا أنتظر بالقرب من رأسه. أما الولي فأمامي مباشرة. أدركتُ أن الرجل ذا اللحية البيضاء هو الولي نفسه. أنظر مرة أخرى إلى جثماني الممدد أمامي؛ عرفته الآن إنه جثماني نفسه الذي رأيته فيما كنت ذاهبًا إلى المنازل ذات الستائر السوداء! بيد أنه لا ينطق هذه المرة، ويتمدد هامدًا بلا حراك وسط الدماء. لقد ساعدني فيما كنت ذاهبًا إلى المنازل ذات الستائر السوداء، والآن عليّ أن أساعده. وبهذه النية أنحني عليه، فيحول الولي بيني وبين ذلك ويقول:

- لم يعد بمقدوره النهوض على قدميه. والآن بالفعل انفصل عنك؛ ولا مجال لاتحادكما مجددًا. لقد استطعت أن تقهر الموت بالموت فحسب. ويكفي هذا القدر.

أتأوه قائلًا:

- إنه جثماني أنا!

- بالطبع جثمانكَ! لا تضطرب، ولا تنفعل، عليك أن تدفنه بيديك، لئلا تكون عبئًا على أحد. تمامًا مثلما فعلتُ أنا فيما مضى.

نور يفيض على عيني؛ عيون الولي عليَّ. تومض هذه العيون وكأنها ترى ما وراء العصور. شعور بالثقة والطمأنينة يكبر بداخلي. فأنصت إلى الولي بكل جوارحي، إذ يقول:

- مدهش، مدهش! حمدًا لله أن بلّغنا هذه الأيام!

وتتعمق الابتسامة والسعادة التي في وجهه شيئًا فشيئًا، فيواصل كلامه وهو ينظر إليّ فيقول:

- أوشكتِ الثورة على الاكتمال. ونفدت أيام الظلمات، وجاء الدور على أيام النور. وستبدأ أنت عهد التنوير. إنني في صف الإنسانية، ومنحاز للحب الكوني يا بني! انتهى عصر استغلال الإنسان للإنسان. وسوف يستوفي العقل هذه

الحياة القصيرة، ويتجاوز نفسه. ومن الآن فصاعدًا سيخضع جانب من الإنسان للزمان والمكان، وسيكون الآخر فيما وراءهما. أنصت حتى ألقنك أنشودتنا.

أنصتُ إلى الولي ذي اللحية البيضاء وكلي آذان مصغية. تراني كنتُ سأستمع إلى أنشودة تبث الروح والبهجة في النفس بدلًا من أنشودة المنازل ذات الستائر السوداء؟ كانت الحيوية قد دبت فيّ تمامًا. وبدأت أدرك العالم بنظرة جديدة تمامًا إذ راح الولي ينشد:

اجتمع في العالم (الأولياء) الثلاثة، والسبعة، والأربعون،

وقالوا: وصلت الإنسانية إلى منعطف جديد.

انتهت مهمتنا

وصرنا أناسًا مباركين.

واختفى من العالم الظلم والأنين.

وزال انقسام بني الإنسان.

وغدت الشمس ابتسامة سماوات الأكوان.

وكأن الموت والحياة شقيقان.

اجتمع في العالم (الأولياء) الثلاثة، والسبعة، والأربعون.

وقالوا: وصلت الإنسانية إلى منعطف جديد.

انتهت مهمتنا،

واتحدنا مع البشر.

وفيما كنت أستمع إلى هذه الأنشودة، رأيت تاريخ الإنسانية ينبسط أمامي صفحة صفحة. ما زلت أحمل في قلبي آلام الإنسانية وأفراحها وآمالها... وتضاءلت في عيني الحياة التي ظللتُ أتخبط بداخلها منذ أيام، لدرجة أنني أستطيع أن أبعثرها بنقرة إصبع. والآن أيضًا كنت قد تجاوزتُ وجودي أنا، وليس الجدار السميك الذي في بداية ذكرياتي. حياة الإنسانية بأسرها منذ الإنسان الأول وحتى الآن في ذاكرتي. وتكتسب كلمات: الدجال والمهدي وعيسى مجددًا معانٍ في ذهني. هابيل وقابيل والجريمة الأولى، وجرائم، وجرائم! دجالو كل عصر وكل أمة، ثم مهديو كل عصر وكل أمة وعيسيوها... الكرة الأرضية المتزلزلة، ومراجل السماء المقلوبة. الطوفان... والكرة الأرضية الملتهبة، والبحار المشتعلة. القيامة... القيامة الصغرى والقيامة الكبرى. أنظر وأرى الكون كله والإنسانية بأسرها. أود أن أفنى في هذا المشهد إلى الأبد.

- هيا احمل جثمانك فوق ظهرك!

هذا صوت الولي. يعيدني مجددًا إلى اللحظة التي كنت فيها. أنحني دون وعي وأحمل جثماني فوق ظهري.

- أيها البشر سيروا ورائي دون مزيد من التناحر مع بعضكم!

أتحرك إثر هذا؛ الولي في الأمام وأنا في الخلف وجثماني فوق ظهري. نعم إن ما أحمله فوق ظهري هو جثماني. وهو ليس عبئًا عليَّ، بل يمنحني القوة. ألتحق بهذه الرحلة الجديدة بسعادة. سأنقذ البشرية لا نفسي. نور في الأضرحة، وسرور في القلوب... تجري الإنسانية إلى الخلاص من ورائي. أوشك أن أخطو خطوة إلى عصر التنوير.

كم سرنا لا أدري؛ في النهاية نتوقف عند سفح أحد الجبال. المكان الذي توقفنا فيه هو بالضبط واجهة كهف. هل إلى أجدادنا الموجودين في الكهف جئنا بعد أن أقاموا حضارات وأطاحوا بحضارات، وماتوا وبُعثوا بكثير من الثورات؟

يقول الولي:

- ها هو ذا كهف أحلك العهود ظلامًا؛ حيث نكص الإنسان قرونًا من النضج إلى البدائية. واستغرقت المسيرة من البدائية إلى النضج زمنًا أطول. لكنك سوف تنهي هذه الرحلة سريعًا. لهذا احملْ جثمانكَ دون خوف، واتركه في هذا الكهف، وتعال إليَّ!

أدخل الكهف مسرعًا، وأنزل جثماني من على ظهري، وأمدده على الأرض بطول جسمه. وأخرج من الكهف دون أن أضيع أي وقت. وأعود إلى الولي. ثمة مدينة تمتد في الأسفل؛ أنظر إلى هذه المدينة التي أراها لأول مرة من سفح الجبل. وكأن المدينة تسعى إلى الوصول إليّ بارتقاء الجبل. أخطو خطوة نحو المدينة؛ يمسكني الولي من كتفي، ويشير بيده إلى المدينة التي ترتقي سفح الجبل.

تعج المدينة بآلاف البشر مثل النمل. منهم الأعرج، ومنهم الأعمى، ومنهم الأصم ومنهم المنبطح أرضًا، ومنهم من يقف على قدميه. منهم من يتوشح بسلاحه، ومنهم من يستبد الخوف بقلبه، ومنهم الجائع، ومنهم الشبعان...الكل يعدو، الكل يسارع إلى قيامته. قَتَلة، ومقتولون، سجون ومشانق، ومقابر... حياة أحادية البعد. أنظمة سقطت، وأخرى أقيمت؛ أمخاخ متجمدة، وأمخاخ نازفة، وأمخاخ مستسقاة... أمخاخ متحجرة، ومِعَد أسلحة موت نارية! مسيرة مستمرة من النضج إلى البدائية.

أقول:

- تأكل البشرية بعضها كذئاب جائعة. لنمض، ولنمد إليهم أيدينا قبل أن يجهزوا على بعضهم.

وحينما أرى الولي لا يعبأ بهذا، أصيح:

- على الأقل دعني!

لا يأبه الولي قط، وينظر لما يحدث بهدوء. ويأخذ نفسًا عميقًا من نسيم الجبل، ويربّت ظهري بيده، ويقول:

- انظر إلى السهل!

أنظر إلى السهل؛ تدب الروح في التماثيل الموجودة أمام المنازل ذات الستائر السوداء، ويسيرون بالأسلحة التي في أيديهم. كيف لم يتأتَ لي رؤية هذا السهل؟ في حين أنه كان في نهاية المدينة. يشير الولي إلى المنازل ذات الستائر السوداء بيده، ويقول:

- كافة الشرور تنبع من هنالك. هي من جمّدت العقول وحجّرتها. وعلينا أن نمحوها قبل أي شيء. فنهايتها ستكون خلاصًا للإنسانية وبداية عهد التنوير. إنها من تؤجج كل هذه الصراعات. امض الآن، واهدمها.

أتعتع:

- بمفردي؟

- إنك لن تهدمها؛ هدمك لها لن يفيد شيئًا. سيهدمها الذاهبون إلى هناك مستلهمين شجاعتك، حتى يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم.

ونظر في عيني، ثم أردف قائلًا:

- وها قد بدأت المسيرة الآن مجددًا من البدائية إلى النضج ومن الظلمات إلى النور. وستستغرق هذه الرحلة زمنًا يسيرًا هذه المرة كما أخبرتك سلفًا. هيا انضم فورًا إلى هذه المسيرة.

- ألم يكن المسافرون قد شقوا عصا الطاعة؟ ألم يكونوا قد نحروني أنا الذي كنتُ ممثلًا للمنازل ذات الستائر السوداء في وقت من الأوقات. أليس الجثمان الذي تركته بالكهف جثماني؟

- صحيح، لكنهم هاجموا ممثلي المنازل ذات الستائر السوداء. وقد شُن هذا الهجوم نفسه، على ممثليها في سائر المدن وليس عليك أنت وحدك. ولم يتأت الحصول على نتيجة من هذا. وها أنت ذا ترى حال مدينتك: فتنة لا سبيل إلى الخروج منها! إنك إن لم تسارع بالتحرك، فسوف توجّه المنازل ذات الستائر السوداء التماثيل التي دبّت فيها الروح، وتفني البشرية. أسرع في التو، واخرج على التماثيل، وأنشد الأنشودة التي لقنتك إياها بأعلى صوتك! وبعد فترة سيلتف حولك ثلاثة أشخاص، ثم يصيرون سبعة، بعدها سوف يصل عدد الملتفين حولك إلى أربعين. عندئذٍ تحرك فورًا، وهاجم المنازل ذات الستائر السوداء.

قبّلت يد الولي دون أن أسأله عن أي شيء، وبدأت أهبط من الجبل مهرولًا. وكان المكان الذي أود بلوغه في الأسفل مباشرة؛ أما الزمان فكان يعدو كحصان، ولم أكن أستطيع أن أتمسك بعرفه. لقد عشت عصرًا امتد لقرون في فترة قصيرة كطرفة عين. كنت أهبط من الجبل إلى أسفل متكبدًا مصاعب جمة. وانقضت أعوام منذ أن فارقت الولي، وصارت تفصل بيننا قارات. كنت أعدو متجشمًا شتى صنوف المشقة والعناء، ولم أزل أعدو.

وقد حدث أن انبلج الفجر وطلعت الشمس في لحظة واحدة. ربما تكررت هذه الحادثة مرات عديدة، ولم أستطع أن ألحظها. وحينما هبطتُ من الجبل،

التفتُ ونظرت إلى الخلف. كانت الشمس تقف وكأنها تفاحة حمراء كبيرة في قمة الجبل. ورأيت الولي؛ وقد وقف أمام الشمس تماما ينظر إليّ. لكم كان هذا وضعًا عجيبًا، فالدرويش كان على بعد قارات، بيد أنه كان بجانبي لدرجة أنني أستطيع أن أسمع أنفاسه. كان الولي يطالع العالم الذي سودته المنازل ذات الستائر السوداء من القمة المباركة. وقد حمل الشمس على كتفه. يطنّ في أذني اصطكاك أسنان البشر الذين يأكلون بعضهم في المدينة. وكانت الشمس إشعارًا إلهيا للإنسانية، يقرؤه الدرويش على العالم بأسره. كنت أهبط من الجبل المبارك إلى العالم باعتباري منفّذًا هذا الإشعار. في المدينة موتى، وفي المدينة أحياء؛ في المدينة حِمْلان، وفي المدينة ذئاب... وكان تاريخ الإنسانية يعاش هنا من بدايته إلى منتهاه مرارًا وتكرارًا. وكان كل شيء عاديًّا مألوفًا؛ لم يكن هناك أمر غير عادي بالنسبة إليَّ. كنت أسير بين صفحات تاريخ الإنسانية وكل المدن لديّ، والبشر بأسرهم في قلبي؛ والزمان والمكان مسخران لأمري.

أسير في برودة الصباح اللطيفة. إنني في السهل؛ السهل هادئ، تبسط الأشجار ظلالها فوقي. أنظر مجددًا إلى الجبل: الشمس والولي في قمته. التفتُّ، ونظرت بعيدًا؛ يتموج العالم بعذوبة وقد اتشح بالتِّل الرقيق. إنني في موضع بين المدينة والمنازل ذات الستائر السوداء. الشمس مستقرة في قمة الجبل وكأنها قد التصقت بكتفي الولي. هل توقف الزمان؟! ظل بالي منشغلًا بزمن الشمس هذا؛ وكأنني سأغرق. لا يمكنني رؤية المدينة ولا المنازل ذات الستائر السوداء! إنني في جب عميق، لكنه شفاف. أتسلق وأتسلق فأسقط. وفي تلك اللحظة أستطيع أن أرى الشمس والولي فحسب. أسمع أنّات، أسمع ضحكات صاخبة، أسمع قعقعة السلاح، أسمع اصطكاك أسنان. يجتاحني الخوف؛ أوشك أن أفقد كل أمل.

- لا تخف! واستمر في طريقك متحليًا بالشجاعة! فأنا خلفك. والأولياء الثلاثة، والسبعة، والأربعون[7] دائمًا خلفك. وأولياء الأمس والحاضر جميعًا بجانبك. لا تخف.

أتلفت حولي مرتاعًا، أرى سهلًا شديد الاستواء... وجبلًا عظيمًا على البعد؛ والشمس والولي على قمته. والصوت الذي سمعته منذ قليل كان صوت الولي؛ ميزته بمجرد أن لامس أذني. هو نفسه في أماكن بعيدة للغاية، لكن صوته في أذني. وفجأة تنطلق الشمس من كتفي الولي، وتستقر فوق رأسه مباشرة. أعيش زمن الشمس؛ أؤمن أنني سوف أنجح في المهمة التي ألقاها الولي على عاتقي.

سيزول الكابوس الذي يلف العالم، وستستكمل المسيرة من البدائية إلى النضج مجددًا في فترة وجيزة. أعلم هذا. وسأبدد هذا الكابوس، ولذا كان عليّ أولا وقبل أي شيء أن أجمع الأربعين وليًّا. كيف سأفلح في هذا؟ هل سيمكنني

أن أسمِع التماثيل السائرة صوتي؟ لاسيما وأنني عجزت عن التواصل مع المسافرين في وقت من الأوقات. لأنهم كانوا خُشبًا صماء بكماء مكسوة بالملابس. وكان جثماني قد شاطرني الوقوع في هذا المأزق. أما الآن فقد تركت جثماني في الكهف الكائن بالجبل بإشارة من الولي. ومن الآن لا يسعه أن يساعدني، ولا يمكنه أن يتوحد معي، وقد باعدت بيننا المسافات. الثلاثة، والسبعة، والأربعون: أولياء الله... لو أعانني هؤلاء لامتلكتُ قوة تغيّر مجرى التاريخ الإنساني. وحينئذٍ سأدشّن عصر التنوير. يداخلني أمل وشجاعة يتجددان باستمرار...

أمسح جبهتي بكم قميصي. أدرك حينئذٍ أنه لا قبعة على رأسي، ولا ستار أسود مما يعني عدم وجود تلك الأسوار التي تقطع الطريق على ذكرياتي. أحمل في قلبي كل آلام الإنسانية وآمالها. ينفتح أمامي تاريخ الإنسانية صفحة صفحة. وأصعد إلى نقطة فارقة. أنظر كي أستطيع أن أرى هذه النقطة؛ هناك سهل قدرٍ ما تستطيع أن تتسع عيناي. تنبهر عيناي. عطش يكوي جوفي. أتصبب عرقًا. تتناقص باستمرار قدرتي على السير. أفكر في الإنسانية. جثماني في أيد أمينة، لكن لا يمكنه أن يصل إليّ ليساعدني. أشعر بوحشة وهجران... أين الأولياء الثلاثة، والسبعة، والأربعون؟

أمامي شجرة كمثرى. أذهب توًّا ألوذ بظلها لأنال قسطًا يسيرًا من الراحة. ثمرات كمثرى على الأرض، أنحني وألتقط إحداها، أقضمها. فأتغلب على عطشي في تلك اللحظة، وتتجدد حيويتي. هل ما نزل عليّ من السماء هو المّن[8]؟! إنني في الصحاري التي هيأت لبني إسرائيل حياة جديدة بالمّن الذي تلقوه من السماء عندما أوشك الجوع والعطش أن يهلكهم. تلامس أنفاس موسى المباركة وجهي. أسعى بكل نشاطي وحيويتي إلى عهد التنوير مثلما سعى موسى إلى النور الإلهي. يغلي السهل تحت قيظ الشمس الحارقة، ويلتهب ويستعر. الشمس فوقي مباشرة؛ أطلقها الولي إلى القمة وظلت معلقة هناك. لا يسعها أن تتقدم أو تتأخر. وطيلة بقاء هذه الشمس الحارقة فوق رأسي، يعمل مخي أسرع. أجول في السهل بخطى واثقة بعقل نشط وجسد يفيض حيوية ونشاطًا.

هناك ظل ينزلق أمامي. ما هذا الجسم الذي بيني وبين الشمس؟ لا أكترث به؛ فلم يكن من الممكن وجود شيء غير عادي هنا. أفطن إلى أن الميتافزيقا صغُرت بنزولها دومًا إلى معمل الفيزياء. يستقر الظل عليّ بانتظام، ويلازمني في حركتي. وفي النهاية يغلبني الفضول فأنظر إلى أعلى: فإذا بنسر يحلق فوق رأسي! أعرفه؛ إنه مخي. أتحسس رأسي، كل شيء في موضعه. هل استقر مخي أيضًا في النُصب الموجود في وسط المدينة مثلما استقر جثماني في الكهف؟ كلا كلا. إنه نسر، وكان يطير فوق المدينة. هذا ما رأيته. ربما هو رمز من الولي... أعلام ترفرف في الآفاق؛ وبلاد تتطلع للأعلام. نسور في

الأعلام. تظفر البلاد المتطلعة إلى الأعلام بالنور، وتسعى إلى عهد التنوير. هذه الأعلام ملكي، هذه الأعلام أعلامي... أين حملة الأعلام؟ أنظر إلى كل الجهات: لا يمكنني أن أرى لا المدينة ولا الجبل، ولا المنازل ذات الستائر السوداء. والولي هو الآخر غير موجود بالمشهد... أتقدم في سهل شديد الاستواء، ولا يزال النسر فوقي.

أتقدم في طراوة الظل النازل من السماء على السهل يحدوني الأمل في إنقاذ الإنسانية. وفي ساعة الظهيرة المباركة هذه ينفتح أمامي إشعار إلهي ورقة ورقة. في أذني الأنشودة التي لقنني إياها الولي، وفي قلبي حب الإنسانية، وأمامي تاريخ البشرية... في كل ظهيرة مباركة ثمة ساعة مباركة أيضًا. سأعثر على رفاقي الأربعين في ساعة كهذه، وسأهدم المنازل ذات الستائر السوداء في ساعة مباركة كهذه، وسأسحق الدجالين جميعًا في ساعة كهذه من أنا؟ أين عيسى والمهدي؟ أين الثلاثة، والسبعة، والأربعون: أولياء الحق؟ أين الولي؟ ماذا بوسعي أن أفعل بدونه. هل ساور الشك قلبي؟ كلا مستحيل؛ إنني سأنفخ شرر عهد التنوير بنفس موسى المبارك، ونفس عيسى المحيي.

استظل السهل، وذهب النسر. أسرع من خطواتي كي أستطيع اللحاق بالمسافرين. والمسافرون الذين أردت الخروج إليهم هذه المرة ليسوا أولئك الذين تحولوا إلى تماثيل فعلًا أو كادوا، إنما أولئك الذين تحولوا إلى مسافرين من التماثيل الموجودة أمام المنازل ذات الستائر السوداء. أنظر إلى السماوات: أرى طيورًا سوداء هزيلة. أرتاب؛ تُرى أمِنْ المنازل ذات الستائر السوداء طارت هذه الطيور؟ إن كل واحد منها يصدح بأنشودة المنازل ذات الستائر السوداء. إنه فخ! من ذا الذي حجب الشمس؟ تُراني سأشهد معركة ضارية بين المخلّص والولي؟ لمن ستكون الغلبة: للخير أم للشر؟ يقولون إن الأشرار هم الغالبون في أغلب المرات. يساورني شك مضجر لا يحتمل... أنظر مجددًا إلى السماء: قمر عظيم وفي حضنه نجم يتلألأ. السماء عَلَم؛ وهذا علمي أنا. عظيم. ولكن أين النسر؟ أين الأعلام المرفرفة في السماوات سعيًا للقاء البلاد؟ هل أصبح العالم بلدًا واحدًا، وصارت السماوات علمًا واحدًا؟ شعور بالشك ينخر في نفسي: كان النسر نسري، كان مخي أنا. لكنني أشعر أن هذا القمر وهذا النجم أيضًا قطعة مني. أتخبط بين السماء والأرض، لكنني لا أستطيع أن أهتدي إلى سبيل النجاة.

- كل شيء ملكك، كل شيء ملك يمينك. كل أعلام عهد التنوير ترتسم بمخك. بيدك عرف حصان الزمان؛ فاستعمل الليل إن شئت، أو استعمل النهار.

هذا صوت الولي! لا أستطيع رؤيته، لكن صوته قريب مني للغاية. تتبخر وتتطاير الشكوك والهواجس التي ترسبت بداخلي. أقول له:

"

- إن المخلّص الموجود بالمنازل ذات الستائر السوداء زاحف عليّ. لا تتركني، لا تتخلَّ عني!

يقول الولي:

- أنا خلفك. والثلاثة، والسبعة، والأربعون معك دومًا. ها هي جحافل المنازل ذات الستائر السوداء قادمة من الأمام. إياك أن تخاف! تحرك، وهاجمهم!

أنطلق إلى الأمام على الفور. وأبدأ تلاوة الأنشودة التي لقنني إياها الولي. وما إن فرغتُ من أنشودتي حتى توهجت الشمس فوقي مجددًا؛ وانعكس ظل النسر على وجهي. نظرتُ إلى السماوات: الشمس والقمر والنجم والنسر والأعلام معًا. هذا تداخل لليل مع النهار! يشتت هذا المشهد شمل الجنود القادمين من المنازل ذات الستائر السوداء لمهاجمتي. قعقعة سلاح تسود العالم من تلك المنازل. وصمت مطبق جهة المدينة.

يصيح صوت مألوف:

- الجماجم!

أعرف هذا الصوت حق المعرفة. إنه صوت المخلّص. تصير أنشودة المنازل ذات الستائر السوداء أنشودة جنائزية. وفي تلك اللحظة يتعالى صوت جلبة وضجيج من جهة المدينة. أصيخ السمع، أستطيع أن أميز الكلمات:

- الماضي بداخلنا: أمسِ واليوم وغدًا بداخلنا دائمًا.

سكتتِ الأسلحة، والمدينة هي مَن تتحدث. اندلعتْ أشرس المعارك: معركة الكلمة... أعي أن البشرية على موعد مع صحوة جديدة: تذكّر البشر مجددًا كل الكلمات التي نسوها، ووعوا معانيها. وسيخطون نحو عصر النضج.

- حان الوقت!

هذا صوت الولي. أتلفت حولي: أربعون جنديًّا مسلحًا! كيف ظهر الثلاثة الذين سرعان ما صاروا سبعة، ثم أربعين فجأة؟ أما المشهد في السماء فكان ذاته: شمس وقمر ونجم ونسر...

أصيح بحماس:

- يا رفاقي الأربعين، يا أصدقائي الأربعين!

يردون عليّ قائلين:

- لقد استعدنا وعينا. إنك بددتَ الكابوس الذي كان جاثمًا على صدورنا، وأنقذتنا. وتذكرنا مجددًا الكلمات التي تعيدنا بشرًا. وتأمرنا قلوبنا بطاعتك.

- إذن علينا ألا نتوقف! ولنتخذ القمر والنجم والشمس والنسر علمًا، ولنهاجم المنازل ذات الستائر السوداء وننقذ الإنسانية.

أُصيبت ذاكرتي بوابل من الذكريات. تنهمر الكلمات باستمرار. ألم الإنسانية في قلبنا، ونور الغد في عيوننا. كل الموتى قائمون، وكل الأحياء قائمون. وكل الأرواح متعانقة.

لا أدري ماذا سأقول من الفرح والانفعال. عيون رجالي مصوبة على عيوني اللامعة. تستضيء كل الأزمنة والأمكنة من ضوء عيني. أصيح وكأنني أغيب عن الوعي:

- هجوم!

نتقدم في صمت وبخطى واثقة إلى المنازل ذات الستائر السوداء. فوقنا الشمس والقمر والنجم والنسر. كيف حدث لم أستطع أن أفهم، ما هي إلا بضع خطوات حتى وجدنا أنفسنا أمام المنازل ذات الستائر السوداء. والزمان والمكان مسخران لنا؛ إننا وجهٌ إلى وجهٍ مع طي الزمان وطي المكان. قَصُرَ الزمان، وطُوي المكان. هل نحن مجال الحديث هنا، أم الدرويش الذي أرسلنا إلى هنا؟ قد يكون صاحب التصرف والتأثير المعنوي علينا هو الولي فحسب. عليّ ألا أرتاب في هذا. ينظر رجالي الأربعون إليَّ. لو مددت يدي فسوف ألمس المنازل ذات الستائر السوداء. أرى جيدًا الآن أن هذه المنازل عادية جدًا. حتى إنني كنت أستطيع أن أهدمها كلها. حشد من التماثيل تلوذ بالمنازل ذات الستائر السوداء. ليست هناك أدنى مقاومة في تلك المنازل؛ كل ما هنالك جلبة؛ جلبة قلق وخوف...

أصيح مجددًا:

- هجوم!

أُسْرِعُ متقدمًا الصفوف، وأجذب الستار المنسدل أمام المنازل وأنتزعه. وإذا بباب مفتوح أمامي. سبق وأن دخلت منه، وتنقلت من حال إلى حال. أتوجه على الفور إلى الباب، وأنادي على رجالي:

- اتبعوني!

أنسل إلى الداخل دون إبطاء. الدهاليز التي سحقتني في وقت من الأوقات مضيئة. أكْبُر وأتعاظم باستمرار فيها. القمر والشمس اللذان يضيئان العالم يضيئان كذلك هذه الدهاليز. بداخلي أمل وسعادة. صعدت السلم الحجري الذي عرفته من قبل دفعة واحدة، وبضربة واحدة حطمت مصباح الغاز الذي كان لا يزال مشتعلًا على رأس السلم. ثمة رائحة غاز ورائحة عظام نتنة ورائحة رطوبة... لا تفزعني هذه الروائح. صخب وضجيج يلف المنازل ذات الستائر السوداء؛ وظلال ضاجة... أعرفها. إنها الظلال المرتعشة التي كانت توجهني كأسير فترة من الفترات، تهرب الآن من أمامي. أعدو من غرفة إلى أخرى، ومن دهليز إلى آخر. أمزق الظلال، وأشتتُ شمل الهياكل العظمية. يضجون جميعا بالصراخ.

وأين المرأة الميتة التي كنتُ معها؟ هل تحولت إلى ظل، أم إلى هيكل عظمي؟ لا يسعني أن أضيع الوقت سدى بحثًا عنها. أتوجه على الفور إلى غرفة المخلّص أي الرئيس. يُردي رجالي الحراس الموجودين على الباب قتلى

فورًا. وينفتح الباب الحديدي. فإذا بالرئيس منكمشًا على طاولته المبهرة، يتضاءل ويتضاءل باستمرار. وحينما يراني أمامه يهمس كمن يهذي:

- أهو أنت؟ كنت أعرف مستقبلك.

أصيح قائلًا:

- أسكت أيها اللعين.

يلتف رجالي الأربعون حولي. ويرتعش الرئيس كعود قمح ذابل. ويخر على وجهه فوق الطاولة. أقول لرجالي:

- دعوه لي!

يتنحى رجالي الأربعون جانبًا. إنني الآن وجهًا إلى وجه مع المخلّص. أقبضُ عليه وأمسكه من شعره، وأرفعه حتى ينظر إلى عيني. في وقت من الأوقات كانت عيناه تُظْلِم حياة البشرية؛ أما الآن فعيناي تضيئان العالم. لا يستطيع أن ينظر إلى وجهي. يئن قائلًا:

- ماذا... ماذا تريدون؟

لقد كان فيما مضى يوجهني. أما الآن فأنا أسدد له لكمة الحقيقة، وأقبض على شعره وأحوّل وجهه إلى وجهي، وأصيح:

- أمقتُ صوتك. لن تهنأ الإنسانية بالطمأنينة ما لم يختف هذا الصوت. وما لم تهلك أنت فلن تصل البشرية إلى الخلاص. كفاك أنك لعنت هذه الأماكن! لقد قضضت مضجع موتانا، واستعبدت أحياءنا، وحولتهم إلى تماثيل. أنت الدجال! انظر؛ ها هم الثلاثة، والسبعة، والأربعون موجودون هنا. وأنا عيسى، أنا المهدي. وستستعيد هذه الأماكن قدسيتها وطهرها مجددًا. ومن الآن فصاعدًا ستحلق النسور في السماء لا خفافيشك. والقمر والشمس هما رايتنا. سوف نمضي بها إلى قمتنا، ونسير من عهد الظلام إلى عهد التنوير. ولن ينسحق الفقراء، ولن يتغول الأغنياء الذين كانوا يسحقونهم دومًا. ولن يُقتل من يُعمِلون فكرهم وعقلهم. ولن تُكبل العقول بالأغلال، ولن تطمس القبعات السود نور الجباه. وسيعي الجميع أنهم إخوة. انهض الآن على قدميك!

سكن الرئيس، لا يتحرك. أهز رأسه الذي أمسكته من شعره، لا أمارة على الحياة. لعله مات. جلبة وضجيج يترامى من بعيد. تتحول الظلال إلى كائنات مادية تتهاوى على الأرض. المنازل ذات الستائر السوداء تحت أقدامي، والرئيس تحت أقدامي، وكل الكائنات العجيبة بالمنازل ذات الستائر السوداء تحت أقدامي.

أنادي بأعلى صوتي على الموتى الموجودين في المنازل ذات الستائر السوداء:

- انهضوا، واحملوا جثامينكم فوق ظهوركم. وسأمضي بكم للقاء الولي، وأنا على يقين من أنه سوف يشملكم بهمته. عسى أن تتخلصوا حينئذ من أوحال

اللعنة هذه.
- ليس بمقدورهم أن ينهضوا. إنهم أحاديو البعد.
هذا صوت الولي الذي رآني أحاول إيقاظهم، ينادي عليّ:
- إنهم موتى، إنهم بلا عقول! ليس بمقدورك أن تُسمِعهم صوتك. دعهم وشأنهم!
أسمع وأنظر مجددًا إلى المخلوقات اللعينة أحادية البعد. وألتفت إلى (الأولياء) الأربعين، وأقول:
- إلى هنا تنتهي مهمتنا.
أخرج من المنازل ذات الستائر السوداء سعيدًا منتشيًا بأنني مخلِّص الإنسانية. ولدى خروجي ألتقي ببحر من البشر يملئون السهل. وحينما يروونني، يتصايحون معًا:
- إننا بشر، إننا بشر! نجونا، نجونا!
أنشد بدوري أنشودتي الجديدة للإنسانية. وتنشد معي الإنسانية بأسرها كجوقة واحدة.
أقول:
- هيا هلموا، لنمحوَ وكر اللعنة هذا، يجب ألا يبقى منه أدنى أثر.
يتحرك بحر البشر، وتغطي غيمة غبار جنبات المكان، وتنجلي المنازل ذات الستائر السوداء من العالم كسحابة غبار. أنظر مع رفاقي الأربعين إلى ما يجري.
- انتهت مهمتنا...
أصيخ السمع؛ يأتيني هذا الصوت من الأربعين. ينشدون معًا أنشودة جديدة:
انتهت مهمتنا،
صرنا أناسًا مباركين.
أقول:
- أنتم، أنتم... أيها الثلاثة، والسبعة، والأربعون!
وأردف:
- أولياء الحق، أولياء الحق...
يجيبون معًا:
- صرنا أناسًا مباركين
توحدنا مع البشر.
تغمرني السعادة لكوني بشرًا. يختفي رفاقي الأربعون ويتوارون عن الأنظار. لا يمكنني رؤيتهم رغم محاولتي ذلك. ولا أستطيع أن أعرف أين ذهبوا.

لا يزال الليل والنهار يتداخلان. ولم تكن ساعة الظهيرة المباركة وساعة منتصف الليل المباركة قد انتهتا بعد. سلكتُ طريق الجبل الذي كان يوجد به الولي كي أدفن بنفسي جثماني الذي تركته في الكهف. أصوات البشر التي تملأ العالم بأسره سعيدة ومبتهجة...

الدعسوقة: حشرة مجنحة تشبه الخنفساء، لونها أحمر مرجاني، يحمل كل غمد من أجنحتها نحو ست نقط سوداء.

الأولياء الثلاثة، والسبعة، والأربعون: يأتون في المرتبة الرابعة من مراتب الأولياء عند المتصوفة، وهم من رجال الغيب ما من أحد يعرفهم. تذكر بعض كتب التراث الصوفي أنهم أناس من الصالحين لا تخلو منهم الدنيا؛ يُعرفون بالبدلاء أو الأبدال، لا يموت أحدهم إلا أبدل الله واحدًا مكانه، بهم يُغاث أهل الأرض وبهم يُنصرون، وبهم يُدفع البلاء وتُقصم أظهر الجبابرة. (المترجم).

المّن: ندى ينزل على الشجر وقت السَحَر ويجف كالصمغ، وهو حلو المذاق، أطعمه الله بني إسرائيل.

11

وما هي إلا خطوة أو خطوتان حتى وجدتُ نفسي في مدينة تطفح بالبشر. لقد كان الانتقال من بحر بشري إلى مدينة كهذه أمرًا يبعث على السعادة. تمتد المدينة على مرمى البصر؛ لا وجود للسهل، ولا الجبل ولا المنازل ذات الستائر السوداء. أنظر مجددًا، لكنني لا أستطيع أن أتذكر أنني رأيت هذا المكان من قبل. لا تشبه هذه المدينة تلك التي وجدت فيها نفسي عند استيقاظي الأول. فالمنازل والشوارع والأزقة تغص بالبشر. وليس في المكان نُصب أو ما شابه. أنظر إلى الناس منتشيًا؛ يوشكون جميعًا على البكاء! أين أولئك البشر السعداء المنتشين الذين سمعتهم عقب انهيار المنازل ذات الستائر السوداء منذ قليل؟ أين الولي، والثلاثة، والسبعة، والأربعون؟ هل تُركت وحيدًا من جديد؟ هل سأعيش مجددًا وحيدًا بين الزحام؟

أعدو بجنون في الأزقة والشوارع والميادين. تتولاني الدهشة كل مرة؛ فكل شارع وكل ساحة ارتدتها هي نفسها! يستحيل أن يكون هناك هذا القدر من التشابه. لا بد أن ثمة خطأ في هذا. مررت بكثير من الأزقة والشوارع، لكن البشر الذين التقيتهم كانوا أيضًا أنفسهم. لا يسعني أن أسأل شخصًا عن شيء؛ أسير دون توقف بلا غاية، بلا هدف.

لا أدري كم من الشوارع والأزقة مررت بها! وفي النهاية وجدت نفسي مرهقًا مكدودًا أمام منزل حجري من طابقين. هذا المكان رابية ترى المدينة برمتها؛ أستطيع أن أرى كل الأمكنة من عل. وقد احتشد آلاف البشر حول هذا المنزل. حرّك هذا المنزل شيئًا ما في ذاكرتي، فدنوت منه بشغف. أفسحت جموع الناس الطريق لي. أفسحوا لي الطريق باحترام لا بد أنهم يعرفونني. أما أنا فلم أتعرف على أي وجه من الوجوه. أدخل المنزل. أبدأ في صعود السلم الخشبي. يهز صرير درجات السلم عقلي ويحركه. أجهد نفسي كي أتذكّر شيئًا، لكن دون جدوى. وحينما صعدتُ إلى ردهة المنزل نشطت ذاكرتي فجأة؛ لا بد أنه منزلي. ولهذا استقبلوني بهذا القدر من الود والحفاوة. أدركت أنني عشت هنا حياتي القصيرة التي كانت كابوسًا.

باب الغرفة مفتوح؛ وجموع غفيرة من البشر في الردهة. أنسلّ سريعًا من الباب إلى الغرفة كما كان في السابق. تفعم رئتيّ رائحة بخور! هل هذا المكان مستودع جثث. نظرت فإذا بفراش على الأرض، فوقه أغطية بيضاء. يتبين بوضوح أن من يتمدد مسجى بالأغطية هو إنسان. وهناك ثلاثة رجال على يمين الفراش ويساره وعند رأسه... أعرف هؤلاء الرجال الثلاثة! أفرك عينيّ وأنظر مجددًا كي أتأكد. نعم نعم! إنهم رجالي الثلاثة: القائد وصاحب المؤسسة والعامل. وحينما رأوني وضعوا أيديهم على صدورهم وألقوا عليّ التحية. مما

يعني أنهم عرفوني. أمنح كامل اهتمامي إلى الراقد تحت الغطاء الأبيض. ينظر رجالي الثلاثة كذلك إلى المسجى بالغطاء، والدموع تنهمر من مآقيهم. ألحظ أن عيونهم محتقنة دامية، وأفهم أنهم قلقون جافى النوم أعينهم منذ فترة طويلة، وأنهم يتألمون. أدنو منهم. لا يعبئون بي كثيرًا. ولكن ماذا كانت تحيتهم لي قبل قليل؟ أرتاب في أمرهم، لا أحتمل، فأسألهم:

- هل أنتم القائد وصاحب المؤسسة والعامل؟!

ينظرون إلى وجهي وقد تملكتهم الدهشة والحيرة. ثم يحولون نظراتهم إلى بعضهم، ويعضون على شفاههم. يبدو أنهم لم يفهموا كلامي. وبعد وجوم طويل يجيب القائد:

- نحن لا نعرف من هؤلاء الذين تتحدث عنهم يا سيدي. إننا هنا في انتظار شخص ما. وربما تكون أنت ذلك الذي ننتظره.

وما إن سمعت هذا، حتى بهتُّ هذه المرة. أعض على لساني دون أن أظهر لهم ذلك؛ لست في حلم، أعي هذا. أقول:

- ومن قال لكم أن تنتظروني؟ وهل أخبركم مَن هو الشخص الذي تنتظرونه؟

ينظر القائد إليَّ مليًّا، ثم يحوّل نظراته إلى من بجانبه. ثم يبدأ الكلام بعد فترة ويقول:

- سيدي! توفي صبيحة هذا اليوم مخلّص أمتنا الروحي. وفيما تجمعنا حول الفراش الذي يرقد فيه نفكر ماذا نحن فاعلون، وبينما نجاهد ألم نفوسنا ونغالبه، إذ خرج علينا شيخ أبيض اللحية. لم نفهم من أين جاء، ولم يسبق لنا أن رأيناه. طلب إلينا ألا نلمس الميت مطلقًا، وأخبرنا أنه في تمام ساعة الظهيرة سيجيء شخص إلى هنا، يغسّل الميت ويكفنه، ويقيم عليه الصلاة بنفسه، ويودعه القبر ثم يغادر بعدها. وقد شدد علينا مرارًا وتكرارًا ألا نتدخل في أمر ذلك القادم، وألا نسأله عن أي شيء. ثم انصرف ومضى. إنه لم يعطنا أمارة، لكن لا بد أنك الشخص المُنتَظَر. لأنك جئت في الساعة التي أخبرنا بها. ولقد أعددنا كل ما هو لازم، وفصّلنا الكفن وسَخّنا الماء، وصنعنا النعش، وحفرنا القبر. وما بعد هذا فهو يخصك أنت، ونحن لك تابعون.

وما إن سمعت هذه الكلمات حتى تذكرت ما قاله لي جثماني بينما كنتُ ذاهبًا إلى المنازل ذات الستائر السوداء. وفكرتُ في الولي الذي استودعته جثماني. وواقع الأمر أنني ظللت أجوب شوارع هذه المدينة بحثًا عنه. بيد أني لم أستطع أن أرى الجبل الذي فارقته فيه بأي حال. وفي النهاية ها أنا ذا كنت قد مررت من هنا محض صدفة. وفيما كنت أبغي العثور على جثماني، إذا بي أعثر على جثمان آخر. حسبتني أعرف كل شيء من أول نظرة، لكن يبدو أنه قد اختلط عليّ الأمر. دار بخلدي لحظة أن أتحدث إلى هؤلاء الثلاثة عن الجبل وعن جثماني. بيد أني أحسست أنهم لن يصدقوني. فكرتُ في أن ألتقط طرف الخيط بطرح بعض الأسئلة عليهم، وبدأتُ الحديث على الفور:

- هلاّ كنتم تعرفون هذا الشخص المتوفى بينما كان على قيد الحياة؟
نظر الرجال الثلاثة إلى وجهي باستغراب، وقال من في جهة اليمين:
- لسنا نحن، وإنما البلد بأسره كان يعرفه. قلنا إنه كان مخلّص بلدنا، وأنه من هدم المنازل ذات الستائر السوداء ومحاها من العالم. لقد خالط الأولياء في حياته وقد ظاهره (الأولياء) الثلاثة، والسبعة، والأربعون. وما عليك أن تفهمه هو أنه كان قطب الإنسانية، وإلا كيف نجح في أمر بالغ الصعوبة كهذا؟! وكنا نحن الثلاثة إلى جواره دوما منذ هدم المنازل ذات الستائر السوداء لم نفارقه. ونأمل ألا يحرمنا الله شفاعته.
كان رأسي قد تشوش تمامًا، ولم أكن أدري ماذا أقول. وبعد أن فكرت قليلًا قلت:
- متى هُدمت المنازل ذات الستائر السوداء؟
- منذ سنوات. والعالم بأسره ينعم بالحرية منذ سنوات. وقريبًا سوف تنتقل البشرية إلى عصر النضج مرورًا بعصر التنوير. أخبرنا بهذا ذاك الرجل العظيم المسجى في فراشه.
كنت أنا من هدم المنازل ذات الستائر السوداء. فضلًا عن أنني كنت قد حققت هذا بنفسي قبل قليل. ولم يكن بمقدوري أن أقول لهم هذا، ما كانوا ليصدقونني. كنتُ متأكدًا من هذا. علاوة على أنهم قد يحسبونني مجنونًا.
قلت:
- وهل أُريقت دماء كثيرة ذلك اليوم؟
- كلا يا سيدي. لم تُرَق ولو قطرة دم واحدة. حتى إن رئيس المنازل ذات الستائر السوداء مات من تلقاء نفسه حينما رأى منقذنا أمامه. وبموته تخلصت الإنسانية من أعظم بلاء. وامتدت ذكرياتنا لتصل بعد انقشاع هذا البلاء إلى الإنسان الأول. حينئذٍ تذكرنا كل الكلام، وصرنا بشرًا من جديد. وحينما وعينا أننا بشر أدركنا أننا أكرم مخلوقات السماوات والأرض. ورأينا أن العالم ملك لله وحده. ونحن خلفاؤه في هذا العالم. وحينئذ طرحنا ذلك الحمل الثقيل المسمى الطمع، والتمعت أعيننا بالحب. وهكذا استمتعنا بتجاوز حواسنا الخمس.
لم أكن أصدق ما سمعته وما رأيته. هل حقًّا قصر الزمان وطُوي المكان؟ هل كان يتشكل باستمرار زمان داخل الزمان، ومكان داخل المكان؟ وهل كنت أعيش هذا التداخل. ألم يكن هؤلاء الثلاثة الذين يقفون أمامي حقًّا أسرى في فترة من الفترات؟ ألم أكن قد رأيت بعيني أنهم قُتلوا على أيدي المسافرين؟ ألم يكن المسافرون أنفسهم قد قتلوني أنا أيضًا؟ ألم أكن أنا قد حملت جثماني على ظهري من تلك الغرفة التي أقف فيها الآن بإشارة من شخص مضيء الوجه أبيض اللحية، ومضيت به إلى الكهف الكائن بذلك الجبل؟
تساورني شكوك، تتعاظم بداخلي، وتنهش باستمرار في مخي... لم أدرِ بأي حال كيف يكون الخروج من هذا المأزق. فجأة خطر ببالي أن أنظر إلى ذلك

المسجى في الفراش. دنوتُ من رأسه. وكان الرجال الثلاثة ينظرون إليّ بفضول، ولم يحولوا بيني وبين ما أفعل. وفي الأصل قالوا إنهم أوكلوا إليَّ كافة أمور هذا الميت، لكنني كنت أتصرف على استحياء. كشفتُ الغطاء جزئيًّا عن وجه الميت. وحينما رأيت وجهه ظللت متجمدًا: إنه جثماني أنا، هذا جثماني أنا! لكن أين بقع الدم؟ ألم أكن قد انتشلته من بحر دم؟ حسنًا، ولكن كيف جاء جثماني إلى هنا؟ تبدو على عينيه علامات الفرح والسرور، ينظر إليَّ. وترتسم ابتسامة فوق شفتيه. أي جثمان هذا؟ استجمعت شجاعتي، ومددت إصبعي الإبهام والسبابة بيدي اليمنى، وأسبلت جفون الميت، فأغمضت عينيه ولم تتفتح مرة أخرى. وبهذا كنت قد أديت أولى واجباتي تجاه المتوفى.

كان اللغز قد انحل. وكان القائد وصاحب المؤسسة والعامل قد ماتوا: أي أن الفاشية والرأسمالية والشيوعية قد انتهت. وبُعثت الحرية والأخوة والحب من جديد. ونجت البشرية؛ وذاق الجميع حلاوة الشعور بآدميتهم. ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك مخلّص؛ وغدا كل شخص مخلّص نفسه.

كنتُ أعي الآن من أنا، وأين أوجَد. كان بمقدوري أن أبدأ في مهمتي دون أن أضيع أي وقت، وأدفن جثماني بنفسي دون أن أثقل على أحد. غير أن عيوني كانت لا تزال تبحث مجددًا عن الولي. كان بداخلي حاسة، وكانت هذه الحاسة تصيبني بالاهتياج وكأنني سأراه في التو. أي حاسة كانت هذه: السادسة، أم السابعة؟! ربما هي الأربعون. كنت قد طرحت حواسي الخمس العادية جانبًا منذ زمن بعيد.

ساعدني الرجال الثلاثة في مهمة غسل الجثة وتكفينها. الآن لم يكن بمقدوري أن أخاطبهم برجالي الثلاثة. وضعتُ الجثة في النعش الذي أُعد سلفًا. وفي هذه الأثناء أحضروا غطاء ليستروا به النعش. وكان هذا الغطاء من كشمير أخضر نُقش عليه قمر ونجم وشمس ونسر. لم أستطع لفترة أن أحوّل نظراتي عن هذا الغطاء. وبعد أن بسطته بعناية فوق النعش، سألتُ:

- ما هذا؟

قالوا:

- هذا علم بلدنا. إنه يرمز إلى أن الزمان والمكان قد طُويا وسُلما إلينا. ويشير إلى أن العالم وما فيه قد أودع أمانة عندنا.

قلتُ:

- وهل شهدتم شيئًا كهذا: أي طي الزمان والمكان؟ وهل تعرفون كيف ستُحمل الأمانة التي تتحدثون عنها؟

- أخبرنا بهذا منقذنا. إن معه الثلاثة، والسبعة، والأربعون وكل أولياء الحق.

- ألم يمت؟

- لقد خرج السيف من غمده، وصار أكثر حدة وبريقًا. ونحن الآن سندفن الغمد، لا السيف.

لم أستطع أن أسأل عن أي شيء آخر. فكل الأسئلة التي طرحتها كانت ترتد على ما عشته من أحداث، كل شيء كان يبدأ بي وينتهي بي. المنازل ذات الستائر السوداء، والرئيس، والولي، والجبل، والمدينة، والمقبرة، والمسافرون. أنظر إلى الجثمان الذي وضعته في النعش. ها هو ذا السيف، وها هو ذا غمده... ها هو ذا الزمان، وها هو ذا المكان... يدور العالم أمامي. أود أن أراه من كثب أكثر.

***

حملتُ ورجالي الثلاثة النعش فوق أكتافنا من جهاته الأربع، وخرجنا. وماجت جموع الناس التي رأتنا، وبدأ سيل البشر يتدفق على النعش من كل حدب وصوب. وفقدنا السيطرة على النعش، يتقدم فوق أيدي الناس وكأنه قارب يتقدم في بحر متلاطم الأمواج. وكنا نحن الأربعة نبذل جهدًا عظيمًا كي لا ننفصل عن النعش.

كنت خلف النعش مباشرة، وبقدر ما كان الناس يحمون النعش ويذودون عنه، ويحملونه بتبجيل واحترام، كانوا يظهرون لي أيضًا احترامًا عميقًا، وكانوا يجهدون ألا يحولوا بيني وبين النعش. أشعر أنني أرتدي زيًّا لا أعرفه، لأنني كنت أتحرك بصورة أكثر راحة من أي وقت مضى. وحينما استدرت ونظرت إلى نفسي، رأيت أنني أتعمم بعمامة بيضاء، وأرتدي جبة سوداء. وكانت الشمس ترتفع شيئًا فشيئًا إلى الرابية. ولم يكن بالسماء لا قمر ولا نجم ولا نسر ولا أعلام. وكان زمن الشمس يمر سريعًا معها. مما يعني أن العالم كان يحدد الزمان والمكان في مدارهما الطبيعي.

وانتهينا إلى ساحة عظيمة تقع في وسط المدينة، فتوقفنا. وكان هنا حجر مصلّى. وكان مدهشًا من الوهلة الأولى. يبدو أن هذا الحجر كان على الأرجح نُصب في أماكن كهذه. ولعل هذا كان وضعًا مؤقتًا. وضعوا النعش على حجر المصلى، وتراجعت الجموع خطوة إلى الخلف. نظرتُ فإذا بي أمام الجماعة. فهمت أن هذه اللحظة كانت لحظة إقامة صلاة الجنازة. كنت أعرف أن هذه المهمة موكلة إليَّ. تقدمت قليلًا، ووقفتُ بمحاذاة صدر الجنازة. وقبل الشروع في الصلاة، نظرتُ خلفي مرة أخرى كي أرى الجماعة. فرأيت في الصف الأول وورائي مباشرة الولي والثلاثة، والسبعة، والأربعين. ظللت أنظر إليهم لفترة بدهشة، ثم حوّلت نظراتي إلى بعيد؛ أرى بحرًا من البشر يمتد على مدى البصر. البشرية بأسرها قد تراصت في صفوف خلف جنازتي. ما الذي أوقفهم بهذا القدر من الخشوع؟ أكان الموت أم الحياة؟ أحس للحظة بألم وسعادة وأمل البشر بأسرهم في قلبي. وينفتح في ذهني ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها ورقة ورقة. الأشجار أقلام، والبحار مِداد. تتدفق كتابة الإنسانية إلى مخي حرفًا حرفًا، كلمة كلمة، جملة جملة، صفحة صفحة. كيف بمقدوري أن

أحمل هذا الحمل؛ هل هذه أمانة يمكن حملها؟ لا أدري ماذا أفعل. أقف متسمرًا بين سيل البشر والنعش.

أستدير وأنظر مجددًا إلى جموع الناس. تلتقي حينئذٍ عيناي بعيني الولي، ويتردد صوت في رأسي وفي العالم كله:

- إنك لاحق بنا، هيا لا تضيع الوقت!

إنه صوت الولي! أعلم أنه لا أحد يستطيع سماع هذا الصوت سواي. حتى الحاسة السادسة لم تكن لتكفي لالتقاط هذا الصوت وإدراكه. استدرت إلى النعش، وشرعت في الصلاة.

وفي نهاية الصلاة أحاطت جموع الناس بالنعش مجددًا. يسيّر السيل البشري النعش. لا يمكنني رؤية الولي و(الأولياء) الثلاثة والسبعة والأربعين: أنظر إلى سيل البشر من علٍ، وأبحث عنهم، لكنهم غير موجودين. أفطن فجأة إلى أنني أجوب السماوات تمامًا مثل نسر؛ ليس عليّ لا جبة ولا عمامة! إنني واعٍ بنفسي، ولكنني لا أرى جسدي. فهل تحولتُ إلى كائن معنوي غير ملموس؟ أعلم أنني لم أتحول إلى ظل. ولا يمكنني أن أعرف إلامَ تحولت الآن. عيوني على جموع الناس؛ أستطيع أن أرى بوضوح الدموع تنهمر على وجناتهم. مشاعر الجميع واحدة، وآلامهم وأحزانهم واحدة. أجد نفسي فوق النعش. أتحدث، ولكن لا يسمع صوتي أحد. أدرك أنه لا يستطيع أن يراني أحد. أما أنا فأرى الناس جميعًا. أدرك في تلك اللحظة أن كياني المادي الملموس داخل النعش، وكياني غير المرئي فوقه!

خرجنا من المدينة، وانتهينا إلى سهل فسيح؛ أعرف هذا المكان، إنه المكان الذي كانت توجد فيه المنازل ذات الستائر السوداء. لم يبق منها ولو أثر. أنظر بحيرة ودهشة. هناك شجرتا دُلّب بينهما ينبوع ماء في الموضع الذي كانت به المنازل ذات الستائر السوداء! وإلى جانب الينبوع هناك قبر حُفر لتوّه! أجيل نظراتي بإمعان، لا أستطيع أن أرى مقبرة على مقربة منه. وفيما كنت أسعى لحل هذا اللغز، حملوا النعش، ووضعوه على حافة القبر، توقف السيل البشري، وأحاط بالقبر من كل الجهات.

أمسك شخصان جثماني من جهة الرأس ومن جهة القدم، ورفعاه من النعش، وأنزلاه القبر. أستطيع أن أرى كل ما يجري بكامل تفاصيله، لكنني لا أستطيع أن ألمس أي شيء قط، ولا حتى جثماني. يهيلون التراب على القبر، ويحول التراب بيني وبين جثماني.

يبلل الناس ترابي بدموع أعينهم، وتخضوضر أكثر شجرتا الدُلّب[9] اللتان كانتا بجوار القبر، ويزداد ماء الينبوع وفرة وصفاء. وفي ساعة الظهيرة المباركة هذه أترك جثماني بين ذراعي ربة التراب الحانية؛ أنظر إلى ما هو مرئي وغير مرئي، أرى في أحد الجوانب أحياء، وفي جانب آخر موتى. لا يمكنني أن أجزم أيهم حقيقي أكثر.

يموج البحر البشري، يغطي وقع أقدام الأحياء كل جنبات المكان. وأرى الناس يعودون مجددًا إلى المدينة. هل سأبقى هنا وحدي؟ حينئذٍ تُرفع الستار، وألتقي بمشهد ويا له من مشهد! حتى إنني أغيب عن الوعي، وأغوص في بحر من المتعة.

(الأولياء) الثلاثة، والسبعة، والأربعون، وكل أولياء الحق أجمعين بجواري. أرى العالم؛ وقد جمع البشر بأسرهم، وقدمهم لنا، حتى نبثَّ فيهم روحًا جديدة. أرى الولي أمامي، أنادي عليه بسعادة واهتياج:

- جئتُ إليك، جئت إليك!

ينعكس عليّ النور الموجود في عيني الولي، وتبث الابتسامة المرتسمة على شفتيه الطمأنينة والثقة في العالم.

يقول الولي:

- ومتى افترقنا أصلًا؟

- لكنك قلت: إنك لاحق بنا، أسرع!

لم يُجب، وتعمقت الابتسامة المرتسمة فوق شفتيه، وبدأتُ أردد الأنشودة التي تعلمتها منه:

- انتهت مهمتنا،

صرنا بشرًا مباركين.

لامس الولي بإصبعه شفتيّ، وأشار إليّ بأن أصمت، وقال:

- تلك الكلمات كانت من أجل أهل الدنيا. فمهمتنا لا تنتهي في أي وقت قط، ولن تنتهي... وسنمد يد العون للبشر طالما كانوا في الدنيا.

وبسط الولي ذراعيه، واحتضنني. وكان الزمان قد طُوي منذ فترة، ولم يعد هناك مكان. تُراني في أي زمن وفي أي مكان؟! أطالع الكون وقد توقفتُ في كل زمان ومكان.

الدُّلَّب: شجر معمِّر يمتاز بضخامته ارتفاعًا وعرضًا. ورقه يشبه ورق الكَرْم. يحتفي به الأتراك احتفاء عظيمًا بلغ حد التقديس والتبرك؛ فأغلبهم يحرّمون قطعه، كما دأبوا –من قديم الأزمان– على غرس اثنين منه قبالة مقابر أوليائهم وصالحيهم. (المترجم).